الطبعة الأولى

سلطان موسى الموسى

تثريب

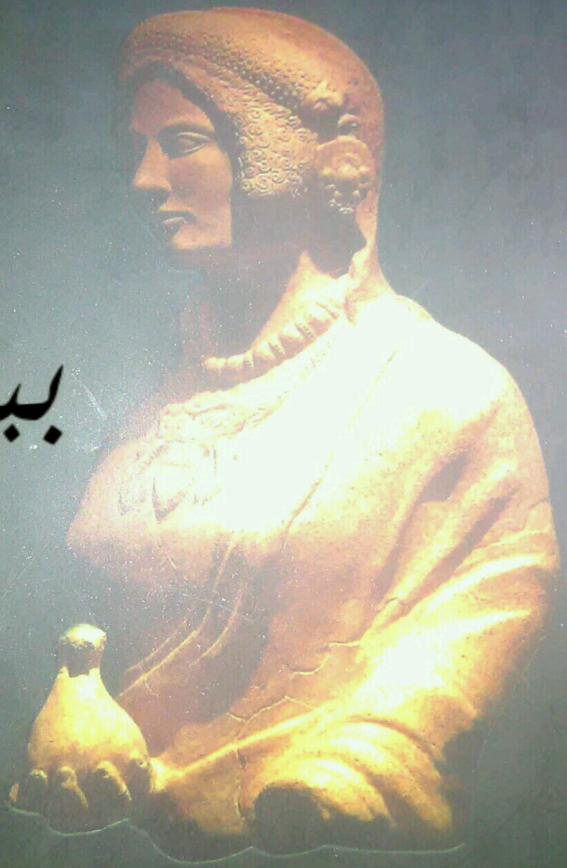

ببلوتيكا

من وحي الوجد

تثريب

سلطان موسى الموسى

ببلوتيكا

facebook.com/ktabpdf/

https://t.me/ktabpdf

هنالك صنفان من الناس يمكن أن نسميهم عقلاء

الذين يجاهدون في خدمة الله لأنهم يعرفونه

والذين يجاهدون في البحث عنه لأنهم لايعرفونه

باسكال

الإهداء

إلى سائر المكفوفين في الكون

والذي خلق النور.. أنتم نورنا

وبكم نهتدي..

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم.. ربنا الله الرحيم.. ولا إله إلا الرحيم..

رغم قناعتي بأن لدي الكثير في أعماقي لأقوله وأكتبه، إلا أنني على قناعة أكبر بكوني كسولاً جداً، ولكني في كل مرة أفكر في حالي إذا مت أو أصابني الجنون وذهب عقلي بلاعودة.. أتوقف قليلاً مع نفسي وأقول: أليس محزنًا أن لا أكون قد كتبت رسالتي وأفكاري المتواضعة في هذه الحياة قبل رحيلي أو رحيل عقلي!.. ومن هنا أجدني مندفعاً ومتحمساً للكتابة حتى أصطدم بما يثبطني ويجثو على اندفاعي من جديد.. كان بودي أن تكون المصادفة والعشوائية حقيقة في تكوين الأشياء وتصميمها من العدم بشكلٍ متقن.. فأسكب الحبر على الورق وأترقبه وهو ينسج من نفسه كلماتٍ تشبه الكلمات القاطنة في أعماقي، مزينةً.. منقحةً.. بليغة.. ويا له من سحرٍ مبين.. ولكني أعلم يقيناً بأن الإيمان بالمصادفة ضربٌ من الخيال، وليس مجدياً في كتابة جملة مفيدة فضلاً عن أن ينتج من وراء هذه المصادفة كونٌ مثل كوننا هذا بما فيه من مخلوقات.. وإني لأرى أن جميع من آمنوا بالمصادفة كتفسيرٍ لنشأة الحياة والوجود قد تورطوا كثيراً في عدم حصولهم على إجاباتٍ عن كيف يقفز الوجود من العدم؟ وكيف يخرج النظام من الفوضى؟ وكيف نصبت قوانين الطبيعة نفسها؟ وكيف تنشأ الحياة من المادة غير الحية؟..

تجدهم يرددون أن العِلم سيتوصل إلى معرفة ذلك يوماً ما وهم

يتهمونك ويقولون لك: «بأنك تستخدم فكرة (وجود خالق) لتسد بها الثغرات التي لم يصل لها العِلم! وأنك تجعل من خالقك إلهًا لسد الثغرات فقط».. ويبدو أن أصحابنا هؤلاء نسوا أو تناسوا أنهم هم من جعلوا من العِلم هنا وسيلة لسد الثغرات وحمّلوه فوق احتماله، لأن هذه الأمور التي ذكرناها آنفًا يستحيل تفسيرها كونها حقائق نهائية مطلقة ولن يكتشفها العلم حتى في المستقبل، وهذا من الثوابت العلمية، أي إن القول بوجود صانع وخالق لم يعد بدافع (سد الثغرات) أو الإتيان بحلٍّ مؤقت لعجزنا عن تفسير بعض الأمور، ولكنه قولٌ عن علم أيضاً،وسيتطلب الاعتراض على ذلك من الناحية العلمية قبول فكرةً أن الكون والمادة وُجدت من العدم، وأن الحياة دبّت فجأة في المادة غيرالحية، وأن النظام والقوانين وُلِدت من العشوائية والفوضى،[1] وهذا ما يجعل الكفة متوازية بين الملحدين والمؤمنين، فقضية الإلحاد باتت قائمة على (الإيمان بالغيب) أيضاً، لذا سألملم حماسي من جديد وسأستعين بالله وأمسك بالقلم وأبدأ بالكتابة.. فلا بد من أن يكون للشيء المصنوع صانعٌ..

***

يُخيّل إلي أن التاريخ صار كالهرم له عدة أوجه، رغم أن التاريخ كما يشاع لا يكتبه إلا المنتصرون من واقع منظورهم الواحد.. ولكن من يقوى على الاختلاف؟!

أجدني هنا أتحدث عن قصة أثرية تاريخية، وإن اختلفت الأقوال حول

١- للمزيد كتاب كيف بدأ الخلق ص ٨١-٨٢.

أسانيدها أو صحة الأشخاص فيها، ولكنها تطغى على الأيام، وأنا أعني هنا القصة الشهيرة للإمام فخر الدين الرازي، وهي أن عجوزاً من أهل نيسابور رأت الناس يتهافتون على رؤية الإمام الرازي صاحب تفسير (مفاتيح الغيب) عندما كان يزور بعض الأحياء،فعندما سألتهم من يكون هذا الذي تتهافتون عليه؟ قالوا لها: ألا تعرفين من هذا؟! هذا الذي عنده مئة دليل على وجود الله.

فقالت: لو لم يكن عنده مئة شك لما كان عنده مئة دليل.

فلمّا سمعها الإمام تقول هذا تبسّم ضاحكاً من قولها وقال: (اللهم إيماناً كإيمان العجائز).

وإن كان ما يجب أن نفهمه من هذه القصة أن الرازي يغبط تلك العجوز على إيمانها الفطري الذي لم تطَلْه أنياب الوجودية وشكوك الفلاسفة، إلا أن من لايؤمنون بوجود الله يستخدمون هذه القصة من زاوية أخرى فيدّعون أن من يبحث عن الله هو بالضرورة إنسانٌ مدفوعٌ بشكوكه التي تعتريه وهو إنما يبحث عن ما يسكّن به نفسه ويُطمَئنّ به قلبه، ولو لم يكن لديه شك لقال مثل تلك العجوز التي غبطها الرازي على إيمانها.

وأنا هنا أتساءل وأقول: ألا يمكننا تطبيق هذه النظرة بشكلٍ عكسي حتى على الملحد؟ فهو أيضاً يبحث عن الأدلة التي يؤكد بها اطمئنانه لعدم وجود خالق!؟ ألا يعني ذلك وفق هذا المنطق أنه مدفوعٌ بشكوكه

التي تعتريه!؟ وأنه لو كان مطمئناً إلى ما وصل إليه لكفى الأديان شرَّه وآمن (كإيمان العجائز)!؟

ربما يقول أحدهم: لماذا تصفهم بالمؤمنين؟! والجواب على ذلك بسيط، فلو قرأت عنهم ستجدهم مللاً ونحلاً، منهم من يؤمن فعلاً بأزلية الكون والمادة، ومنهم من يؤمن بالمصادفة والعشوائية، ومنهم من يؤمن بالأكوان المتعددة التي انفجرت قبل كوننا، ومنهم من يؤمن حتى بوجود مخلوقاتٍ فضائية في أكوانٍ أخرى كان لها الفضل في نشأتنا من العدم! هذا غير من يؤمن بأن العلم سيصل مستقبلاً لحل المعضلات الإلحادية التي ذكرناها آنفاً، وهذا إيمانٌ بالغيب أيضاً، وكلٌّ يؤمن على ليلاه، ولسنا هنا لمنع الآخرين من الإيمان فهذا حقٌّ لهم، ولكن لا بد من توضيح أن الموقف الإلحادي صار ديناً قائماً على الإيمان بالغيب والماورائيات، ويقودهُ مبشرون ومنذرون!

***

الدين وأخص الإسلامي منه، لم يصادر حق أتباعه في استخدام عقولهم ولم يأمرهم بالتسليم الأعمى دون ذلك.. فحين يخاطبنا الله أكثر من مرة بقوله: أفلا تعقلون،أفلا تتفكرون، أفلا يتدبرون؟ ثم يترك لنا حرية الاعتناق في قوله ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] فأنت هنا مدفوعٌ بعقلك ويقينك للبحث عن صراطه.

وحين يخاطبنا الله ويحثنا على أن نسير في الأرض وننظر كيف بدأ

الخلق، وأن ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وأن نسير في الأرض وننظر كيف كانت عاقبة الذين من قبلنا، فنحن ندرك أن السير هنا هو دعوة للبحث والتقصي وطلبًا للعلم والمعرفة.

وحين يقول الله: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩] بحيث يُجمع المفسرون أن اليقين هنا هو الموت، فهذا يعني أن ما قبل اليقين من الحياة ليس إلا رحلةُ كفاحٍ ما بين الإيمان والشك، يرفع الله فيها الذين أوتوا العِلم درجات في معرفته والاهتداء إليه.

ولو توقفنا قليلاً مع الآية التي يقول الله فيها: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾ [الحج:٨]. سنجد أن الترتيب الرباني ابتدأ بالعلم أولاً وهو ما يُفَسر الإنسان به الظواهر من حوله عن طريق البحث والمعرفة والتجربة من خلال ما يدركه بالحواس، ثم تلاه الهدى وهو معرفة طريق الحق بالعقل والتفكر والفلسفة والفطرة السليمة التي وهبها الله للإنسان، ومن ثم يكمّل ذلك كله الكتاب المنير والذي يقوم على الوحي والخطاب الإلهي لتفسير الغيبيات والأمور التي لا تخضع للتطبيق والتجربة والإدراك بالحواس كالعلم.. ولا للفطرة والتفكر والفلسفة كالهدى.. فيكمل بعضها بعضاً..

ثم انظر حين يخبرنا القرآن عن قصة النبي إبراهيم الذي طلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى فيقول الله سبحانه له: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِن ﴾ [البقرة:٢٦٠]! فيرد عليه قائلاً: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي ﴾ [البقرة:٢٦٠]، وبهذا يؤكد لنا القرآن أن البحث عن اطمئنان القلب والاستزادة في

الوصول لمعرفة عظمة الخالق لايتعارض مع الإيمان الحق، فها هو أبو الأنبياء إبراهيم الذي فدى الله ولده بذبح عظيم ونجاه من النار التي صارت برداً وسلاماً عليه، وكشف له ملكوت السماوات، وبشّره على الكبر بغلام عليم وغيرها من المعجزات.، ومع ذلك طلب من الله أن يريه ما يطمئن به قلبه!.. فكيف بالإنسان العادي؟ ولماذا يُلام على بحثه سعياً لاطمئنان قلبه؟

القرآن أكثر كتاب ديني انتقد بعدة مواضع ﴿ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [المائدة: ١٠٤]! فمن غير اللائق أن نظن أنه يدعونا لتوارث الدين! هو يريد منا أن نتفكر ونتدبر في كل زمان ومكان لندرك مع من الحق.

لذا، كان الأجدر بمن ربطوا بحث الإنسان (المسلم) عن الدلائل والقرائن في هذه الحياة بشكه وقلة إيمانه أن يعرفوا الخلفية الدينية التي ينطلق منها والتي تدعوه لذلك، فالقرآن يخاطب الناس كافة والناس كافة ليسوا بمسلمين، وعليه، فإن تحفيز العقل وإقرار أهمية العِلم للبحث عن الحقيقة هو مطلب دنيوي وديني، تتسامى به الأنفس وتتقدم به الدول والحضارات، ويهدي به الله،ويزيد الذين اهتدوا هدى.

***

لم يمضِ عام ونيف على صدور كتابي السابق (أقومُ قِيلا) حتى وصلني من الثناء والتشجيع ما وصلني من النقد والعتاب، ولست هنا بصدد مناقشة تلكم الانتقادات التي أشكر الجميع عليها سواء كانت هادمة أم بنّاءة، بيد أن ما علق في ذهني منها دفع بنات أفكاري للتمخّض وإعادة

ولادة تلك الانتقادات على شكل نقاطٍ ثلاث، مما يتيح لي التوقف عندها لتوضيحها، وأنا هنا أستميح القارئ الكريم أن يأذن لي بشيءٍ من الإطالة في التعقيب على هذه النقاط لما لها من علاقة بهذا الكتاب.

تتجلى النقطة الأولى في الجماعة التي تهاجم أسلوب أي كاتب لأنه بسيط وسلس فقط! فتجد من يصمه بالأسلوب السطحي والعامي والبسيط وكأنهم يقولون: «إن ما تكتبه لا يلائمنا نحن معشر المثقفين والقرّاء المفكرين.. لا بد للغة أن ترتفع لترتقي لعقولنا.. فكيف يستوي أن تخاطبنا بلغة يفهمها أي شخصٍ في الشارع أو السوق؟ أين التخصيص والخطاب النخبوي؟ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟».

نعم لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، ولكن الله قد يسر القرآن للذكر أيضاً! -مع فارق التشبيه بالطبع- إلا أن أمر البعض يبعث على الحيرة حين يظن أن لزاماً عليه إذا كان قارئاً ومثقفاً أن تخاطبه بمصطلحاته ولغته التي يفهمها هو، ومن العيب أن تقول له كلمات يفهمها الذين هم أدنى منه! هو يفضّل أن تقول له (ميتافيزيقيا) أو (إبستمولوجيا) كونه مثقفاً وقارئاً وسيفهمها هو وأقرانه من النخبة، ولا يفضّل أن تقول له (ما وراء الطبيعة) أو (نظرية المعرفة)! فتجبره على أن يتشارك ويتواضع في فهمه مع الآخرين رغم أن لهما نفس المعنى والدلالة..!

يذكّرني هؤلاء بما كتبه عالم الاجتماع الدكتور علي الوردي حين قال: (أخذ الأكاديميون يبتكرون المصطلحات الرنانة التي لا صلة لها بالحياة

العملية ففغر العامة أفواههم إعجاباً بها وظنوا أنهم أمام رموز كبرى تكمن فيها أسرار الكون، ثم جاء المترفون وشجعوا مثل هذه الحذلقة الفارغة حيث وجدوا فيها وسيلة لإلهاء عقول الناس،وكلما ازداد المفكر حذلقة ازداد المترفون له تقديراً وإكباراً.. ولا يزال العامة عندنا متأثرين بهذا الاتجاه، فإذا سمعوا كلاماً غامضاً مملوءاً بالمصطلحات التي لا يفهمونها اعتبروه من آيات البلاغة والفلسفة العالية) ثم ذكر قصة لطيفة حصلت له يقول فيها: (رأيت ذات يوم رجلاً يستمع إلى خطيب وهو معجب به أشد الإعجاب، فسألته: ماذا فهمت؟ أجابني وهو حانق: وهل أستطيع أن أفهم ما يقوله هذا العالم العظيم؟.. يظن هذا المسكين أن من شروط العظمة في المفكر أن يكون غامضاً غير مفهوم، فإذا اتضح كلامه وأدرك المستمعون معناه بسهولة، انحط من مكانته العالية التي كان فيها).[1]

حمانا الله وإياكم من التعالي أو الانحطاط.. وأبعدنا وإياكم عن التكلف والتزخرف والتعقيد في الخطابة، وعليه، فإني أعتذر لهؤلاء القرّاء-على افتراض أنهم اقتنوا هذا الكتاب- لأني أخشى أن أخذلهم هنا في حال كان أسلوبي بسيطاً ويفهمه الجميع!!

****

ويسألونني عن الحياد، وإني لأعلم بأنهم يعلمون أن الحياد في الأمور التي تتعلق بالعقائد والأديان والطوائف والفكر والفلسفة والتاريخ

١- انظر إلى: مهزلة العقل البشري ص ٢٠٥.

والأعراق والأحزاب والسياسة والرياضة وخشيت أن أكتب كل شيء.. ليس إلا (كذبة) وسراباً بقيعة.. لن يدركه الظمآن أبداً.. نعم أنا مسلم.. وحتى لو اكتفيت بقولي إن الإسلام من أجمل الأديان دون أن أذكر غيره من المعتقدات إطلاقاً.. فسيظن أصحاب المعتقدات الأخرى أني أسأت لهم وقللت من كون معتقداتهم جميلةً أيضًا!، ولكن الواجب أن نعرض ما في معتقدات الآخرين من باب المقارنة والمدارسة وتوضيح الأمور التي وضحها القرآن الكريم دون هجوم أو تجاوز.

أتذكر جيداً في عام ٢٠٠٥ م حين ظهرت الرسومات المسيئة للنبي محمد عليه الصلاة والسلام، كان الموقف الدولي غريباً! ولم يتقبله الناس، بل قامت الدنيا ولم تقعد في العالم الإسلامي من تزايد الاستنكارات والمظاهرات.. وذلك حين اعْتُبر أن الرسومات المسيئة تندرج تحت (حرية التعبير)!! وأجد أن ذلك طبيعي عندهم وهم صادقون في قناعتهم تلك!، فالغرب يسمحون ببيع الكتب الإلحادية مثل كتب راسل وهيوم وسارتر ونيتشة والتي كانت الكنيسة تمنع أمثالها من الكتب وفقاً لقرار الجمعية المقدسة للدفاع عن العقيدة الكاثوليكية قبل إلغاء هذه الجمعية الرقابية عام ١٩٦٦م، وذلك كون هذه الكتب تسيء حتى لعقليات أتباع الديانات كافة وتشكك في نضجها وتنعتهم بعابدي الأوهام ومؤجري العقول إلى جانب السخرية بالكتب المقدسة ووصفها بالحماقة، ومع ذلك تجد الآن هذه الكتب بل وأكثر موجودة ومتداولة لدى الغرب، وطبعاً من باب حرية التعبير!.. أما أنا -وأعوذ بالله من كلمة أنا- فلم أستغل

ولن أستغل قناعتهم بأن الإساءة تندرج تحت حرية التعبير! لأنني كمسلم مقيد بمطلب أخلاقي وديني، وذلك يكمن بعدم السب أو الإساءة لأي دين أو معتقد وضرورة احترامه واحترام أتباعه امتثالاً لأمر الله الذي قال: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

****

كانت الساعة الواحدة ظهراً حين تلقّف بريدي الإلكتروني تلك الرسالة التي أعلن صاحبها الحرب فيها قبل السلام،لفتني الغضب الشديد في عنوانها فجذنبي للإسراع في فتحها ورؤية ما بها، وما أن بدأت بالقراءة حتى بطل العجب إذ عرفت السبب، فقد تبين لي أن غضب واندفاع صاحبنا كان بسبب انتقادي لنظرية داروين الشهيرة لتطور الكائنات، فهو يرى أني انتقدتها عن جهل وعدم دراية بأن هذه النظرية لا تتعارض مع وجود خالق، وعدم دراية بأنه لا يتعارض مع كوني مسلماً أن أومن بنظرية داروين، وبأن فيها تفسيراً جميلاً لنشأة الأنواع في الكون؟ كما انتقدني لأني قلت إنها مجرد (نظرية)وليست(حقيقة علمية)! ويقول ماذا تسمي ما يقوله علماء البيولوجيا من كونها أصبحت من المسلمات العلمية جرّاء الأدلة الكثيرة التي ظهرت لتأكيدها؟ وهل مشكلتك في التشكيك فيها لمجرد أن اسمها (نظرية)! ماذا تقول إذاً عن نظرية الجاذبية لنيوتن؟ هل يمكنك أن تتجرأ وتقول بأن الجاذبية مجرد نظرية وليست حقيقة علمية..؟!

وعلى الرغم من أني لم أسهب ولم أطنب في حديثي عن نظرية التطور

وذلك لأني أردت أن يكون كتابي السابق مدخلاً بسيطاً للمبتدئين، إلا أنني لا ألوم أخي صاحب هذه الرسالة فهو لا يعلم كم كنت مفتوناً بنظرية داروين في الماضي، أمشي بين أصدقائي مختالاً فخوراً بكوني أعرف أصل الأنواع والكائنات، أجدني أردد ما يقوله العلماء (الدراونة)عن وجود أدلة وأحافير وأعضاء مشتركة في الكائنات وأخرى ضامرة تؤكد ذلك - وأنا لم أرَ أغلب الأدلة بالطبع -.. ولكن يجب أن أثق بهم.. فهم علماء!

ولم أجد في نفسي يوماً أي شك بأن نظرية داروين لا تتعارض مع وجود خالق، بل إنها لا تناقش هذه المسألة أصلاً! فحتى داروين المسكين لم يكن ملحداً وكانت نظريته تتمحور حول تطور الكائنات من الخلية الأولى فقط، ولم يكن يتحدث عن (من أين جاءت هذه الخلية الأولى نفسها!؟)

بل إن لديه من الأقوال ما يؤكد عدم إنكاره وجود خالق أشهرها قوله: (من المستحيل أن نتصور أن كوناً هائلاً ككوننا قد نشأ بمحض المصادفة العمياء.. دائماً أجدني مدفوعاً للقول بوجود الإله).[1]

وإن كان هناك من سعى من الملاحدة ليثبت إلحاد داروين نتيجةً لوفاة ابنته، فهذا إن صح فهو أمرٌ آخر يحمل ردة فعل (عاطفية) ليست لها علاقة بنظريته (العلمية)! والتي بالتأكيد ليست سبباً لذلك.

وكان ما يشجعني على المضي قدماً في نظرية التطور، هو فوز العلماء

---

١ - انظر the auto biographu of Charles Darwin 1809-1882. Nora Barlow.

المسلمين بعصا السبق في فكرة تطور الكائنات وإن كان بشكلٍ كريم المرور، فنجد أن إخوان الصفا قد تحدثوا عن ذلك قبل قرونٍ من الزمان، بل ونجد أن ابن خلدون في مقدمته الشهيرة تحدث عن اشتراك الكائنات في نوع واحد فقال: (إنّا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام، وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان بالأكوان، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض- انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج: آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخيل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط. ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب لأن يصير أول أفق الذي بعده. واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدرج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية، ترتفع إليه من عالم القردة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل، وكان ذلك أول أفق الإنسان بعده، وهذا غاية شهودنا).

وكذلك ما قاله ابن مسكويه في كتابه تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق: (إن الموجودات مراتب، وكلها سلسلة متصلة، وكل نوع من الموجودات يبدأ بالبساطة ثم لا يزال يترقى ويتعقد حتى يبلغ أفق النوع الذي يليه، فالنبات في أفق الجماد، ثم يترقى حتى يبلغ أعلى درجة، فإذا زاد عليها قبل صورة الحيوان. وكذلك الحيوان يبدأ بسيطاً ثم يترقى حتى يصل إلى مرتبة قريبة من الإنسان).

وكانت مقولة الشيخ حسين الجسر في كتابه (الرسالة الحميدية) تتردد في ذاكرتي دائماً حين قال ما مفاده بأن النظرية لا تتعارض مع وجود خالق، فما المانع من أن يكون الله هو من خلق المادة وجعلها قابلة للتطور والتحول من صورة إلى صورة بموجب النواميس التي وضعها فيها وبحركة أجزائها؟!

لذا نجد من علماء المسلمين إلى اليوم من يقبل بنظرية التطور، بل وأصدروا حولها العديد من الكتب التي تتحدث عن أسلمتها مثل كتاب (آذان الأنعام) و(كيف بدأ الخلق) و(ملحمة التطور البشري) وكذلك ما قاموا به من تأويل بعض الآيات التي تفيد بأن خلق الإنسان كان تطورياً وعلى فترات زمنية متسلسلة وليس خلقاً مباشراً كقول الله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [السجدة: ٧-٩] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١] ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: ٦] ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٤٦] ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] وغير ذلك من الآيات التي قاموا بتأويلها.

بيد أن مزيداً من التعمق والبحث والقراءة لجميع الأطراف جعلني أدرك أن من قام بتهذيب النظرية من المسلمين قد خالف داروين صاحب النظرية نفسها، وذلك بعد معرفتي بأن نظرية(داروين) شيء، والتطور الموجه أو (التطوير) الذي يحاول التطوريون المسلمون إثباته شيءٌ آخر.

فالأصل في نظرية التطور هو أن تفسر أصل الأنواع ونشوء وارتقاء الكائنات تفسيراً (طبيعيًا) ولكن التطوريين المسلمين حين تبنوا النظرية جعلوا وجود الإله يفسر الأمور التي عجز العِلم عن تفسيرها طبيعيّاً من خلال هذه النظرية.. بمعنى أنهم سدوا ثغراتها ومعضلاتها التي يتطلب حدوثها معجزة وأسندوا ذلك إلى قدرة وإرادة الله الحكيم.. متناسين أني وفق هذا المنطق أستطيع أن أتبنى أي نظرية في الوجود مهما كان تهافتها طالما سأعزو تفسير ثغراتها ومشكلاتها إلى إرادة ومشيئة الله القدير.. وسيخرس بذلك المؤمنون!.. وهذا بالطبع لا يعني إطلاقاً أن النظرية نجحت في الاختبار وقدمت تفسيراً علميّاً لنشأة الإنسان (العاقل)، بل إن معظمهم لا يفرقون بين التطور الصغروي الذي يتقاطع مع علوم الوراثة والتكيف وتمرير الجينات، والذي تقوم عليه الدلائل، وبين التطور الكبروي الذي يتحدث عن نشأة الحياة من الخلية الأولى وتطور الكائنات منها! فيظنون أن صحة الأول تعني بالضرورة صحة الثاني! وهذا هو حجر الزاوية الذي لا دليل عليه!

فالإيمان بنظرية داروين والذي يتشبث به الملاحدة كبديل عن وجود الخالق يتخلله الإيمان بالطفرات العشوائية، وهذا بالتأكيد يتعارض مع وجود خالقٍ مدبر يقف وراء تكوين الإنسان.. كما أن النظرية من منظورها الإلحادي لا تفسر الكثير من التساؤلات مثل من أين جاءت الغريزة والإدراك والوعي والعقل والتفكير؟ ومتى دبت الحياة في المادة غير الحية؟ ومن أين جاءت الخلية الأولى أصلاً؟

ومن وضع في هذه الخلية المكَوِّن المعرفي (The Know How) وجعلها عاقلة وتعرف كيف يجب أن تتطور!؟ إن معرفة كل ذلك هو من أبسط حقوقي على كل من يتبنى هذه النظرية قبل أن أعتنقها على عماوة!

لذا فإن انتقاد أي شخص لنظرية (داروين) يجب أن يُفهم من خلاله أنه ينتقد نظرية أخرى ليس لها علاقة في مضمونها مع نظرية المسلمين من التطوريين! وهذا يعني إجابة الشطر الأول من رسالة صاحبنا الإلكترونية حين قال: (لماذا تنتقد نظرية التطور وهي لا تتعارض مع وجود خالق؟) دون أن يفرق بين أنواع التطور (العشوائي أو الموجّه)!

مع ضرورة التنويه بأن وجود من قاموا بتهذيب النظرية من المسلمين لا يعني أيضاً أن ما قاموا به لا يُنتقد وأن النظرية تحولت إلى حقيقة علمية لا تقبل النقاش! فالانقسام الذي حصل الآن كبير في صفوف التطوريين، فمنهم من يؤمن بالتصميم الذكي كالمسلمين، ومنهم من يؤمن بالعشوائية والمصادفة كالملاحدة، وجميعهم يرون أن لديهم أدلتهم الروحانية التي تزيد من (إيمانهم).. أثابهم الله!

وليس موقف القبول بالتطور العشوائي أو الموجّه هو ما حصل تجاه النظرية.. بل إننا نجد حتى من الملاحدة أو اللادينيين من يرفض نظرية التطور مثل (ديفيد بيرلينسكي) الذي يصفها بالنظرية الهشة التي أثبتت فشلها رياضيّاً ويتهم الملاحدة بأنهم ألبسوها ثوب العلم، وليس(لديفيد بيرلينسكي) ما يدافع عنه سوى الأمانة العلمية!

وقد نجد أيضاً من التطوريين الدراونة من ارتد وتراجع عن الإيمان

بها مثل (دين كانيون) برفسور علم الأحياء في جامعة سان فرانسيسكو والذي قال بعد تراجعه في لقاءٍ مرئي: (في زمن تشارليز داروين لم يكن يُعرف إلا القليل عن تعقيد الخلية والكائنات المجهرية وبنيتها، فقد كان هناك تصور في القرن التاسع عشر بأن الخلية الحية هي مجموعة إنزيمات بلا خصائص ولا يُعرف أي شيء عن تفصيلاتها وتعقيدات بنيتها الثلاثية، ولكننا في القرن العشرين قمنا بقفزة كبيرة مكنتنا من إدراك أن الخلية ليست بهذه البساطة بل هي مليئة بالتعقيد والهندسة في جميع وحداتها، نجد أن الـ DNA عندما يقوم بوظيفته في الخلية الحية لديه مئة بروتين مختلف تقريباً تتعلق وظيفته بنفسه فقط، ولدينا عشرات ومئات البروتينات الأخرى في باقي الخلايا الحية تقوم بوظائف متداخلة تؤكد التعقيد الكبير لصورة مجهرية عظيمة للغاية، ولم يعد أحد يتصور أن تفاعلات كيميائية بسيطة قد تنتج بأي حال من الأحوال هذا التعقيد الذي نراه حتى في أبسط بنية أو كائن حي، وليس هناك أي مجال لأن يقوم التطور الكيميائي بإنتاج ولو أبسط خلية خاصة بعد المعلومات التي عرفناها في القرن الأخير)![1]

والأمثلة على اختلاف المواقف في قبول النظرية بعشوائيتها أو قبولها وفق تصميم ذكي أو تهذيبها وأسلمتها أو حتى رفضها بالبتة كثيرة ولا تحصى.. ولكن العامة من المفتونين بهذه النظرية مثلي سابقاً يرددون بين أصدقائهم أنها باتت حقيقة علمية وأن علماء الأحياء أجمعوا قطعاً

---

١ - شاهد اللقاء http://www. youtube. com/watch?v=MMttyk2agEk.

عليها.. بينما الواقع يقول بأن التطوريين أصبحوا طوائف وجماعات.. كل جماعة تلعن أختها.. وأصبح المعتقد الشخصي أو الدين يتحكم ويقف خلف فهم وتفسير كل جماعة للنظرية التي يقولون بأنها (حقيقة علمية).. ولا يعلم بعض هؤلاء بأن سر التشبث بالنظرية هو صعوبة رفضها في الأوساط العلمية بعد أن أعلنت الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم (AAAS) أن نظرية التطور حقيقة علمية ثابتة ويجب تدريسها، مما ساهم في تضييق الخناق على العلماء والبيولوجيين الذين يرون في بحوثهم عكس ذلك فيتجرعون الحزن حتى لا يبوحوا بتلك البحوث على الملأ ويخالفوا هذا التعميم... وقد تحدث الدكتور فيليب جونسون من جامعة كاليفورنيا عن ذلك في لقاء تلفزيوني قال فيه (هنالك سببان يمنعان العلماء الآن من رفض نظرية التطور.. الأول هو أنهم سيخسرون مظهرهم التحضري والعلمي وسيتم منعهم من القيام بالبحوث العلمية وأحياناً قد يُطردون من العمل.. أما السبب الثاني فهو علمي.. فالقول بأن نظرية التطور غير صحيحة يعني الرجوع خطوة إلى الوراء تدفعنا للتساؤل بالقول ما هو الصحيح إذاً في تفسير نشأة الحياة؟ فالعلم يجب أن يملك هنا إجابة أيّاً كانت!).[1]

وهذا يذكرنا بما قاله زعيم الملحدين والمتحدث باسم التطور العشوائي (ريتشارد دوكنز) حين قال (رفض التطور سيعيدنا إلى تفسير نشأة الكائنات بالمعجزة).. وهذه إشارات تبعث على ضرورة التشبث

١- لمشاهدة اللقاء http://www. youtube. com/watch?v=CmKkNPw3QbU.

بالنظرية أيّاً كانت المشكلات، فيبدو أن تفسير نشأتنا بوجود خالق مرعبة لدى البعض..!

وهذا ما حدا بنا إلى سماع فضائح عن الأدلة والأحافير التي ينسبها التطوريون إلى نظريتهم.. فقد اتضح أن إنسان جاوا دليل مزيف.. وإنسان بلتداون دليل مزيف.. وكذلك إنسان نبراسكا دليل مزيف!؟ وكما قال مايكل كريمو في كتابه (التاريخ الخفي للجنس البشري) بأن هنالك من يتعمد تزييف الأدلة لمصلحة التطور!

والظاهر أن الأوساط العلمية الشريفة لم تقف مكتوفة الأيدي تجاه هذا الإرهاب العلمي، بل قاموا مؤخراً بفتح موقع إلكتروني أسموه (موقع المعترضين على داروين) www.dissentfromdarwin.org

وبمجرد دخولك إلى هذا الموقع ستجد أمامك وثيقة قابلة للتحميل.. تضم أسماء علماء البيولوجيا من مختلف الجامعات والمؤسسات المرموقة والمعارضين لنظرية داروين وقد سجلوا اعتراضهم في هذه الوثيقة.

ربما تُصعق في حال كنت قد اعتدت سماع الجملة التي يرددها العامة (من أن التطور حقيقة علمية أجمع عليها علماء الأحياء) تحديداً إذا رأيت أن عدد المعترضين من العلماء في هذه الوثيقة فقط قد ناهز الألف عالم! مع العلم أنه في تزايد مستمر!

هل عرفنا الآن لماذا اسمها (نظرية)! لأنها قد يؤخذ بها وقد يتم تهذيبها.. وقد تُرفض وتُرد إلى أرذل العمر!

ثم يأتي من يعترض فيقول: (الجاذبية أيضاً نظرية وباتت حقيقة علمية).. وهذا المسكين يظن أن الجاذبية حقيقة علمية وإن حملت اسم (نظرية)، هو لا يعلم بأن نظرية نيوتن للجاذبية قد رفضها أينشتاين وقال بأنها غير صحيحة وبأن مفهوم الجاذبية جاء من عاداتنا الفكرية.. فنحن نرى المغناطيس يجذب الحديد إليه فيُخيّل إلينا أن الشمس تجذب الكواكب فتجعلها تسير حولها في فلك مقوس.. لذا فأينشتاين يرى أن الجاذبية غير صحيحة.. وأن الأشياء عند سقوطها على الأرض لا تخضع لجاذبيتها إنما هي تسقط تحت ضغط التحدب الفضائي، وقد أيد أينشتاين رأيه هذا بمعادلات رياضية معقدة!

الغريب أن الأوساط العلمية تقبلت اعتراض أينشتاين على نيوتن بأن الجاذبية ليست قوة وإنما منحنى بكل هدوء وبصدرٍ رحب.. والأكيد أن هدوءهم جعل الناس يظنون أن الجاذبية عبارة عن نظرية وحقيقة علمية في آن واحد بحيث لا تقبل النقاش! فجاؤوك صفّاً صفّاً يحملون التطور إلى تلك المرحلة التي لا تقبل الطعن والرفض أو التهذيب! حتى بعد أن بدت لهم سوءته.!

ونحن هنا لا نعترض على حق الآخرين في قبول التطور وفق أي طائفة من هذه الطوائف (المؤمنة).. ولكن يجب أن يعي الجميع أنهم أمام اعتراض (علمي) حقيقي.. يتطلب منهم التواضع أمام المستجدات!

****

جلست ذات يوم مع صديقي الداروينى التطوري، والذي كان دائماً ما يردد أن التطور أثبت حقيقته لأن الأدلة كثيرة جدّاً عليه.. وعندما قمت بطلب دليل واحد على نوع تطور إلى نوع آخر.. لم أسمع غير صمت القبور.. هذا ولكن الأوساط العلمية التطورية تبرر ذلك بأن التطور علم بيولوجي لا يخضع للتجربة والملاحظة كونه من العلوم التاريخية.. لذا فإنه من المستحيل أن تجد مثالاً (لتطور بيني) لكائن في مرحلة انتقالية.. بمعنى لا يستطيع أحد أن يريني حيواناً يتطور الآن أو أن يكون أحدنا قد شاهد لحظة تطور حيوان إلى حيوان كونها تتطلب ملايين السنين.. حسناً جميل.. وإن كان هذا الكلام قد يُستخدم في أي أمر لا يمكن إثباته وتوكيل المهمة لملايين السنين.. ولكن لا مشكلة لدينا.. تماماً مثل قضية اشتراك الإنسان مع الشمبانزي في سلف مشترك والتي أثبت العلم مؤخراً أن المادة الجينية للشمبانزي تتكون من ٤٨ كرموسوماً وذلك يخالف بشكل صريح الجينيوم البشري الذي يتكون من ٤٦ كرموسوماً.. وفجأة ظهر من التطوريين من تسابق إلى تقديم ادعاءات لتفسير ذلك أشهرها أن السلف المشترك عندما تطور إلى إنسان حدث اندماج بين اثنين من الكروموسومات نتيجة لطفرة حدثت له.. ورغم وجود من قام بتفنيد هذه الفرضية من العلماء!![1]

إلا أننا نقول كما اعتدنا: (ليس لدينا مشكلة هنا أيضاً) وسنمشي لآخر الطريق..!

---

١ – انظر: http://creationoevolution. blogspot. com/2013/03/blog-post. html.

ولكننا نريد أن نقف أمام القرائن والدلائل التي يعتمد عليها التطوريون باعتبارها أدلة قطعية الثبوت لنرى ما لديهم، مثال ذلك أنهم يعتمدون على وجود أعضاء ضامرة في الكائنات الحية.. ويستدلون بذلك على أن الكائن تطور من نوع إلى نوع آخر فلم يعد يحتاج إلى هذا العضو بعد الآن فأصبح زائداً عليه، فقد كانوا قديماً يستشهدون بالزائدة الدودية للإنسان، إلا أن معظم الأوساط التطورية تراجعت بُعيد اكتشافهم أن الزائدة الدودية لديها القدرة على تفريغ ما يدخل في تجويفها من فضلات إلى القولون.. وليست عضواً ضامراً!!

ثم بدؤوا بالاستشهاد بضرس العقل الذي أثبت العلماء أن كونه يخرج متأخراً لا يعطل فائدته في مشاركة بقية الأسنان وظائفها الحيوية من مضغ الطعام ونحوه، ولم يثبت وجود أي أدلة جينية تفيد باختفاء أضراس العقل مستقبلاً،ولا حتى أثداء الرجال كما يتم الترويج له من الدراونة!

وأخيراً جاء الدور على عضلة صيوان الأذن، فقد قال التطوريون بأنها عضلات باقية من نتاج تطور الإنسان حين كان يستخدمها لتحريك أذنه، أما الآن فإنه لم يعد في حاجة إلى ذلك، رغم ما قال به بعض العلماء من كون هذه العضلة ليست ضامرة وعديمة الفائدة، بل هي المسئولة عن تثبيت صيوان الأذن في البشر على الجمجمة وفروة الرأس بإحكام!

وبعيداً عن الإنسان.. نجد الآن المثال الأشهر للتطوريين الدارونة وهو وجود عظام حوض وعظام يد في داخل زعانف الحوت

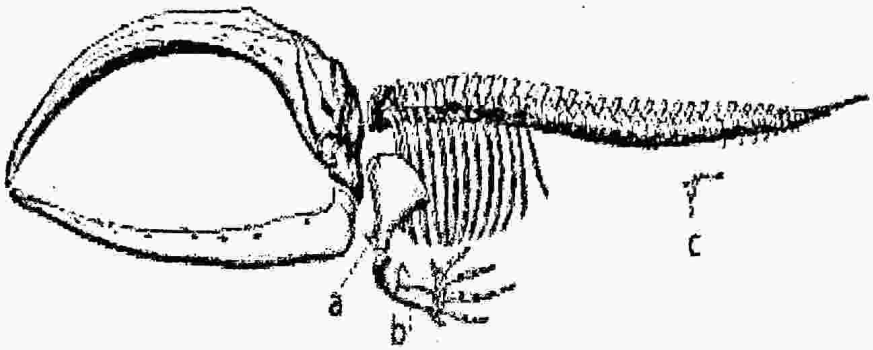

في إشارة منهم إلى أن هذا المثال دليل خارق على أن الحوت كان يوماً ما كائناً بريّاً يمشي على قوائم قبل دخوله للبحر وتحوله لكائن بحري وأنه ما زال يحتفظ ببعض خصائصه البرية من كونه يحمل ويلد ولديه عظام اليد الضامرة والتي لا تزال موجودة داخل زعانفة (وكأن الحوت لا يستخدمها في تحريك زعانفه الضخمة)!.

وقد أمسى هذا الأثر كأقوى دليل على التطور الملموس بين مختلف الأنواع إلا أن الصدمة التي ظهرت مؤخراً عندما نشر باحثون من جامعة جنوب كاليفورنيا بحثاً نُشر في المجلات البيولوجية وفي موقع (ديسكوفري) للبحوث العلمية عنوانه (عظام الحوض للحوت لها غرض بالفعل) Whale Pelvic Bones Actually Do Have a Purpose (Hint: Sex).

وقد أشار البحث المنشور إلى الغرض الجنسي لعظام الحوض الموجودة في الحوت والدلافين والذي كان يفُسره التطوريون على أنه من الأعضاء

الضامرة والتي تدل أن الحوت كان يمشي على اليابسة قبل أن يقرر أن يكون كائناً بحريّاً![1]

وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل حقّاً، ما الذي يمنع أن تكون بقية الأعضاء الضامرة في الكائنات هي أعضاء حيوية ولكننا ما زلنا نجهل ماهيتها؟ أم أن الإيمان بالعِلم الذي سيكشف كل الأمور المستقبلية يخضع لانتقائية البعض فلا يؤمنون به إلا عندما يخدم ثغراتهم؟! الله أعلم

***

وفي الجهة الأخرى، يرى بعض التطوريين الملاحدة أن تشابه الأعضاء بين مختلف الكائنات الحية (الأرنب،القرد،الحوت،الخفاش والإنسان) يدل بما لا شك فيه على وجود سلف مشترك بين هذه الكائنات يجبرنا على الإيمان بالأصل المشترك، إلا أن هذا تفسير يحتمل وجود تفسير آخر أيضاً، وقد رد عليه دكتور البيولوجيا الخلوية والجزيئية(جوناثون ويلز) في كتابه الشهير(أيقونات التطور العشرة) والذي يدحض فيه التطور الداروينى العشوائي ويؤكد وجود التصميم الذكي من واقع تخصصه، وقد قال ردّاً على قصة السلف المشترك: (لماذا نفسر تشابه الأعضاء بين مختلف أنواع الكائنات بوجود سلف مشترك بينها؟ نحن نعلم بأن القدامى قد لاحظوا تشابه الكائنات في أعضائها وقد فسروا ذلك بوجود مصمم مشترك لكل هذه الكائنات؟ أليس هذا تفسيراً آخر ومقبولاً؟).

١- انظر إلى البحث كاملاً منشوراً على الإنترنت:

http://news. discovery. com/animals/whales-dolphins/whale-pelvic-bones-(not-so-vestigial-after-all-140908. htm

وهذا ما يستحق أن نتوقف عنده بالفعل ونسأل أنفسنا: لماذا لا تكون الإجابة على وجود أعضاء متشابهة بين الكائنات في تركيبها الداخلي والخارجي دلالة على وجود خالق (واحد) مشترك للكائنات؟!

ثم هل يعني بالضرورة دائماً وجود تشابه في التركيب بين كائن وآخر أن بينه وبين هذا الكائن سلفاً مشتركاً؟! إذا كان الجواب نعم.. فهذا يعني أن نصف الإنسان من الموز لأن الحمض النووي للإنسان يتشابه مع الموز بنسبة ٥٠ ٪!! وهذا يذكرنا بالقصة الطريفة للمناظرة التي حصلت بين رجلين أحدهما معارض للتطور والآخر مؤيد له، وقد حاول الأخير إثبات نظرية داروين بقوله: يشترك القرد مع الإنسان في ٩٩٪ من مورثاتهما الجينية، الأمر الذي يؤكد أنهما من أصل واحد!، فقاطعه الآخر بلا تردد: ويشترك السحاب مع البطيخ في احتوائهما على ٩٩٪ من الماء مما يعني أنهما من أصلٍ واحد أيضاً!

ويبقى السؤال المطروح لمن يؤمنون بالتطور العشوائي هو: لماذا لا يكون الخالق أو المصمم قد استخدم الخصائص نفسها في خلقه للكائنات؟!

***

ومع ذلك لم تكن مشكلة نظرية التطور في رأيي بسبب غياب الأدلة أو ضعفها أو التلاعب فيها أو حتى انشقاق التطوريين إلى معتقدات ومذاهب، بل إن هنالك أمراً آخر، وهو ضعفهم الشديد أمام تقديم

تفسيرات عن الغريزة والوعي والإدراك والعقل والحب والتفكير والتمييز والذكاء وغيرها.. لماذا أصبحت هذه الأمور مجهولة التفسير عند التطوريين الملاحدة؟ لماذا عجزوا عن تفسيرها من خلال تلك الطفرات العشوائية؟! لماذا أعجزت النملة العاملة التطوريين في كونها تعمل منذ أن تلدها الملكة جيلاً بعد جيل وفق غريزتها دون أن تتزوج فلا تنتقل جيناتها ولا تورّث؟! لماذا تحّول السؤال الذي يقول (أيهما جاء أولاً البيضة أم الدجاجة) إلى معضلة؟!

وإلى جانب ذلك كله.. فلا توجد مشكلة حقيقية واجهت عشوائية الدراونة أكبر من مشكلة (التعقيد غير قابل للاختزال) وهي باختصارالأنظمة الحيوية المعقدة والتي يستحيل أن تكون تطورت بالتدريج من سلف أقل منها لما يتطلبه عملها من أن تكون جميع أجزائها موجودة في وقتٍ واحد

نضرب مثالاً على ذلك بالعين -والتي أشكلت حتى على داروين نفسه- لما تم اكتشافه من التعقيد الباهر في تركيبتها ما بين الشبكية التي تحمل مئة مليون خلية لا بد من وجودها في الوقت نفسه وما بين القرنية والقزحية وطريقة التفاعلات الكيميائية التي تقوم بها العين عندما يصلها فوتون واحد من الضوء، فهذا النظام المعقد لا يمكن تفسيره عن طريق التطور التدريجي كما يدعي التطوريون، مما يعني أن العين قد ظهرت للوجود بشكلها المكتمل منذ اللحظة الأولى، أي أنها خلقت خلقاً خاصّاً.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ [البلد: ٨]؟!

وكذلك ما يتطلبه القلب وجهاز الدورة الدموية والجهاز التنفسي والجهاز الهضمي من وجود جميع أعضاء الجهاز في الوقت نفسه لكي يحقق غايته في العمل، مما لا يقبل تطوره بشكل تدريجي.

فالقلب لن يعمل بدون دم والدم لن ينتقل بدون أوعية دموية فأيهما ظهر قبل الآخر؟، وقد تحدث عن ذلك بإسهاب البرفسور مايكل بيهي في كتابه (صندوق داروين الأسود) واضعاً مثالاً بسيطاً وجميلاً حول مصيدة الفأر يقول فيه: (إن مصيدة الفأر تتكون من خمسة أجزاء أساسية، وكل هذه الأجزاء الخمسة مهم لوظيفة المصيدة بحيث إذا تم إزالة أحد هذه الأجزاء فلن تنقص وظيفة المصيدة بل ستتوقف عن العمل تماماً، لذلك يجب عند صناعة المصيدة تركيب الأجزاء الخمسة جميعها في وقت واحد لتصبح صالحة للعمل..!) ثم استشهد بعد ذلك بمثاله الشهير عن السوط البكتيري الموجود في الكائنات والذي لو تعطل أو نقص منه شيء، أصبح دون أدنى فائدة للبكتيريا.. لذلك يجب أن يكون عمل السوط متقناً منذ اللحظة التي خُلق فيها. ..!

***

وتبقى القشة التي قصمت ظهر (الشمبانزي) هي ما تم اكتشافه من الأحافير والآثار التي نتجت عن ما يعرف بانفجار العصر الكمبري، وهو الظهور الجيولوجي المفاجئ لمستحاثات وآثار لحيوانات متعددة الخلايا في السجل الأحفوري كانت موجودة قبل أكثر من ٥٤٠ مليون سنة!، ويمثل هذا الانفجار نقطة هامة في تاريخ الحياة على الأرض..

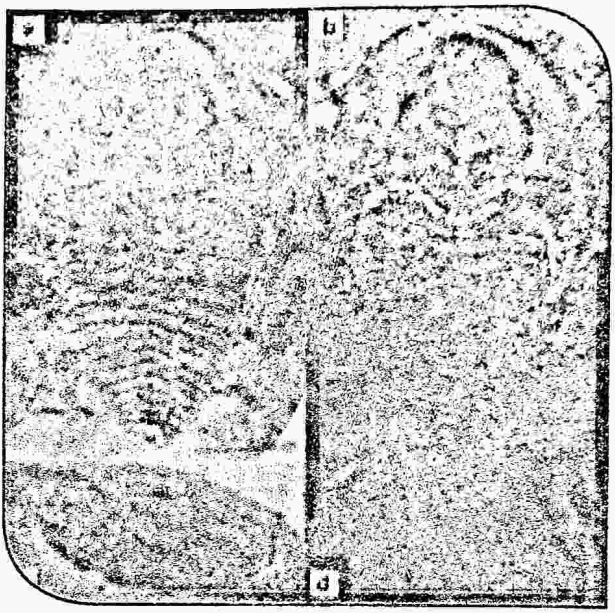

إذ إنه يطرح الكثير من التساؤلات حول «كيف ظهرت هذه التصاميم لأشكال الحيوانات الجديدة المختلفة جذريّاً بعضها عن بعض؟ وكيف نفسر ظهور الحيوانات الكمبرية المتشابهة فجأة بلا سلف؟ وبتركيبة معقدة ومتطورة للغاية؟ ولماذا وجدوا أحافير لكائنات مثل سرطان البحر الحالي تملك أعضاءً كالدماغ والأحشاء والقلب والعينين المعقدتين بحيث يتكون كل عضو من أنواع معينة من الخلايا وكل خلية متكونة من العديد من جزيئات بروتين متخصصة؟ وكل بروتين يتكون من أربع شفرات كيميائية في جزء من الحمض النووي؟»

***

وبعيداً عن الجدل العلمي حول هذه النظرية، يعز علينا وجود من يستغلها ويروج لها من أجل مصالحَ تجارية، يزعم بعض الدراونة الملاحدة أنهم تركوا الأديان لدوافع إنسانية ثم ما يلبثون أن يكشروا عن أنيابهم لاهثين خلف الطمع والجشع، أذكر في هذا الصدد القصة المحزنة بل الفضيحة التي راح ضحيتها شابٌّ إفريقي اسمه (أوتا بينجا / Ota Benga) والقصة بدأت عندما «زعم بعض دعاة التطور أن الكائنات المكونة من نصف قرد ونصف إنسان لن توجد في سجل المتحجرات فحسب، بل ستوجد أيضاً على قيد الحياة في مناطق مختلفة من أرجاء العالم، وفي مطلع القرن العشرين، حدثت حوادث مؤسفة لهذا الغرض يتمثل أكثرها وحشية في قصة رجل يُدعى (أوتا بينجا)، فقد قام أحد الباحثين في مجال التطور بأخذ أوتا بينجا سنة ١٩٠٤ م من الكونغو بعد أن تم تدمير قريته وقتل زوجته وولديه، ثم نُقل إلى الولايات المتحدة، حيث قام علماء التطور بعرضه هناك على الجمهور في معرض سينت لويس العالمي إلى جانب أنواع أخرى من القردة، وقدموه بوصفه أقرب حلقة انتقالية للإنسان، وبعد عامين نقلوه إلى حديقة حيوان (برونكج) في نيويورك، وعرضوه هناك تحت مسمى السلف القديم للإنسان مع بضعة قرود من قردة الشمبانزي، وقام الدكتور التطوري (هورناداي) مدير الحديقة، بإلقاء خطب طويلة عن مدى فخره بوجود هذا الشكل الانتقالي الفريد في حديقته، وقد انتحر(أوتا بينجا) المسكين في نهاية الأمر».

صورة للضحية أوتا بينجا

إن كل ما ذكرناه عن التطور بشيءٍ من الإسهاب هو لتبيان أن نظرية التطور ليست كشكلها الظاهري الذي يوحي بأنها حقيقة علمية لا تُمس! بحيث يصبح من ينتقدها جاهلاً لا يعرف شيئاً عن التطور الذي يتوهم بعض العامة وأنا منهم في السابق أن العلماء (أجمعوا) على صحته!؟ بل إنها نظرية قابلة للنقاش والاعتراض إلى درجة أننا أصبحنا لا نعرف أين هو التطور الحقيقي، هل هو التطور العشوائي؟ أم التطور الموجّه؟ هل هناك تصميمٌ ذكي وإرادة تقف خلف التطور؟ أم هو نتاج طفراتٍ عشوائية؟.. ويبقى من حق كل من يرفض هذه الأسئلة أن يقف مع من يقولون: (هل هناك تطور أصلاً؟ أم خلقٌ خاص؟) ويجب أن يُحترم

أصحاب هذا الرأي الذي يرفض التطور جملة وتفصيلاً دون أن يصفهم الجاهلون بالجهل، فهم لديهم أدلتهم أيضاً، ومن يتعالم على الناس بأن التطور حقيقة علميةٍ ثابتة هو أجهل الناس فيه، ويبقى أخيراً أن تعرف بأنه من حقك أن تؤمن بما تريد وأن تقتنع بأن الأمور التي كنت تظنها حقائق علمية باتت نظريات قائمة على الإيمان، ولكن إن كنت ملحداً فعليك أن تكون أكثر تواضعاً لقبول ما يمكن أن يغير رأيك من الأدلة، أتفهم تشبثك بحثاً عن أمل يفسر وجودك، ولكن لا يمنع أن تبحث عن أمل آخر في حال فقدت الأمل، فإننا نحرص ما استطعنا على الأمانة العلمية، لا على إبقائك مؤمناً!

إننا لا نعلم شيئاً عن المستقبل، ربما تحسم الأدلة الخلاف لمصلحة التطور، وربما تقضي الأدلة على النظرية، لذلك، فإننا نغلق هذا الملف بقولنا : «لا فرق في نظر الدين بين أن يكون إيجاد الله للعالم بطريق الخلق الخاص أو بطريق التطور، فالخلق على كل حال تم بإرادة الله وقدرته وحكمته، وليس أحد المذهبين بأدل على الله من المذهب الآخر».[1]

***

نعود في هذا الكتاب لنناقش ما يمكن أن يخالج هذه النفس البشرية التي كانت وما زالت أكثر شيءٍ جدلاً، دائماً ما يقف الإنسان خصيم نفسه فيثقل عليها بالأسئلة، والشكوك، وعجائب الأفكار.. ولا أخفي عليكم سرّاً أن معظم ما سأكتبه في الفصول القادمة هو إجابات على أسئلة كانت

---

١ - انظر الرسالة الحميدية - الشيخ حسين الجسر.

تؤرقني ولست أدري إن كانت تخطر على بال الكثير منكم أم القليل، وذلك لقناعتي بتشابهنا نحن البشر، وتشابه ما يخالج أنفسنا من شك وفضول وتساؤلات ولوم وتثريب، وأشياء لست أذكرها، فعسى أن يتشابه أيضاً ما يمكن أن يقنعنا من الأجوبة ويلبي احتياجاتنا الفكرية والعقلية نحو الصواب، فأنا مؤمن بأن الإيمان المسالم والذي لا يشوبه شك ولا فتن غير موجود!

وإذا كان الرازي قد قال: (اللهم إيماناً كإيمان العجائز).

فإن الله قد قال: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢]؟

سلطان موسى الموسى

٢٠١٥م

***

الفصل الأول

ملِك الناس

ومثل أي إنسان في هذا الوجود، يقف مع نفسه في لحظات صمتٍ وتفكّر، فيطرح عقله عليه تلك الأسئلة التي قد يعجز عنها العقل نفسه، ولكن ولثقته بأن ما يطرحه عقله عليه يمكن الحصول على إجابةٍ له، يبدأ بخطوات البحث عن ذلك إما سرّاً أو جهراً.. حتى يصل أو ربما يضل الطريق.. تجدهُ مؤمناً بأن الله أعطانا عقولاً لديها قدرة على تصور وطرح كل الأسئلة الممكنة.. فلماذا لا يمكنها أن تجد إجابة على ذلك؟! ربما من السهل على أي إنسان أن يطرح تساؤلات لا تنتهي (لماذا.. ولماذا؟).. ولكن هل بالضرورة أن يجد إجابة على ذلك؟.. هل عقولنا كريمة لتغدق علينا بهذه التساؤلات التي لا أول لها ولا آخر ومن ثم ترفض منّا أن نرد لها الجميل وأن نجيب على سؤالها؟ أم أن عقولنا هذه محدودة القدرة والإدراك فلا يمكنها أن تبحر في أعماق تلك التساؤلات الغيبية!.؟

***

إذا كان الله خلقنا.. فمن خلق الذي خلقنا؟ وأين الذي خلقنا؟ ولماذا خلقنا وهو لا يحتاجنا؟ وهل خيّرنا أم سيّرنا! أم ما هو دورنا؟ وكيف يكون شديد الرحمة وهو شديد العقاب؟ وكيف يسمح بالشر وهو

الخير؟ وغير ذلك الكثير من الأسئلة التي يطرحها الناس.. وسبحان رب الناس.

يروي الإمام أبو داود حديثاً صحيحاً عن أبي هريرة أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: لا يَزَالُ الناسُ يتساءلونَ، حتى يُقَالَ: هذا خَلَق الله، فمَن خلق الله؟ فمَن وَجَد من ذلك شيئًا فلْيَقُلْ: آمنتُ باللهِ ورسولِه.

لماذا كان رسول الإسلام وسائر الرسل لا يجيبون عن هذا السؤال ويأمرون المتسائل بأن يتعوذ من وسوسة الشيطان ويجدد إيمانه؟ هل السبب يكمن في طبيعة هذه الأسئلة؟ أم في طبيعة عقول البشر؟.

لو قمت بطرح سؤال عليكم وقلت: ما هو سبب تعاقب الليل والنهار؟ فسيجيب الجميع بأن السبب هو دوران الأرض حول نفسها.. ولكن ماذا لو أكملت السؤال وقلت: وما هو سبب دوران الأرض حول نفسها؟ ولأنني أسأل هنا عن أمر فاق قدرات العقل بتفسير هذه الظاهرة ستبدأ الاستعانة بالفرضيات والنظريات من أجل الإجابة على هذا السؤال.. سأجد من سيستعين بنظرية (الترشاش العظيم) في تفسير نشأة الأرض واصطدامها مع القمر، وهناك من سيستعين بنظرية (السديم الشمسي) بأن كواكب المجموعة الشمسية بما فيها الأرض تدور بسبب جاذبية الشمس.. حسناً.. لماذا يدور كوكب الزهرة عكس بقية الكواكب إذاً؟ ومن أين جاءت الجاذبية أصلاً؟ ومن أين ولماذا وكيف.. وهلم جرّاً.

يستطيع عقل الإنسان أن يطرح ما يشاء من التساؤلات بكلمة واحدة هي لماذا.. حتى يدرك أن تضاؤل حظوظه في الحصول على تفسير التفسير وعلة العلة في كل مرة لا يتعارض مع كونه حصل على التفسير الصحيح للتساؤل الأول.. وذلك لأن مدارك الإنسان وعقله محدودة ولن تحيط بكل شيء.. ولو كان المطلوب في اعتماد تفسير كل ظاهرة هو معرفة تفسير التفسير.. لما تم اعتماد أي حقيقة علمية ليومنا هذا إلا ما رحم ربي! لأن المطاف لا بد أن يقف أمام حدود العقل.. وقس عليه ما نطرحه من تساؤلات مع أنفسنا.. فنحن نستطيع أن نجيب على أول سؤال خاضع لحدود عقلنا وإدراكنا كأن نقول: من خلقنا؟ فنجيب بأنه الله.. ولكن ما أن نبدأ بطرح المزيد من التساؤلات حتى نصل لمن خلق الله؟ ولماذا خلقنا؟ فنجد أننا نغوص في المجهول ونبتعد عن حدودنا العقلية شيئاً فشيئاً حتى نجهل الإجابة في كل مرة.. ومن أجل ذلك سكت الأنبياء.

نبه ابن خلدون على عدم تمكننا من البحث في هذه الأسئلة، كما أن الوقوف عندها لا يقدح في العقل ومداركه. بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور الغيب والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمعٌ في محال.. ولكي يوضح ابن خلدون ذلك قدم مثالاً جميلاً على قدرة العقل المحدودة وشبهها بالرجل الذي رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فطمع أن يزن به الجبال! فهذا لا يدل على أن الميزان في أحكامه

غير صادق لكن للعقل حدّاً يقف عنده، ولا يتعدى طوره، فكيف يكون له أن يحيط بالله وصفاته، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه.

كما أن الإمام الغزالي والتفتازاني وغيرهما.. كانوا دائماً ما يؤمنون بأن العقل قد يخدع الإنسان في إدراكه عبر الحواس.. فالبشر قديماً كانوا يرون الشمس نجماً صغير الحجم ولا يدرون بأنها أكبر من الأرض حجماً، لذا نجد اليوم من المصطلحات ما يُعرف بالخدع البصرية التي تؤكد محدودية قدرة الحواس إلى جانب محدودية قدرة العقل مهما بلغ نبوغه.

وقد قرأنا حتى في عصر الفلاسفة الإغريق والعلماء المتقدمين بل وحتى الملاحدة، فوجدنا أن الجميع اتفقوا بأن هنالك أموراً يقف العقل عندها ولا يحيط بها علماً، ولكن هل بمقدور العقل أن يعطي إشارات تبعث على الراحة؟ أي ليس بالضرورة أن نجد إجابة وافية كأن نقول كم عدد أيام الأسبوع فيكون الجواب سبعة أيام! ولكني أعني هنا إشارات واستنتاجات نابعة من تقصي الحكمة والإيمان بوجود حكمة خلف كل شيء خلقه الله الحكيم، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.. فماذا عن من تتبعها؟

***

من خلق الإله؟

هذا السؤال أحد أكثر الأسئلة التي حيرت العلماء والفلاسفة القدماء الذين أخذوا يرددون من أوجد الموجد ومن خلق الخالق؟

حتى تبادر إلى الأذهان المغالطة التي يحملها هذا السؤال وذلك في جعل الخالق مخلوقاً.. كان لا بد أن ينتهي الكون عند الموجد الأول الذي لا وجود قبله والذي انطلق منه الوجود، وهذا الذي حدا ببعض المفكرين والفلاسفة قديماً إلى تسميته بـ (واجب الوجود) أو (العلة الأولى) كما سماها أرسطو حين قال: (إن كل متحرك لا بد له من مُحرِّك، وهذا المحرك لا يمكن أن يحتاج إلى محرك آخر يستمد حركته من غيره، وإلا لتسلسل الأمر إلى غير نهاية؛ فلابد من أن ينتهي الأمر إلى محرك أولي أزلي يُحرِّك ولا يتحرك، أو يفعل في غيره ولا ينفعل بغيره، وإلا لَمَا كان أولًا).

وبذلك يكون واجب الوجود هو المتسبب الأول في الموجودات والمعلولات.. وهو الذي يعتمد وجود كل شيء في هذا الكون على وجوده.

ومن هنا انقسم الناس، إما مؤمنين بوجود خالق فكانت علتهم الأولى هي الإله، وإما ملاحدة لا يؤمنون بذلك فكانت علتهم الأولى هي المادة أو (الهيولى) أو الطاقة أو الماء أو النار والهواء.

وبالتالي فإن وجودنا في هذا الكون لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن يكون بسبب وجود خالق قدّر لنا هذا الوجود أو أن يكون من غير خالق! كأن يكون لأسبابٍ طبيعية أو نتاج مصادفة وعشوائية أو غير ذلك.

السبب الأول يؤمن به المؤلهون والثاني يؤمن به الملاحدة، وهذا سبب الصراع الفكري بينهما.

ولو أردنا أن ننظر في السببين المحتملين لنشأة الكون والحياة.. فإ ننا نجد أن الطرفين قد اتفقا على وجود علة أولى لنشأتنا من العدم.[1]

فلو سألت الملحد مثلاً عن نشأة الكون فسيقول لك بأن آخر ما عرفناه وتوصل إليه العلم هو أن الكون بدأ قبل ١٣,٧ مليار سنة عن طريق الانفجار الكبير، وإذا سألته من أين جاء الهيدروجين أو الطاقة أو القوى الأربع أو المادة الأولى (المفردة) التي انفجر منها الكون فسيقول لا أعلم! وهذا ما قاله تحديداً عالم الفلك الملحد كارل ساجان حين تحدث عن ذلك في برنامجه التلفزيوني الشهير (cosmos) فقال: (إننا نؤمن بأن الكون نتج عن انفجار كبير ومن يسألك من أين جاء الانفجار الكبير فقل له: حسناً أنت تؤمن بأن للكون خالقاً فمن أين جاء الخالق؟).. أراد ساجان هنا أن يتذاكى بأن يربط جهل المؤمنين بماهية الخالق بجهل الملحدين بماهية نشأة الكون، المشكلة أن ساجان اختار اسم (cosmos) لبرنامجه وهي تعني في أصلها الإغريقي (نظام الكون)، ويبدو أنه أقرّ من خلال هذه التسمية أن للكون نظامًا ومن ثم شرع في محاولات إثبات أن هذا (النظام الكوني) جاء فجأة من نفسه!؟.. نسي ساجان هنا أو تناسى أن العلة الأولى عند المؤمنين بوجود خالق هي علة (عاقلة وقادرة وخالقة ومدبرة وقائمة بذاتها فلا ينطبق عليها ما ينطبق على المخلوق) بينما العلة الأولى لديه ولدى سائر الملاحدة هي (مادة أو طاقة) غير عاقلة، لا تفنى

---

١ - نستثني من هنا الملاحدة الذين يؤمنون بأزلية الكون أو المادة وبأنها موجودة هكذا فقط بدون سبب ومنذ الأزل

ولا تستحدث من العدم، ولا بد أن تكون نشأتها خاضعة للتفسيرات الطبيعية وللعلوم التجريبية كالفيزياء والكيمياء، وعلى ساجان وأتباعه أن يجيبوا هنا متى وكيف قفز الوجود من العدم قبل الانفجار؟ وبأمر من حدث الانفجار؟ ومن أين جاءت أصلاً تلك القوانين التي جعلت المادة أو الطاقة تتفاعل وتنفجر؟.. هنا سيصطدم من جعل علته الأولى خاضعة لأسباب طبيعية بهذه الثغرات والمشكلات المترتبة على ذلك، والتي وبالتأكيد لن يجد له مخرجاً في الإجابة عليها، صحيح أن المؤمنين بوجود خالق لا يمانعون من قبول بداية الكون بنظرية الانفجار الكبير، ولكنهم بالتأكيد لن يواجهوا هذه المشكلات في تفسير من أين جاء هذا الانفجار.. وبالتأكيد لن يهربوا من مأزق الإجابة كما فعل الفيزيائي ستيفن هوكنغ والذي قال: (لا تخاطبوني إلا بعد الانفجار العظيم)..!

كما أن القول بأن العلة الأولى أو واجب الوجود هي مادة أو طاقة غير عاقلة كما يقول الملاحدة فإنه يترتب على ذلك الكثير من التساؤلات المجهدة،فكيف يستوي مثلاً أن نقول بأن العلة الأولى كانت مادة ونتج عنها كونٌ بهذه الدقة والتصميم؟ هل أعدت هذه المادة الكون وهيأت لنا ظروف الحياة فيه وكأنه قد أُعد لاستقبالنا؟! كيف تم ضبط قوة الجاذبية التي تربط بين أجرام الكون بدقة (١:١٠٠,٠٠٠) بحيث لو زادت لانهدم الكون على نفسه قبل أن تنشأ الحياة، ولو نقصت لما ظهرت المجرات والنجوم؟!

وكيف تم ضبط كثافة مادة الكون مما وفر المادة المطلوبة لتكوين المجرات بحيث لو نقصت هذه النسبة عن مقدارها المعين لظل الكون على حالته الغازية ولو زادت لصارت مادة الكون أكثر كثافة ولتحولت إلى ثقوب سوداء تبتلع الكون كله؟ وكيف عرفت المادة بأن مصدر الطاقة التي تصدرها النجوم كالشمس يجب أن تكون بنسبة ٧ , ٠٪ ليتم استغلالها على أكمل وجه للربط بين مكونات نواة ذرة الهيليوم الناتجة من الاندماج النووي بين ذرات الهيدروجين بحيث لو كانت النسبة أقل أي ٦ , ٠٪ لما وجد في الكون سوى الهيدروجين ولما أمكن للشمس أن تشع حرارتها وضوءها، ولو كانت النسبة أكثر أي ٠،٨٪ فلن يوجد في الكون أي هيدروجين وسينفد على الحال!؟ وكيف عرفت الشمس أصلاً بأنها يجب أن تبقى على بعد ١٦٥ مليون كيلومتر عن الأرض بحيث لو اقتربت بمقدار يسير لظلت الأرض تغلي وهي تفور، ولما عاش فيها أحد كائناً من كان؟ ولو بعدت بمقدار يسير لقضت الأرض نحبها من الزمهرير ولانعدمت الحياة على سطحها؟! ثم كيف عرفت المادة غير العاقلة بأن حجم الأرض وقطرها الذي يبلغ حوالي ٦٤٠٠ كم ومحيطها الذي يبلغ حوالي ٤٠٠٠٠ كم يجب أن يكون تماماً مثل ما هو عليه الآن بحيث لو كان أكبر أو أصغر لاستحالت الحياة فيه؟ فلو كانت الأرض في حجم القمر مثلاً لبلغت جاذبيتها سدس جاذبيتها الحالية وما استطاعت أن تمسك ببخار الماء والهواء حولها وسيتلاشى الغلاف الجوي وبطبيعة الحال سينتج عن ذلك اشتداد البرودة ليلاً حتى يتجمد كل ما على سطح

الأرض، كما ستشتد الحرارة نهاراً فتحترق الأرض بمن فيها..! كذلك لو كان الغلاف الهوائي للأرض أقل كثافة مما هو عليه لسقطت النيازك يومياً على الأرض فدمرتها تدميراً! ولو زاد قطر الأرض على قطرها الحالي لتضاعفت جاذبيتها وانكمش غلافها الجوي! أما لو تضاعف حجم الأرض وصارت مثل الشمس لتضاعفت قوة جاذبيتها مائة وخمسين مرة ولانكمش غلافها الهوائي وارتفع الضغط الجوي إلى طن كامل على كل بوصة مربعة وسيهبط حجم جسم الإنسان حتى يصبح في حجم فأر كبير ولاستحال وجود العقل البشري على هذا النمط الذي نعرفه لأن ذلك يتطلب مخاً بحجم معين! وقس على ذلك دوران الأرض حول الشمس بمقدار موزون ومضبوط (١١٠٠٠٠ كيلومتر في الساعة) ودورانها حول نفسها بسرعة ١٧٦٠ كيلومتراً في الساعة.. بحيث لو حصل أي خلل في هذه الأرقام الدقيقة أدى إلى انخفاضها فإن ليلنا ونهارنا سيطولان بمقدار عشر مرات وسيترتب على ذلك أن تحرق الشمس كل شيء على الأرض في النهار.. ويتجمد كل شيء على الأرض في الليل! ولا نغفل عن ميلان محور الأرض بمقدار موزون أيضاً (٢٣,٤٥٥ درجة) ولو لم تكن الأرض بهذا الميلان لغمر الظلام القطبين طوال السنة ولتحرك بخار الماء من البحار شمالاً وجنوباً ولما بقي على الأرض غير جبال الثلج وفيافي الصحراوات وستكون الحياة مستحيلة![1]

ولن ينتهي تعداد ما يدل على أن خلف هذا الكون عقلاً مدبراً ومصمماً

١- انظر إلى: رحلة عقل صفحة ١٤١-١٤٣.

قائماً بذاته واجب الوجود.. ينتهي كل شيء إليه ويبدأ كل شيء منه.. وهذا ما أخبرنا الله عنه في القرآن الكريم عند قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

***

وبعد كل ما يثبت أن الحياة لم تكن لتوجد لو لم تتوفر هذه القوانين والثوابت الفيزيائية والتي لو تغير بعضها لما قُدر للحياة أن تستمر.. ستواجه من الملحدين من يقول: (إن الكون ناتج من عشوائية ومصادفة وإنه لا يوجد هنالك أي تصميم ذكي ولا نظام دقيق.. نحن من أدركنا ذلك بهذه الطريقة فظننا أن هذا هو النظام وما سواه ليس بنظام!).

وقد فات هؤلاء أمران: الأول أن العالم ليس مجهزاً لخروج الحياة وحسب ولكن لخروج كائناتٍ حية ذكية منطقية ترصد وتفهم هذا التناغم، الأمر الثاني أن غزارة ما في الكون من توافق تفوق احتياجات الكائنات الحية وتحقق لها الرفاهية والاستمتاع، خاصة الإنسان صاحب الاحتياجات النفسية المتميزة.[1]

وخير من رد على هؤلاء الإنجليزي «بول ديراك» أحد كبار مؤسسي فيزياء الكم حين قال: (إن الإله حسيب، استخدم أرقى مستويات الرياضيات في تصميم الكون ووضع قوانينه).. وكذلك العالم البريطاني «بول ديفيز» والذي رد على هؤلاء الملاحدة قائلاً: (رغم أنكم لا تسألون

---

١ - المصدر السابق نفسه صفحة ١٤٦.

من أين أتت قوانين الطبيعة إلا أنكم جميعاً تقرون بالانتظام في سلوكها.. لماذا ظهر الوجود على الهيئة الأمثل والأعقد والأصعب خلقاً وبقاءً؟ ولماذا هذه القوانين بالذات وليس سواها؟ وكيف تنشأ الحياة التي تسلك بوعي وعقل وذكاء من المادة غير الحية؟.. من الحمق الشديد القول بأن قوانين الطبيعة من إنشائنا نحن.. لا أعتقد أن هناك فيزيائيّاً يقول إن قوانين نيوتن مثلاً من إنشائه.. بل إن هنالك من أوجدها بالفعل.. ويقف دور العلماء عند اكتشافها وصياغتها وليس اختراعها.. إن قوانين الطبيعة قد تشكلت منذ زمن سحيق لتقوم لاحقاً بوظائف مطلوبة في وجود لم يكن قد خُلق بعد..).

ويبقى السؤال.. إن كنا نحن قد أدركنا قوانين الطبيعة على هذا الشكل.. فما هو الإدراك أصلاً ومن أين أتى؟ وكيف أدركنا أن هذا هو الصواب والنظام.. وأن هذا هو الخطأ والفوضى..؟

***

نخلص من ذلك إلى أن كل الموجودات (ممكنة الوجود) وهي ليست إلا حوادث ترجع إلى موجدها الأول وهو (واجب الوجود).. بحيث يستحيل على العقل أن يتصور أن يكون واجب الوجود مادة غير عاقلة أو عشوائية أو مصادفة.. بل هو حكيم مطلق القدرة والحكمة وهو خارج الزمان والمكان ولا ينطبق عليه ما ينطبق على مخلوقاته.. يذكرنا ذلك بما قاله ديكارت: (إنني لم أخلق نفسي، فلا بد لي من خالق. وهذا الخالق لا بد أن يكون واجب الوجود، وغير مفتقر إلى من يوجده، أو يحفظ له

وجوده، ولا بد أن يكون متصفاً بكل صفات الكمال).. ونحن نقول: هو الله الذي لم يلد ولم يولد.. هو الله الخالق القدير..!

ذات الإله

ظلت الذات الإلهية من الأمور التي تشغل تصورات بعض الأمم الوثنية السابقة كالسومرية والبابلية والفرعونية والإغريقية والرومانية وغيرهم، فكلٌّ منهم كان يجتهد في تحديد شكل وصفات وقدرات بل وحتى جنس الإله الخاص بدينه، فنجد عبر تاريخ الديانات أن هنالك آلهة وثنية كانت في يوم ما شخصيات حقيقية إما محاربين أو أبطالاً أو حكماء، وعليه فقد تمتَ المغالاة في شأنهم لدرجة التقديس والعبادة حتى تم رفعهم مع الأيام إلى الربوبية والألوهية، وبالتأكيد أن الناس ما زالوا يحملون تصوراتهم البشرية لهذه الآلهة، فيقومون بتجسيدهم على شكل تماثيل ومنحوتات من أجل عبادتها وتقديم القرابين ونحوها لها.

ومن هنا بدأت تطغى فكرة أن تكون ذات الإله المعبود قابلة للإدراك البشري، وأن يكون شكل الإله قابلاً للتصور والتجسيد البشري، وقد كان ذلك إحدى الصعوبات التي واجهت نبي الله موسى عليه السلام حين كان قومه والذين اعتادوا على أشكال الآلهة المصرية المنحوتة يطالبونه قائلين: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

بل ورغم إكرام الله لهم بفضله وتحريرهم من عبودية فرعون وظلمه وإخراجه لهم عبر معجزة انفلاق البحر، إلا أنهم لم يتوانوا لحظة في عبادة

العجل المصنوع من الذهب، وذلك لما تبقى لهم من رواسب فرعونية تجعل النفس ميّالة لعبادة الإله الذي يمكن تصويره وتجسيده وليس ذلك الإله الجديد على تصوراتهم بأن لا يُرى وليس كمثله شيء!

ومن هنا بدأت محاولات إدراك ذات الإله تزاحم الديانات السماوية التي جاءت لتنزه الإله عن التجسيد أو المقارنة بالبشر أسوة بالأمم الأخرى، حيث نجد أن أصحاب البشرة السوداء كانوا يتصورون الإله المعبود أسود اللون، والهنود الحمر كانوا يتصورونه هنديّاً أحمر، وهكذا بدأت رحلة من قاموا بتحريف الديانات السماوية إلى وضع تصورات تقلل من ذات الإله وتحجّم من قدسيته، فنجد أن التوراة المحرفة مليئة بإطلاق الصفات البشرية على الإله كأن ينام ويتعب ويندم ويرتاح.

بل نجد أن الإله كان يصارع نبيه يعقوب فيصرعه يعقوب حسب التوراة!، ولا نغفل أن التوراة تصور إمكانية أن يتعرض الإله للخداع ومثال ذلك ما ورد في سفر التكوين عن الكيفية التي خدع بها يعقوب والده الأعمى إسحاق من أجل أن ينال بركة النبوة بدلاً من أخيه عيسو وذلك حين استغل يعقوب خروج أخيه الأكبر عيسو من المنزل وذهابه للصيد فقام يعقوب والذي كان قصير شعر الرأس بوضع فرو على رأسه والاقتراب من والده الأعمى إسحاق من أجل أن ينال بركة البكورية ويصبح نبيّاً بالخداع بدلاً من أخيه الأكبر عيسو!

والغريب أن التوراة تجعل الخالق قد ارتضى هذه الخديعة لنفسه بأن جعل يعقوب نبيّاً بدلاً عن أخيه، تماماً مثلما جعلته يتحسر ندماً

على تنصيبه لطالوت ملكاً على بني إسرائيل! أو أن يضع (قوس قزح) كعلامة تذكير بالندم من أجل أن لا يعذب قوماً مرة أخرى بمثل طوفان نوح!

التجسيد ومحاولات رسم صورة ذهنية بشرية للإله ظلت ترافق اليهود حتى وقعوا في مشكلة اعتقاد أن الذات الإلهية (مذكّرة الجنس) وهذا تطاول في تحديد جنس الإله! المشكلة أن هذا التطاول انسحب على الأجيال اليهودية عندما اختلطت الثقافة اليهودية بالكنعانية والسومرية والبابلية فنتج عن ذلك ما تم اكتشافه مؤخراً من الآثار في شمال جزيرة سيناء وفي الأراضي الكنعانية مما يدل على ما آمن به معظم اليهود من أن (يهوه/ Yahweh) أي رب بني إسرائيل قد تزوج من (عشيرة/ Asherah) إحدى الآلهة الوثنية القديمة.

صورة من أحد النقوش المكتشفة والتي تظهر أن (يهوه) تزوج من (عشيرة)

وقد كتب عن هذه الاكتشافات الكثير من الباحثين أذكر منهم كتاب (ويليم دينفر) والذي يحمل كتابه عنوان (هل يملك الإله زوجة؟ / ?Did god have a wife) والعجيب أن هنالك من استطاع أن يقف حتى في التوراة على نصوص كانت تؤكد حدوث هذه الزيجة قام بكتابتها الكهان والأحبار ووضعوها في كتابهم المقدس.[1]

ولا شك أن اختلاط ثقافة اليهود بغيرهم من الثقافات الأخرى جعل التوراة تذكر أن سليمان عليه السلام قام بعبادة الإلهة الكنعانية والفينيقية (عشتاروت/ Astarte) وقد نزهه القرآن عن ذلك حين قال الله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ [البقرة: ١٠٢].. وأيضاً الملك الإسرائيلي آخاب والذي قام هو وقومه بعبادة الإله الكنعاني والفينيقي (بعل/ Baal) وقد أرسل الله لهم نبيه إلياس والذي قال لهم حسب القرآن: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥]؟

والأمثلة على ذلك كثيرة لما وصل إليه اليهود قديماً من جرّاء تصادم الحضارات، هذا ولم تكن الديانة المسيحية بأفضل حالاً منها، فالديانة المسيحية تقوم على تجسيد الإله على ثلاثة أقانيم مختلفة وهي (الأب والابن والروح القُدس)، وفكرة تجسيد اللاهوت في ناسوت بشري -كأن يكون المسيح هو الله- تدل على تصور سابق لدى المسيحيين بأن الله (رجل)! وهذا فيه تطاول في تحديد جنس الإله فضلاً عن تجسيده بهيئة بشرية، وبالتأكيد أن هذا التجسيد وجعل الإله في صورة ذكورية

١- لقراءة أحد البحوث http://jwa. org/encyclopedia/article/asherahasherim-bible.

أثار غضب وحنق وردة فعل بعض النساء قديماً لما فيه من إعطاء أفضلية للجنس الذكوري الذي تجسد فيه الإله!.

ونذكر في هذا الصدد الحادثة التي حصلت في أواسط القرن الثامن عشر، وذلك حين ادّعت المسيحية (آنا لي) الألوهية وصرحت قائلة بأن الإله كائنٌ مزدوج الجنس، فهو ذكر وأنثى معاً، وقد تجسد الإله بصورته الذكرية في شخصية المسيح عيسى بن مريم.. وأنها هي الصورة الأنثوية للإله! العجيب أن صيتها ذاع بين الناس وقد لاقت بدعتها تلك رواجاً كبيراً جعلها تحظى بأتباع وتعلن بذلك تأسيسها لطائفة (الراجفين/ Shakers).[1]

وأرى أن هذه ردة فعل طبيعية لكل من حاول أن يحدد جنس الإله أو شكله تبارك وتعالى.

***

عطفاً على هذا الموضوع، راسلتني قبل فترة إحدى الأخوات المسلمات عبر مواقع التواصل الاجتماعي وقد قالت لي بأنها تدرس في أوروبا وبأنها تعرضت لسؤال من صديقتها المسيحية والتي قالت لها: (ما هو جنس الخالق لديكم هل هو ذكر أم أنثى؟) وبأنها لم تعرف الإجابة على ذلك..

وأعلم أن مثل هذا السؤال قد يشغل عقول بعض المسلمين، لأنهم يرون في القرآن أن الله سبحانه يذكر نفسه بضمائر مذكّرة كقوله: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] فكلمة مثل (الذي) تعطي انطباعاً ذكورياً في

---

١ - الهرطقة في المسيحية ص ٩.

أذهان الناس، بينما الحقيقة أن الضمائر المذكّرة تُطلق في اللغة على المجهول أيضاً، فلو طرق أحدٌ عليك الباب فستقول: (من الطارق؟ أو من الذي يطرق الباب؟) حتى ولو كان الطارق امرأة لما يعود عليه جهلك بهوية الطارق.

فالله سبحانه أنزه وأقدس من أن يكون ذكراً أو أنثى فهو الذي ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥] وما ينطبق على المخلوقات لا ينطبق على الخالق، ولكن ولكي نجيب على هذا السؤال الذي سألته أختنا آنفًا يجب أن نقف عند بعض النصوص والآيات في القرآن لتوضيح ذلك.

في البداية.. نجد أن الله في القرآن الكريم كان يذكر لنا آيات عجيبة تستحق التدبر،مثل قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، والمُلاحظ هنا أن الله سبحانه كان يذكر من صفات أنبيائه أنهم يأكلون الطعام! وقد يقول أحدنا: جميع البشر يأكلون الطعام أيضاً، فما الجديد أو الغريب بهذه الآية وذكر الرسل معها؟!حيث من المفترض أنها معلومة بدهية وكأني أقول إن فلاناً يشرب الماء وينام! هذا صحيح، بيد أن تكرار الله لخاصية أكل الطعام يبعث على وجود سر خفي خلف ذلك، ربما اعتدنا على معنى الآية الظاهر، إلا أنني سأسعى لأن أتوقف مع ما تخفي خلفها من معنى.

في الحقيقة هذا ليس تخصيصاً للأنبياء وإنما إشارة من الله إلى أنه حتى الأنبياء يمرون بدورة الحياة الطبيعية للبشر، فمن يأكل ليسد جوع جسده

فذلك يعني أن الأنزيمات والتفاعلات الحيوكيميائية ستجعل جسده يمر بمرحلة أخرى (إجبارية) وهي مرحلة النوم، بمعنى أن الأكل والنوم لا منأى لنا عنهما وانقطاع الإنسان عن أحدهما أو كليهما سيؤدي به إلى الموت، فمن لا يأكل ولا ينام يموت.

لذلك سمعنا عن تعذيب السوفييت للسجين بمنعه من النوم حتى يقضي نحبـــه.

وإذا سلمنا أن من متطلبات العيش للكائنات الحية هي أن تأكل الطعام وتنام حتى لا تموت،فذلك يعني أنها معرضة للموت كتهديدٍ محتمل يحول دون خلودها، لذا تسعى هذه الكائنات التي أدركت أن الموت حقيقة للحفاظ على سلالتها وتخليد نفسها في الدنيا، وذلك من خلال وسيلة واحدة فقط وهي الإنجاب بالتكاثر الجنسي، وبالتأكيد أن الحاجة لمثل هذا التكاثر تقتضي وجود الجنسين (الذكر والأنثى)!

ربما نعيش الآن في زمن أدركنا فيه أن الموت فعلاً بات حقيقة ثابتة، إلا أن التاريخ زاخر بالحضارات التي كانت تؤمن بوجود ما يسمى (إكسير الحياة) وأن الموت عارض سيتم التخلص منه.

منها مثلاً الحضارة الفرعونية والسبئية والمغولية والتي كانت تحنط أمواتها ابتغاء عودتهم يوماً ما.

وفي الحقيقة تطور الطب أكد أن هذا الأمر لن يحدث أبداً، فطالما أن هؤلاء كانوا (بشراً) فهذا يعني أنهم كانوا يأكلون الطعام، وبالتالي ينامون ويموتون!!

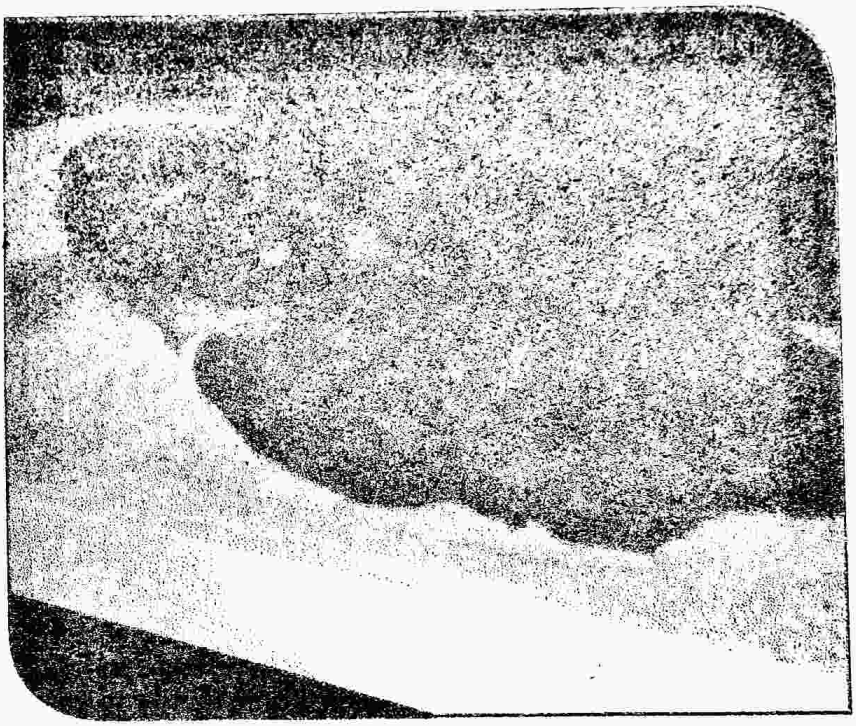

صورة من تصويري لمومياء فتاة أزتكية في متحف ميونخ.

و لو أردنا أن نلقي الضوء على غير البشر، نجد أن (الجن) أيضاً يأكلون الطعام كما ورد في أحاديث صحيحة، وبصرف النظر عن كيفية طريقة أكلهم التي نجهلها إلا أن إشارة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام لأكل الجن ستجعل الجن يدخلون في دائرة البشر نفسها وهي (أكل، نوم،تكاثر جنسي وموت)، ونستطيع أن نستشف ذلك من القرآن،حيث لدينا بعض الإشارات لموت الجن مثل قول الله عن الجن: ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴾ [الجن: ٧] والبعث لا يكون إلا بوجود موت، ويتضح ذلك أكثر من معرفة كبيرهم إبليس الذي ﴿ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ

عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] بأنه لن يعيش طويلاً كسائر الملائكة، فاضطر أن يدعو ربه أن يطيل عمره إلى يوم يبعثون.

وإذا سلمنا أن الجن تأكل الطعام وتنام وتموت فهي إذاً بحاجة لتكاثر جنسي كما يفعل الإنس من أجل بقاء النوع، وبالتالي فلا بد من وجود ذكر وأنثى في عالم الجن!.. ومما يدل على وجود جنسين مختلفين وممارسات جنسية في عالم الجن هو قول الله تعالى: ﴿رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، فوجود رجال يعني وجود العكس والراجح أن إناث الشياطين هن الخبائث المذكورات في حديث الدخول إلى الخلاء:(اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث)، وكذلك قول الله عز وجل في حديثه عن نعيم الجنة: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦] مما يشير لوجود ممارسات جنسية بالتساوي لدى الجن والإنس، وكل ذلك طبعاً لأنهم (يأكلون الطعام).

بعد هذا السرد نستطيع الآن أن نستنتج العكس فمن لا يأكل الطعام لا ينام وبالتالي لا يموت،ومن لا يموت فهو قائمٌ بذاته ومنزهٌ من الدخول في دائرة الجنسين والحفاظ على السلالة.

إذاً من هو الذي لا يأكل الطعام؟

الجواب بالتأكيد هو الله سبحانه والملأ الأعلى من الملائكة، ولو أمعنا النظر في الملائكة فسنجد أنهم فعلاً لا يموتون في الدنيا لذا فهم باقون ليوم الدين ومنهم من سينفخ في الصور، وبما أن الملائكة لا تنام ولا تموت، إذاً

هي لا تأكل الطعام ولا حاجة لها لأن تتكاثر جنسياً للحفاظ على سلالتها فهي باقية حتى قيام الساعة، وبالتالي فلا حاجة لأن يكون لها جنس كأن تكون ذكوراً أو إناثاً!، ونستطيع أن نلاحظ دقة القرآن بهذا الأمر في قصة إبراهيم عليه السلام مع ضيفه المكرمين في سورة الذاريات! تحديداً حين زارته الملائكة فجلب لهم العجل السمين ليأكلوه ولكنه أوجس منهم خيفة حين لم يفعلوا، وسألهم متعجباً: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: ٩١].

نعم هم لا يأكلون، فلوا أكلوا فذلك يعني نومهم وموتهم وحاجتهم للتكاثر مما يتعارض مع نصوص القرآن التي تنص على بقائهم طويلاً حتى قيام الساعة، وذلك لإخلاصهم في عبادة الله وحمل عرشه، ولا يتعارض ذلك مع احتمالية أن يتوفاهم الله بقدرٍ معلومٍ آنذاك.

***

وبالعودة الآن إلى الآية الكريمة التي ذكرناها في البداية، نجد أن المقصود بها هم من جعلوا بعض الأنبياء آلهة كالنصارى مع عيسى وبعض طوائفهم التي قامت بتأليه أمه مريم العذراء. فالله هنا يخبرهم بأن كل الأنبياء كانوا مجرد (بشرٍ) يأكلون الطعام وبالتالي فهم ينامون ويتكاثرون جنسياً ويموتون، فكيف تكون هذه من صفات الألوهية؟! وقد أفرد الله سبحانه آية خاصة بعيسى وأمه مريم وكرر سبحانه أنهما يأكلان الطعام إذ قال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

المشكلة أن المسيحيين أنفسهم يؤمنون في إنجيلهم بأن عيسى كان

يأكل الطعام وأخص تلك القصة الشهيرة باسم (العشاء الأخير)، وكذلك نذكر ما ورد في إنجيل لوقا الإصحاح رقم ٢٤ (وَفِيمَا هُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِهذَا وَقَفَ يَسُوعُ نَفْسُهُ فِي وَسْطِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «سَلاَمٌ لَكُمْ!، فَجَزِعُوا وَخَافُوا، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ نَظَرُوا رُوحًا. فَقَالَ لَهُمْ: «مَا بَالُكُمْ مُضْطَرِبِينَ، وَلِمَاذَا تَخْطُرُ أَفْكَارٌ فِي قُلُوبِكُمْ؟ اُنْظُرُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ: إِنِّي أَنَا هُوَ! جُسُّونِي وَانْظُرُوا، فَإِنَّ الرُّوحَ لَيْسَ لَهُ لَحْمٌ وَعِظَامٌ كَمَا تَرَوْنَ لِي وَحِينَ قَالَ هذَا أَرَاهُمْ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ. وَبَيْنَمَا هُمْ غَيْرُ مُصَدِّقِينَ مِنَ الْفَرَحِ، وَمُتَعَجِّبُونَ، قَالَ لَهُمْ: أَعِنْدَكُمْ ها هُنَا طَعَامٌ؟ فَنَاوَلُوهُ جُزْءًا مِنْ سَمَكٍ مَشْوِيٍّ، وَشَيْئًا مِنْ شَهْدِ عَسَل. فَأَخَذَ وَأَكَلَ قُدَّامَهُمْ.).

فعيسى ابن مريم إذاً مجرد بشر يأكل الطعام وينام والموت هو مصيره كما قال عن نفسه في القرآن: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١] فهنا دلالة على أن حياته لن تدوم.

أيضاً قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣]، فيه إشارة واضحة لمصير البشر الحتمي في ملاقاة الموت، فلا خلود لمن يأكل الطعام مثلنا، والمسيحيون يعرفون قصة موته لثلاثة أيام وقيامته جيداً!

ومن هذا المنطلق، نجد أن من أكثر الأمور التي أغضبت الله هو قولهم إن لله ولداً، لما في ذلك من جر الذات الإلهية إلى دائرة الأكل والنوم والموت والحاجة لوريث وسلالة للحفاظ على النوع!

ويتجلى غضب الله في آياتٍ كثيرة نذكر منها: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ

وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم: ٨٨-٩٠] فهذه الآية من سورة مريم تظهر حجم الغضب، فكيف تجعلون لله سبحانه ولداً ؟! فهذا سوء أدب مع الذات الإلهية ومنافٍ لتنزيهها، وذلك بأن يكون الله من أكلة الطعام الذين ينامون ويموتون وهو الذي لا ينام ولا يموت ولا يأكل الطعام كما قال سبحانه عن نفسه: ﴿الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].!

***

وبالوقفة مع أهل الجنة والنار قد يتساءل أحدنا ويقول بأن لديهم أكلاً فكيف يأكلون الطعام وهم خالدون بينما أكل الطعام يترتب عليه الموت كما وضحنا آنفاً؟ والرد على ذلك أن حال الآخرة مختلف تماماً عن الدنيا، فالطعام الموجود في الجنة لا ينطوي عليه الدائرة الدنيوية من أكل ونوم وموت وهذا ما أشار له الرسول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح حين قال: (النوم أخو الموت وأهل الجنة لا ينامون).

وهذا مما يدل على أن الطعام الموجود فيها هو على سبيل النعيم واللذة ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦] وليس لسد الجوع درءاً للموت، فلا موت هناك ولا جوع.

الحال نفسها في النار، فأكل أهل النار على سبيل الذل وليس حاجة

أساسية لحياتهم فيها، لذا وصف الله أكلهم بأنه ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٧] وفسر ابن كثير ذلك بأن الطعام في الآخرة لا يلبي مقاصده في الدنيا،وهذا ما قصدناه بقولنا عن أن طعام الآخرة إما على سبيل النعيم أو الإذلال.

بل إن هنالك من قال بأن تغيّر الطبيعة البشرية في الجنة سيشمل حتى الناحية الجنسية، حيث لن تكون ممارسة الجنس في الدنيا هي نفسها في الآخرة لما لاختلاف مقاصد الدنيا الجنسية من الإنجاب ونحوه عن الآخرة، وهذا ما دفع بعض كبار العلماء مثل الإمام الحسن البصري إلى القول إن الحور العين هن نساء الدنيا المؤمنات في الجنة بعد نشأتهن الأخرى.

ونخلص من ذلك كله إلى قول الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨]. حيث نفى الله عن خلقه صفة الخلود وربط ذلك بأكلهم للطعام.

إذاً فالذات الإلهية منزهة عن التجسيد والتصور والتمثيل وكذلك عن الخصائص البشرية كأن تكون ذكراً أو أنثى، أو تتعرض للنوم والموت.. سبحان الله عما يصفون!

***

قد يقول قائل: إذا كانت الذات الإلهية بعيدة كل البعد عن الإدراك والتصور البشري فكيف ورد في الحديث الصحيح قول النبي: (خلقنا الله على صورته)!؟ لا شك أن المقصود بالصورة هنا أنها اسم جامع للأسماء

والصفات أيضاً، فمن رحمة الله بالإنسان أن خلقه على صورته حتى يدرك الإنسان عندما يسمع بأن الله رحيم معنى الرحمة، ويدرك عندما يسمع بأن الله كريم معنى الكرم، لأن الله خلق في الإنسان الرحمة والكرم، وقس على ذلك معظم صفات الله التي خلقها في الإنسان حتى يدرك معناها.

لذلك نجد أن الناس يستطيعون أن يدركوا معنى (الرازق، الحكيم، الحميد، العليم، السلام) كونها صفات جربوها واختبروها في ذواتهم، ولكن لا أحد من البشرية يستطيع أن يتصور أن الله لم يلد ولم يولد! كون الله لم يخلق لنا هذه الصفة فتعجز أذهاننا عن إدراكها، وهذا ما جعل البشرية تنقسم فكرياً في نقاشها لهذه الصفة غير المُدركة! فعقولهم تعجز عن تصور كيان لم يلد ولم يولد لأنهم لم يختبروا ذلك مع أنفسهم!

خارج المكان والزمان:

لا شك في وجود نسبة كبيرة من الناس تخطئ في اعتقادها بأن لله مكاناً وهذا المكان في السماء، وقد كان اعتقادهم هذا نتيجة طبيعية للآيات الكثيرة التي كانت تذكر أن الله في السماء كقوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك: ١٦].

إلا أن هذه الآيات لا يمكن تفسيرها بمعناها الظاهر، لأن السماء خلقها الله ومحال أن يكون الله فيها، لأنه تعالى خالق السماء وأكبر منها.. فالله لا يحوزه مكان لأن المكان مخلوق ولا يصح أن يحوز المخلوق خالقه، وإنما كان المقصود بالآيات التي تدل في فهمها الظاهري على أن الله في

السماء هو أن قدرة الله تتجلى في السماء الخاضعة لملكه ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البروج: ٩]، بدليل وجود آيات أخرى كانت تدل في معناها الظاهري أن الله في الأرض أيضاً كقوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] وتعالى الله أن يكون في السماء أو في الأرض مكاناً، وإنما المقصود ملكوته وتجلي قدرته على السماء والأرض.

لذلك نجد الكثير من الأحاديث في السنة الصحيحة والتي كان ينهى فيها النبي صلى الله عليه وسلم عن النظر إلى السماء وقت الصلاة (ما بال أقوام يرفعون البصر إلى السماء في صلاتهم؟) وهذا النهي كان لمنع اعتقاد الناس أن الله متحيزٌ بمكان معين لأن ذلك ينافي كمال التنزيه!

وحتى لا يختلط ذلك على البعض، نود التنويه بأن حديث المرأة التي كانت عند قوم وثنيين وأسلمت وجاءت للنبي فسألها قائلاً: (أين الله؟) فأشارت إلى السماء فقال النبي: (هي مؤمنة)!

يجب أن لا يؤخذ بمعناه الظاهر أيضاً فيظن القارئ أن النبي أقرّها على أن الله في السماء، وإنما المقصود بقول النبي: (هي مؤمنة) أن إشارتها للسماء تدل على أنها خرجت من الوثنية وعبادة الأصنام، لا على أن الله سبحانه في السماء!

وينطبق الكلام نفسه أيضاً على الزمان، فالله غير متحيزٍ في زمان، فالزمان مخلوق، وإذا أمعنا النظر في القرآن الكريم نجد أن كلمة (الزمان/ الزمن) لم ترد فيه إطلاقاً! رغم أنها كلمة شائعة!

فالحياة تتجلى في ظرفين مهمين هما ظرف المكان وظرف الزمان! ولا يكاد يخلو أي كتاب من ذكرهما! وكذلك رغم أن الله أقسم بالمواقيت كالعصر والفجر والضحى وغيرها إلا أنه لم يذكر كلمة الزمن!

وهذا ما يتماشى مع النظرية النسبية للفيزيائي الكبير ألبيرت آنشتاين والذي استطاع أن يثبتها حسابيّاً، فالنظرية النسبية ترى أنه لا وجود للزمان وفقاً لتصورنا، وأن الزمان عبارة عن بعد رابع في هذا الوجود إلى جانب الطول والعرض والارتفاع، والزمان متحد مع المكان وهو ما أطلق عليه آينشتاين اسم (الزمكان/ Spacetime)، وكما قلنا سابقاً بأن الإله خارج الزمكان!

«ووجود الخالق خارج الزمان يساعدنا على إدراك عظمة صفاته، فهذا يعني أن الله لا ينسى بينما نحن ننسى ما حدث في الماضي والإله لا ماضي عنده! وأيضاً يعني ذلك أن الإله لا يتوقف عن الفعل، فالتوقف عن فعل يعني انقضاء زمن هذا الفعل! وكذلك يعني أن كل شيء يفعله هذا الخالق يفعله لحظيّاً، فهو لا يفعل شيئاً قبل شيء، ولكن قد تظهر لنا بعض أفعاله قبل البعض الآخر».[1]

ومن الأمثلة الموضحة لذلك هو الآية القرآنية التي أدهشت بعض الشُّرّاح والمفسرين والتي يقول الله فيها: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١]، فهذه الآية تتحدث عن أن أمر الله أتى وحدث في الماضي! ولكن الله يخاطب الناس بأن لا يستعجلوه دلالةً على أنه سيقع في المستقبل ولم يحدث بعد! والسبب في ذلك كما

١- رحلة عقل ص ١٠٨

وضحنا أن الله خارج الزمان والمكان ولا يجري عليه ما يجري علينا، فكل ما سوف يحدث لنا قد حدث في علم الله!

مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله:

وبالحديث سابقاً عن علم الله، سنتحدث عن آيات قرآنية يظن الملحدون أن تطور العلم أحرج القرآن فيها، وهي ما يؤمن المسلمين أنها (مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله).

فقد ورد في سورة لقمان قول الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [لقمان: ٣٤]، جميعنا نعرف أننا نعيش في زمن ثورة علمية تجعل بإمكان أي ملحد أن يقول إن العِلم قد قضى على هذه الآيات بعد ما صرنا نكشف ما وراءها من غيبيات..!فهم يقولون إن تقدم الطب استطاع من خلال أجهزة الألترا ساوند (السونار) أن يعرف ما في الأرحام ويحدد جنس المولود، بل وتوصلوا للتلقيح الصناعي! ونحن لا ننكر هذا الكلام، بل إننا لا ننكر حتى أن العِلم المعني بالتنبؤات الجوية وأحوال الطقس استطاع من خلال (الفوركاستنغ) أن يحدد موعد نزول الغيث! بل ووصل العلم إلى أبعد بكثير. فقد تمكن العلماء من رش السحب بمواد كيماوية لجلب المطر أو ما يُعرف بـ(الاستمطار) كما يستطيعون منع المطر أيضاً بتفريق السحب!

أتذكر أني قرأت كلاماً لملحد عربي يقول فيه: من السهل جدّاً أن

أعرف في أي أرض سأموت، فلو أنني ذهبت وانتحرت في إثيوبيا فهل أنا هنا أجهل مكان موتي؟

في الحقيقة، الإشكالية هنا من عند المسلمين أنفسهم، والسبب هو أن بعض المتدينين هم من خلقوا هذا التعارض بين العلم والدين والقرآن بريءٌ من ذلك.

فقد أخبرنا الله في كتابه عن وجود نوعين من العلم.

العلم الأول: هو ما يعلمه الله تعالى كعلم الغيب والساعة والروح والغيث وما في الأرحام وما تخفي الصدور.

العلم الثاني: هو العلم الإنساني الذي خصه الله بالبشر ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤]، ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

بمعنى أن هناك علماً ربانيّاً وعلماً إنسانيّاً، والمشكلة حصلت عندما جزم بعض المتدينين قطعاً أن الله لن يُطلع أحداً على علمه إذ جعلوه خاصّاً به دون دليل!

فمن يتأمل في القرآن سيجد أن الله وضع استثناءات كثيرة مرهونة بمشيئته يؤكد بها أنه هو من يطلع الخلق على علمه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

و يبدو لي أن ابن كثير رحمه الله قد عرف أنهُ لا يوجد مانع نصّي من أن يُطلع الله خلقه على شيء من علمه بمشيئته إذ كتب في تفسيره:

«هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا

بعد إعلامه تعالى بها، فعلم الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر الله به، علِمته ملائكته الموكلون بذلك ومن شاء من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، فإذا أمر به وبكونه ذكراً أو أنثى أو شقيّاً أو سعيداً علمته ملائكته الموكلون بذلك ومن شاء من خلقه»

بمعنى أن الله سبحانه إذا أمر بشيء فلا مانع من أن يُطلع ملائكته ومن شاء من خلقه عليه. فنحن حين نتنبأ بحدوث شيء قد أمر الله به سلفاً لا يعني أننا سبقنا الأمر الرباني أو علمنا شيئاً خاصّاً به!

بل حتى علم الغيب وهو أبرز العلوم الربانية، لم يذكر الله في كتابه قطعاً أنه لن يظهر عليه أحداً بل قال: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، وكذلك ما قاله لرسوله الكريم: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤].. وذكر الله أيضاً احتمال سلب الجن لشيء من الغيب: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ [الصافات: ١٠] و﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الحجر: ١٨].

اليوم للأسف نجد هناك من طمس هذه الاستثناءات التي تبين إمكانية أن يُطلع الله خلقه على (ما يشاء) من علمه إذا أمر بذلك، وبالتالي حصل هذا التعارض بين العلم والدين!

بل إني وقفت على أحدهم وهو يقول إن الاستمطار كفر لأن الله قد

اختص لنفسه إنزال الغيث! وذلك يعني أن الطب كفرٌ أيضاً وفقاً لهذا المنطق الغريب لأن الله هو الشافي!

ولا نشك أن سبب ظهور هذه الأفكار هو الاعتقاد بفصل علم الله عن علم الناس وأن الله لن يُظهر علمه لأحد، وهذا غير صحيح بنصوص القرآن وبعض كتب المفسرين.

فلا تعارض بين العلم والدين إلا لدى أصحاب التأويلات المخطئة، فالعلم فضل، والله يؤتي فضله من يشاء من خلقه، وفوق كل ذي علمٍ عليم.

لماذا خلقنا الله وهو لا يحتاجنا؟

أتذكر أنني سألت معلمي حين كنتُ طالباً في المرحلة المتوسطة وقلت له: (لماذا خلقنا الله سبحانه وهو لا يحتاجنا؟) أجابني المعلم آنذاك بالإجابة المذكورة في النص القرآني: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وأكمل بأن الغاية من خلقنا هي العبادة حسب النص الصريح.. فشكرته والتزمت الصمت رغم أنه لم يعطِني إجابة مقنعة.. فأنا ما زلت أتساءل مع نفسي: (لماذا خلقنا الله وهو لا يحتاج لعبادتنا نحن معشر الإنس والجن؟).

وبعد عودتي للبيت وبما أن هذا السؤال كان يشغل ذهني، قررت أن أسأل والدي لأنني أثق كثيراً بفلسفته وقوة إيمانه.. فقال لي: (خلقنا الله لكي تتجلى أسماؤه وصفاته، فلا يصير الخالق خالقاً إلا بوجود مخلوقاته،

ولا رازقاً إلا بوجود من يزرق، ولا شافياً إلا بوجود من يشفي.،ولا رحيماً إلا بوجود من يرحمهم، ولا كريماً إلا بوجود من يعطيهم..)!

وهكذا أقنعني والدي بهذه الإجابة آنذاك حتى بت أظن أن والدي أفضل من معلمي في فن الإقناع.

ومع مرور الأيام بدأت أسأل السؤال نفسه، فاتضح لي أن إجابة والدي التي أقنعتني في البداية والتي كانت بمثابة التخدير شبيهة جدّاً بإجابة معلمي، فكأن والدي يقول: إن الله بحاجة لأن يخلق ليكون خالقاً!؟، أو بحاجة لأن يفعل كذا حتى يكون كذا وكذا.. وأنا أرى أن هذه الإجابة تحمل في طياتها أن ننسب الحاجة الملحة إلى الله بأن يخلق أو يرزق ليكون خالقاً أو رازقاً، بينما أكثر من نص قرآني كان يؤكد أن الله غنيٌّ حميد، ومن هنا عدنا لنقطة البداية، وظللت أطرح على نفسي هذا السؤال: (لماذا خلقنا الله وهو لا يحتاجنا)، حتى توصلت مبدئيًّا إلى قناعة بأن الموضوع فوق قدرات العقل البشري.. وهي لحكمة يعلمها الله سبحانه والذي كان يذكر لنا في كتابه الكريم أن هنالك أموراً خاصة به لا يعلمها إلا هو، وأن بحثي خلف هذه الأمور ليس إلا مضيعة للوقت كونها خارج نطاق إدراكنا وحدود عقلنا وحواسنا.

إلا أني مع الأيام وتحديداً حين بدأت في دراستي الجامعية في تخصص علم الإدارة، اتضحت لي مغالطة كبيرة في هذا السؤال، مثلما اتضحت لي مغالطة السؤال السابق والذي يقول: (إذا كان الله الخالق فمن خلق الخالق) وما يترتب على هذه المغالطة من جعل الخالق مخلوقاً.

الآن وجدت مغالطة أخرى حين نسأل هذا السؤال فنقول: (لماذا خلقنا الله وهو لا يحتاجنا) وذلك أننا نفترض وفق منظورنا البشري وجود (حاجة) عند الله سبحانه فنبحث عن الإجابة حول حاجة الله أو عدم حاجته!!.. فنحن مثلاً عندما نقول إن فلاناً لا يحتاج إلى الماء، فإننا نقر أولاً بوجود خاصية (الحاجة للماء) عنده ومن ثم نقوم بتعطيلها بعد إثباتها فيصبح فلان (لا يحتاج الماء)، والسؤال الآن، ما الدليل على أن الله يحتاج أصلاً حتى لا يحتاج؟ من الذي نسب وجود حاجة لله فبدأ يبحث عن حاجته أو عدم حاجته في خلقنا؟ لا يوجد نص قرآني ينسب الحاجة للذات الإلهية؟ لأن الحاجة تعني النقص.. كاحتياجنا للمال والطعام والجنس وغيرها.. أما عدم حاجتنا فتعني الاستغناء ولكنها تعني وجود حاجة إلا أنها مشبعة ومعطّلة هنا.. ونحن حين نقول لماذا خلقنا الله وهو لا يحتاجنا.. فنحن ننسب الحاجة لله ولكننا نعطلها هنا في قضية خلقنا إلا أن عقلنا الباطني قد يجعل الحاجة مفعّلة في قضية أخرى، وهذه مغالطة، فالله سبحانه أسمى وأغنى من أن تُنسب له (الحاجة أو عدم الحاجة).

فالحاجة تنطلق دائماً من منظور النقص والضعف والطلب.. وعدم الحاجة يعني الاستغناء وإشباع هذه الحاجة الموجودة أساساً، مثال ذلك: لو قلنا إن خالداً فقير فهذا يعني أن خالداً يحتاج للمال.. وفي المقابل لو قلنا إن محمداً غني فهذا يعني أن محمداً لا يحتاج للمال، ونحن هنا نعلم عن وجود خاصية (الحاجة للمال) عند خالد ومحمد.. ولكنها كانت مفعّلة عند خالد لأنه فقير، ومعطّلة عند محمد لأنه غني، ولكن ماذا لو صادرنا أموال محمد؟ سيعود وسيصبح محتاجاً للمال، لأن عدم احتياجه السابق

للمال لا يعني عدم وجود خاصية الحاجة عنده.. ونحن للأسف نغفل عن ذلك فنسأل ونقول: (لماذا خلقنا الله وهو لا يحتاجنا؟).. والله سبحانه أنزه وأقدس من أن ننسب له الحاجة من الأساس حتى لو عطلناها وقلنا (لا يحتاجنا)، فنحن بكل حال ننسب الحاجة له بالتعطيل.. والأجدر أن ننزعها تماماً، ولا مانع بعد ذلك أن نتباحث بشكلٍ أعمق حول مسألة خلق الله لنا للحصول على إجابة بعيداً عن الحاجة (سواءٌ أكانت مفعّلة أم معطّلة).

أذكر في هذا الصدد ما قاله الشيخ محمد البوطي «أفعال الله لا تعلل لا بالعلل الماديّة ولا الغائيّة، ويبدو أنّك لا تعلم معنى أيّ منها. لأنّ ارتباط أفعال العباد بالعلل نتيجة لعجزهم، وهو نظراً إلى أنّهم لا يستطيعون تحقيق أهدافهم مباشرة، فيستعينون لبلوغها بالعلل والأسباب كحفر البئر لإخراج الماء، وزرع الأرض لنيل الثّمار وغيرها ، وهذا يستحيل على الله فإنّه في غنى عن أن يجعل من أفعاله عللاً ووسائط لغيرها إذ هو الخالق لها كلّها».

وهذا هو سبب ذكري لعلم الإدارة سابقاً، إذ إن التفرقة الكبيرة التي قام بها علماء الإدارة بين (الحاجة والرغبة والإرادة) تبعث على الإلهام.

فعلم الإدارة الحديث يفرق بين ما يصدر عن الإنسان على أنه ليس كله الشيء ذاته.. فيقسم تلك الإصدارات إلى ثلاثة أمور مختلفة:

الحاجة (need).

الرغبة (Desire).

الإرادة (will).

وعلى الرغم من وجود عدة تفسيرات وتعريفات لهذه المصطلحات الثلاثة إلا أنني أزعم أني سأختار منها أوجزها وأنجزها.

يُعرّف علم الإدارة الحاجة على أنها (الشعور بالحرمان الذي يلح على الفرد مما يدفعه للقيام بما يساعده للقضاء على هذا الشعور وإشباع حاجته الضرورية).

ثم يُعرّف الرغبة على أنها (الميل إلى تحصيل شيء ما بغية تحقيق اللذة،فالرغبة في النجاح بمعنى الطموح، والرغبة في المعرفة بمعنى الفضول).

والفرق بين الحاجة والرغبة هو أن الحاجة تحيل على كل ما هو ضروري لبقاء الذات من مأكل وملبس ومسكن وغيرها، أما الرغبة فتحيل على نزوع وميل الذات إلى كل ما يجلب لها اللذة والاستمتاع والراحة والطمأنينة والأمل والطموح، سواء أكانت هذه الذات تحتاجه عملياً وواقعياً أم لا.

لذلك نجد أن الله رغّبنا في عبادته: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] ولم يجعلها حاجة ضرورية في الناس كالأكل والشرب والنوم.. وإلا لما كانت العبادة ابتلاءً واختباراً للناس.

وأما ما يهمنا من هذه المصطلحات الثلاثة فهو (الإرادة) والتي يتم تعريفها على أنها (قوة كامنة في داخل ذواتنا مصدرها الطموح نحو الوصول للأفضل وتحقيق شيء ما).

«ورغم تعدد التعريفات حول الإرادة إلا أن الغالبية أجمعوا أن الإرادة تنبع من قوة لا ضرورة، ومن حرية لا حاجة، مع وجوب التفريق

بأن إرادة الإنسان شيء جزئي وغير مطلق، فالإرادة المطلقة الوحيدة في الكون هي لله وحده سبحانه وتعالى. وهذا يجعل الإنسان أكثر واقعية».

لذلك نجد أن الإرادة هي الشيء الوحيد من هذه الأمور الثلاثة الذي نسبه الله لنفسه في أكثر من موضع في القرآن الكريم.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٧] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٣] ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨] ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٧] ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة: ٦].

وغير ذلك الكثير من النصوص التي توضح أن لله سبحانه إرادة نابعة من قوة مطلقة ومشيئة حرة، وليس حاجة نابعة من ضرورة وضعف!

رغم أن الإرادة تتقاطع مع الحاجة أحياناً كونها مصطلحاً أعم وأشمل، مثل قولنا (أريد أن أنام أو أريد أن آكل الطعام) فإرادتنا هنا نابعة من حاجة ضرورية، إلا أننا نلاحظ أن الله سبحانه حينما ذكر في قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] ذكر بعده قوله: ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٧] وبذلك نفى الله عن إرادته تقاطعها مع الحاجة، وظلت بذلك إرادة الله نزيهة ومطلقة لا يتخللها حاجة أو ضعف أو ضرورة.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] وهنا يتبين أن قيام الله بالخلق والاختيار إنما هو مبني على حرية ومشيئة وإرادة مطلقة، لا على حاجة وضرورة ملحة حتى يُسأل عن ذلك!، وهناك فرق كبير كما ذكرنا سابقاً بين الحاجة والإرادة.

لو تأملنا في سورة الكهف، فسنجد نصّاً قرآنيّاً توقف عنده الكثير من المفسرين القدامى، وهو ما يوضح شيئاً عن هذا الفرق، تحديداً عن قول الله في قصة موسى والخضر عليهما السلام: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف: ٧٧].

بالتأكيد أن الجدار جماد ولا يملك إرادة ولكن الله هنا نسب الإرادة للجدار بشكلٍ مجازي ولم ينسب له الحاجة، لأن الحاجة ستُكسب الجدار صفة الضعف والنقص والضرورة نحو الانهيار.. بينما تهيؤ الجدار نحو السقوط بامتلاكه الإرادة على ذلك ينطوي عليه امتلاك الجدار للقوة والعزيمة والمشيئة، فيكون فضل الخضر الذي أقام هذا الجدار رغماً عن إرادته أكثر معروفاً، وسيعطي الصورة معنى أكثر جمالية.

***

خلق الله الملائكة لا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون بإرادته، وبإرادته خلق الإنسان ليجعله خليفة في الأرض، لا يوجد حاجة، إنما إرادة.

عبادتنا عند الله لا تساوي شيئاً.. فاليوم عند الله كألف سنة مما نعد:

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].. بل يعرج الأمر إليه في يوم كان مقداره كخمسين ألف سنة مما نعد.. ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] ولو قضيت عمرك ساجداً لما كانت عبادتك إلا كثانية عند الله، ويوم القيامة الذي سيخلد فيه الناس طبقاً لأعمالهم، لن تكون فيه عبادة كما كانت في الدنيا، وكان الأجدر وفق مفهومنا المغلوط عن حاجة الله للعبادة أن يجعلها مستمرة بعد البعث في دار الخلود! حيث المدة أطول وأكثر، وليس في الدنيا فقط والتي لا تعدل عبادتك فيها عند الله ثانية..!

لذلك.. فإن تنزيه الإله عن مثل هذه الاحتياجات التي يحكمها المنظور البشري والإيمان بإرادته ومشيئته المطلقة والحرة هما من ضرورات الإيمان به، فبمقدور الله أن يجعلنا ملائكة نعبده ليلاً ونهاراً في حال كان يحتاج لذلك، ولكنه غني حميد، والأخذ بعاتق هذه التفرقة سيوضح هذه المغالطة التي نقع بها أثناء طرحنا للسؤال.

مع التنويه بأن قولنا إن الله خلقنا وفقاً لإرادته لا يعني أن الله سبحانه خلقنا عبثاً، وقد وضح الله ذلك في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٦-١٧]، ولاحظ أن الله هنا أيضاً نزه إرادته في خلقنا وخلق السماوات والأرض عن اللهو والعبث، مؤكداً بذلك أن إرادته كانت بملء حكمته ومشيئته لا يشوبها الحاجة ولا اللهو، وعلينا هنا أن لا نناقش المشيئة أو الإرادة.. خصوصاً إذا آمنا أنها (مطلقة) وهذا يتفق

مع قول الله: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].. وقول الله هنا ليس بداعي التزام الصمت أو تكميم الأفواه، بل لأن مناقشة أسباب الإرادة المطلقة أو المشيئة الحرة هي مغالطة منطقية، فلا يمكننا أن نقول: (لماذا أراد الله أن يخلقنا إذا كان لا يريدنا!)

لذلك فإننا نخلص من ما ذكرناه أعلاه إلى قولنا:

.. نعم خلقنا الله لعبادته لأنه أراد ذلك وفق مشيئته وقوته.. وهو غني عنها لأن الحاجة لا تُنسب له أصلاً..

❋❋❋

من المهم أن نعرف حين نقول إن الله خلقنا لعبادته بأننا نحن من يستفيد من هذه العبادة ويحتاجها وليس الله سبحانه، فالعبادة كما تم تعريفها في أكثر من مرجع فقهي (هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة)، وهنا نرى أن العبادة بأركانها الخمسة وقوانينها وتشريعاتها هي نظام حياة متكامل أشرك الله في منافعها الإنسان الجهول، وخير من شرح ذلك ووضحه هو القائد العظيم «علي عزت بيغوفتش» في كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب».. تحديداً حين تحدث في فصل (الإسلام والوحدة الثنائية القطب) عن أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي ينطوي على القيام به وبأركانه مردودٌ ينصب في مصلحة قطبين مختلفين وهما الإله المعبود والإنسان العابد، فهو يعتبر أنّ النطق بالشهادتين الذي يعلن به الشخص اعتناقه للإسلام ينطوي على معنيين: «المعنى الأوّل هو ابتداء علاقة روحية بين الإنسان

وربّه. فبمجرّد عقد النيّة أو اتخاذ قرار باطني كافٍ تماماً بهذا الخصوص.

أما المعنى الآخر في إعلان الشهادة فهو في مستوى العلاقة الاجتماعية، لذلك يتطلب إعلان الشهادة وجود شهود لأنّ هذا الإعلان تترتّب عليه ولاءات جديدة وانتماءات جديدة بين المسلمين القدامى والمسلم الجديد».

وبالإنتقال إلى «الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر فليست مجرّد تعبير عن موقف الإسلام من العالم، وإنّما هي أيضاً انعكاس للطريقة التي يريد بها الإسلام تنظيم هذا العالم. فالصلاة تعلن أمرين: أوّلهما، أنّه يوجد هدفان إنسانيان أساسيان. وثانيهما أنّ هذين الهدفين رغم انفصالهما منطقيّاً يمكن توحيدهما في الحياة الإنسانية، حيث إنّه لا صلاة بدون طهارة ولا جهود روحيّة بدون جهود ماديّة واجتماعية تصاحبها.

إنّ الصلاة أكمل تصوير لما نطلق عليه «الوحدة الثنائية القطب» في الإسلام. ونظراً لما في الصلاة من بساطة فإنّها قد اختزلت هذه الخاصية إلى تعبير تجريدي، وأصبحت بذلك المعادلة أو الشفرة الإسلامية». كما يجد علي عزت بيغوفيتش في الوضوء مثالاً آخر للوحدة الثنائيّة القطب، فهو يعتبر أنّ التركيز على النّاحية العقلانية للصلاة يدعم فكرة أنّها ليست أحادية الجانب. يقول: «فالثنائيّة تتكرّر في الوضوء: الوضوء نظافة صحيّة ولكن النظافة ليست فقط معرفة وإنّما فضيلة كذلك. فقد أضفى عليها الإسلام شيئاً باطنيّاً. وهذه الصفة تعتبر من الناحية المنهجية خصوصية إسلامية. والنتيجة أنّ الإسلام قد رفع الطهارة إلى مستوى الفكرة وربطها عضويّاً بالصلاة.

حيث يقرر القرآن خلافاً لما يتوقّعه أصحاب الدين المجرّد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. إنّ عبارة مثل «النّظافة من الإيمان» لا توجد إلا في الإسلام، فالبدن في جميع الأديان الأخرى خارج الاعتبار».

والمعادلة نفسها «الوحدة الثنائية القطب» نجدها في العلاقة التي يؤسسها القرآن بين الصلاة والزكاة ذلك أن «المعادلة القرآنية المألوفة التي تجمع بين الصلاة والزكاة ليست إلّا صيغة معيّنة من معادلة أخرى «للوحدة الثنائية القطب»

فمن يخفى عليه فضل الزكاة على الفقراء والناس؟ بالإضافة إلى فضلها العظيم عند رب الفقراء والناس؟

وتتكرر الأهداف الاجتماعية التوحيدية نفسها مع الصوم إذ «في الصوم أيضاً جانب مشابه بلا شك، فقد اعتبر المسلمون الصوم خلال شهر رمضان مظهراً لروح الجماعة، ولذلك فإنّهم حساسون لأيّ انتهاك علني لهذا الواجب. فالصيام ليس مجرّد مسألة إيمان، ليس مجرّد مسألة شخصية تخصّ الفرد وحده، وإنّما هو التزام اجتماعي».

والصوم الذي يضبط به الإنسان سلوكه وأقواله وأفعاله ويهذبها عن الانصياع للشهوات أو البذاءة هو مظهر من مظاهر الوحدة النفسية والشعورية وشكل من أشكال المساواة وكما يقول الأستاذ علي عزت: «الصوم يمارس في قصور الملوك وفي أكواخ الفلّاحين على السواء، وفي بيت الفيلسوف وبيت العامل.، وأعظم ميزة فيه أنّه يمارس ممارسة حقيقية».

يخلص علي عزت بيغوفيتش بعد استقرائه لأركان الإسلام إلى أنّه «من المستحيل تطبيق الإسلام في الممارسة انطلاقاً من مستوى بدائي. فالصلاة لا يمكن أداؤها أداءً صحيحاً إلّا بضبط الوقت والاتجاه في المكان، فالمسلمون (مع انتشارهم على سطح الكرة الأرضية) عليهم أن يتوجهوا جميعاً في الصلاة نحو الكعبة مكيفين أوضاعهم في المكان (على اختلاف مواقعهم).

وتحديد مواقيت الصلاة تحكمه حقائق علم الفلك، ولا بدّ من تحديد هذه المواقيت (للصلوات الخمس) تحديداً دقيقاً خلال أيّام السنة كلّها، ويقتضي هذا تحديد موقع الأرض في مدارها الفلكي حول الشمس. وتحتاج الزكاة إلى إحصاء ودليل وحساب، ويتصل الحج بالسفر وضرورة الإلمام بكثير من الحقائق التي يتطلبها المسافر إلى مسافات بعيدة «فمجرّد الالتزام بأركان الإسلام الخمسة يقود إلى العلم».[1]

***

لو لاحظنا في القرآن الكريم فسنجد أن تهذيب النفس وتدريبها منهج رباني، فحين كلم الله نبيه موسى لأول مرة، نجد أن الله سأله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] فرد عليه موسى قائلاً: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] فرد الله قائلاً: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٩] فتفاجأ موسى هنا ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ

١ - للمزيد أرجو الاطلاع على كتاب الإسلام بين الشرق والغرب أو مقالة حسن الطرابلسي بعنوان الوحدة الثنائية القطب والتي جرى منها اقتباس المختصر أعلاه.

حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ٢٠] هنا قال الله له: ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه: ٢١] بل في موضع آخر من القرآن نجد أن موسى هرب خائفاً ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ١٠] ثم أكمل الله أوامره وقال: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ ﴾ [النمل: ١٢] وبعد ما تعرف موسى على معجزاته وآياته واستعد لذلك، أمره الله بالذهاب إلى فرعون.

ولو تأملنا قليلاً في عمق ما فعله الله لنبيه موسى، سنجد أن ذلك كان تهذيباً وتدريباً لموسى حتى يكون في أهبة الاستعداد أمام فرعون، ورغم هذا التدريب نجد أن موسى كان خائفاً في الميدان أمام فرعون من هول الموقف، وقد كان الوحي الرباني يواسيه ويشجّعه ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [طه: ٦٧-٦٨]، ولك أن تتخيل ماذا سيحدث لموسى لو لم يتلقَّ تلك الدورة التدريبة التمهيدية منذ البداية؟ بالتأكيد سيتضاعف خوفه وسيتفاجأ بعصاه التي ستتحول إلى ثعبان مبين أو يده التي ستصبح بيضاء من غير سوء! وربما خر صعقاً من الخوف قبل أن يخر السحرة ساجدين.

لذلك، نجد أن النهج الرباني قائم على تهذيب النفس لا بمباغتتها، ولقد خلقنا الله وأراد لنا أن نكون في هذا الوجود خلفاء في أرضه، وشهوداً له، تحت ظله وحبه، نعبده من أجلنا نحن لا لحاجته، وقد جعلنا نمر بالحياة الدنيا تمهيداً من أجل أن نعرف من هو ربنا وما هو عطاؤه وما هو نعيمه وكرمه وما هو فضله وثوابه وعقابه، وما هي رحمته

ووعده، وكل ذلك نوعٌ من التهذيب والتدريب للنفس.. قبل أن يأتي يومه الموعود.. وكلنا استعدادٌ وشوقٌ إليه ولرؤية وعده..!

لذا، سيحرم الله من كفر به جنته، وسيحشر من أعرض عنه أعمى، وسينسى من نسيه!

***

إننا لا نسعى للإجابة على مثل هذه الأسئلة لإرضاء الملحدين وغيرهم كما يفعل بعض المسلمين.. بل نحن نفعل ذلك بحثاً عن اطمئنان قلوبنا وإيماناً منا بوجود حكمة ربانية خلف كل شيء، ربما ندرك هذه الحكمة في تتبعها، وربما نقف عند حدود عقلنا، فنحن لو اكتفينا بقولنا عند أي سؤال وجودي أو فلسفي: (الله أعلم) لكفانا ذلك ثقةً منا بالله، إلا أن تدبر معاني القرآن يؤكد لنا وجود إشاراتٍ تحمل في طياتها رسائل غيبية، ومنها يتم توسعة مداركنا حيال ذلك لالتقاط أطراف الأجوبة.

أما الملحد فلا يملك موقفاً ثابتاً أمام هذا السؤال، فعلى الرغم من أنه يرى أن كل ما في الكون حوله من كائنات وأنظمة تسير وفق هدف وغاية لها، إلا أنه يعجز عن تفسير ما هي غاية الكون في إيجاده؟ هذا على افتراض أنه لم يتجرأ ويقل بأن الكون لا غاية له، وإنما جاء بسبب الفوضى والعشوائية جاعلاً من نفسه نتاجاً لمصادفة وعبث!.. فلا تقلق كثيراً إن جاءك وهو يسألك عن غاية الله في خلقك.. فهو يبحث عن الإجابة عند من هو أفضل حالاً منه.

معضلة الشر:

كانت معضلة الشر من أكثر المعضلات التي حيرت الفلاسفة والمتدينين عبر التاريخ، فنجد أنها كانت مصدر حيرة وقلق شديدين عند كلٍّ من (ابن سينا) و(أبيقور) بل كان لها الدور الأساسي في إلحاد أشخاص كانوا مؤمنين ولكنهم لم يستطيعوا أن يقتنعوا بأن هنالك إلهاً في ظل وجود هذا الشر على الأرض، تماماً مثلما حصل مع الملحد (أنطوني فلو) والذي عاد من إلحاده قبيل وفاته وكتب في كتابه الشهير(هناك إله) عن فضل معضلة الشر على إلحاده سابقاً.

حتى تبادر إلى أذهان من يسأل عن (لماذا هنالك شر طالما هنالك إله رحيم؟) سؤالٌ آخر يقول: (لماذا هنالك خير أيضاً؟ ولماذا أستطيع أن أدرك ما هو الخير وما هو الشر؟) إلى أن ظهر للناس ما يُعرف بمعضلة الخير!

ويمكن أن يوضح ذلك القصة التي حصلت للمفكر الشهير رافي زاكارياس حين سأله أحد الملحدين قائلاً: (لا يمكن أن يكون هنالك إله لأنه يوجد شر كثير في هذا العالم) فرد عليه زاكارياس وقال: «عندما تقول إن هناك شرًّا كثيرًا جدًّا في هذا العالم فإنك تفترض أن هناك خيرًا. وعندما تفترض أن هناك خيرًا فإنك تفترض أن هناك قانوناً أخلاقيّاً يتم على أساسه التمييز بين الخير والشر. وإذا افترضت أن هناك قانونًا أخلاقيًّا يجب أن تفترض أن هناك منْ أعطاك هذا القانون الأخلاقي، وهذا منْ تريد أنت دحضه وليس إثباته. لأنه إذا لم يكن هناك واهب

للقانون الأخلاقي لم يكن هناك قانون أخلاقي، وإذا لم يكن هناك قانون أخلاقي لم يكن هناك خير، وإذا لم يكن هناك خير لم يكن هناك شر، فما هو سؤالك؟»

وبالعودة إلى نقطة البداية وحديثنا عن أبيقور، نجد أنه قد قام بوضع ما يُعرف ب(قياس أبيقور) بانياً ذلك على عدة تساؤلات، ما زال الكثير من الملاحدة يتناقلونها، حيث يقول أبيقور:

- الله قادر وقدرته بلا حدود.
- إذاً الله قادر على إزالة الشر في هذا العالم.
- الله أيضاً رحيم ورحمته بلا حدود.
- إذاً فهو يريد إزالة الشر في هذا العالم.
- لكن الشر دائماً موجود.
- إذاً الله لم يقم بإزالته.
- فإن كان قادراً على إزالة الشر وهو لم يفعل فهو ليس رحيماً.
- وإن كان رحيماً ويريد إزلة الشر وذلك الشر ما زال قائماً، إذاً فهو ليس قادراً.

وفي الحقيقة فات أتباع أبيقور أمورٌ كثيرة حين ظلوا يتداولون هذا القياس

«**أولاً**: اعتبار كل الشر كياناً مستقلًا قائماً بذاته وليس غياباً للخير.

ثانياً: جعل وجود الشر برهاناً كافياً لعدم وجود إله كأن يكون وجود

مرضى نافياً لوجود أطباء ووجود أميّين نافياً لوجود مدارس وغير ذلك».

ثالثاً: بناء هذا البرهان على أحد مبادئ المنطق الأرسطوطاليسي القديم والقائل بـ(عدم التناقض) والذي يخالف العقل والمنطق الحديث الذي بشّر به المتصوفة وابن خلدون وسائر الذين يرون الأشياء في تشابك وتفاعل وتناقض مستمر، كما قال هيجل تعليقاً على هذا المنطق: (إن كل شيء يحتوي على نقيضه في صميم تكوينه، وإنه لا يمكن أن يوجد إلا حيث يوجد نقيضه معه) وأيضاً المقولة الصوفية الشهيرة: (الشيء لا يعرف إلا بنقيضه، فالظلام لا يُعرف إلا بالنور، والصحة لا تُعرف إلا بالمرض) وكذلك الخير الذي لا يُعرف ولا يُميز إلا بالشر.[1]

رابعاً: تساؤلات أبيقور بخصوص عدم قدرة الإله تنطبق على أتباع الآلهة الإغريقية وآلهة الديانات الأخرى الذين يرون الشر عارضاً للخير الذي من عند الإله، فنجد في الديانة الزرادشتية مثلاً كونها ديانة مانوية (ثنائية) وجود إله خاص بالشر اسمه (أنجرا مانيو) ومنه يأتي الموت والمرض والحزن وهو في حرب مستمرة مع إله الخير (أهورا مازدا) وكذلك بقية الديانات السماوية التي ترى أن الشر كله من الشيطان الذي يُعارض فيه الخير الذي من الله، وهذا ما دفع من قاموا بتأسيس الحركة الغنوصية الدينية من أصحاب الخلفية المسيحية إلى القول إن هنالك إلهين الإله الأكبر أو(المتعالي) وهو خفي ومنزه عن التواصل مع البشر، يتجلى في إله أصغر منه هو الخالق(الصانع) للكون، وهو إله مشوب

١- انظر: علي الوردي مهزلة العقل البشري ٣٢.

بالنقص ويعد مصدراً للشرور، وجميع هذه الأفكار والتصورات السابقة والمحرفة لا تنطبق على الإله الوحيد الذي قال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] والذي قال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٧-٨] ليقر بذلك أن كل شيء يعود إليه وهو خالق الخير والشر والموت والحياة ابتلاءً واختباراً للناس.

ولو تأملنا إلى فطرتنا أمام الوقوف بين خيارين أحدهما خير والآخر شر سنشعر دائماً بأن المسألة قُدر لها لأن تكون اختباراً بهذه الطريقة.. والإنسان مُخير

***

يقول أنطوني فلو بعد عودته من إلحاده معقباً على قضية (الشر): «لا شك أن معضلة الشر والتي كانت وراء اتجاهي للإلحاد تعتبر مشكلة لها وزنها عند الفلاسفة، لكنني أيقنت أن عدم فهم هذه المشكلة لا ينبغي أن يلغي القناعة بوجود الإله بعد أن أثبتت البراهين الفلسفية والعقلية والعلمية ذلك الوجود، إن وجود الشر والألم في الحياة له علاقة بصفات الإله وليس بوجود الإله أو عدمه، وقد أدركت بعض الحكمة بخصوص هذه القضية عندما أيقنت بتمتع الإنسان بحرية الاختيار التي تميزه عن سائر الكائنات،تلك الحرية التي تسمح لنا أن نقبل أو نرفض وجود الإله، وأن نسعى لمرضاته أو لا نبالي بها، لذلك تحتم وجود الخير والشر لنختار بينهما»

ثم يعلّق (أنطوني فلو) بعد ذلك ويقسّم الشر إلى نوعين قد لا يتبارد

إلى ذهن الكثير منا هذان التقسيمان، حيث يقول: «ينقسم الشر إلى نوعين، **نوع من كسب الإنسان** ويعود إلى ما يشوب النفس البشرية من نقائص يُنزه عنها الإله الذي خلق المجتمعات وجعلها تحت إرادة وفعل واختيار الإنسان، **ونوع لا دخل للإنسان فيه** كالزلازل والفيضانات والأمراض وقد تمكنت لاحقاً من أن أستوعب سبب وقوع هذه الشرور داخل منظومة الخير من خلال بعض التفسيرات:

١- أن الطبيعة بها من القوانين ما يسمح بحدوث الزلازل والأعاصير وغيرها من الكوارث وفي الوقت نفسه لا يمكن ترك الطبيعة دون هذه القوانين وإلا لخضع الوجود للفوضى والعشوائية. أي أننا نعيش في إطار السبب والنتيجة لهذه القوانين الطبيعية.

٢- تدفع هذه التحديات الطبيعية الإنسان إلى بذل الجهد لمواجهتها مما أدى إلى الرقي المادي والتقدم الحضاري للشعوب وكذلك نتج عن ما يواجهه الفرد من هذه الابتلاءات رقي روحي وقيمي نستشعره عند مواجهة المحن مثل التبرعات وتقديم المعونات والتكاتف وغيرها.

٣- لا شك أن منظور الديانات في الحياة بعد الموت وما يحققه صبر الإنسان على الابتلاء من ثواب في الحياة الآخرة، هو التفسير الأكمل لمعضلة الشر والألم».

القليل من الناس يعي اليوم، لماذا ذكر الله في الكتب السماوية قصة ابتلائه لعبده الأواب «أيوب»، حتى لا يظن الجميع أن الصالحين ذوو

حظوة عند الله تعصمهم من ابتلائه، فيكون الشر في أذهانهم عقاباً محضاً في هذه الدنيا لمن هم دون الصلاح، وكذلك ليجعل الله لنا آية في أنك مهما بلغت أعلى مراتب الدين (نبي) وأصابتك مصيبة (مرض) وظللت تدعو الله يوميّاً (سنين) فإن إجابة الله قادمة في الوقت المناسب لها إذا كتب الله لها ذلك،فترسخ في أذهان الناس ثقافة الاختبار والابتلاء ووقوعه على سائر البشر.. حيث الصبر.. وصدق الدعاء.. وقوة الإيمان.

***

أورد (ابن سينا) في كتابه (النجاة) كلاماً جميلاً لا يصدر إلا ممن هم في مثل عقله وفلسفته فيقول: «لا نجد شيئاً مما يقال له شر بالأفعال إلا وهو كمال بنسبة الفاعل إليه، وإنما هو شر بالقياس إلى السبب القابل له أو بالقياس إلى فاعل آخر يمنع عن فعله في تلك المادة التي أولى بها من هذا الفعل. فالظلم يصدر مثلاً عن قوة طلاّبة للغلبة وهي الغضبية والغلبة هي كمالها ولذلك خلقت من حيث هي غضبية أعني خُلقت لتكون متوجهة إلى نحو الغلبة تطلبها وتفرح بها فهذا الفعل بالقياس إليها خير لها وإن ضعفت عنه فهو بالقياس إليها شر لها، إنما هي شر للمظلوم أو للنفس النطقية التي كمالها كسر هذه القوة والاستيلاء عليها فإن عجزت عنه كان شرّاً لها. وكذلك السبب الفاعل للآلام والأحزان كالنار إذا أحرقت فإن الإحراق كمال النار لكنه شر بالقياس إلى من سلب سلامته بذلك لفقدانه ما فقد. وأما الشر الذي سببه النقصان فهو قصور يقع في

الجبلة ليس لأن فاعلاً فعله بل لأن الفاعل لم يفعله فليس ذلك بالحقيقة خيراً بالقياس إلى شيء».

***

إن الله لم يأمر بالشر ولكنه سمح به لحكمته ولكماله في خلق الأضداد، وهذا القول قد يدفع أحدهم للتعليق فيقول: «إذا كان الله لا يأمر بالشر استناداً إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] فكيف يقول الله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] فهل أمر الله القرية بالفسوق؟».

وفي الحقيقة أرى أن ابتعادنا عن اللغة العربية له التأثير في إدراكنا لمعظم الآيات القرآنية وما في اللغة من حذف واختصار وهذا ما نتج عنه اعتقادنا بوجود تعارض هنا بين الآيتين، بينما لا تعارض، وقد فهم ذلك السواد الأعظم من المفسرين القدامى، أشهرهم ما روي عن ابن عباس في قوله في تفسير ذلك: أي (أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة) فالله في قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي بالطاعات وذلك من خواص اللغة العربية في الاختصار مثال ذلك قولنا: (أمرته فعصاني) لا يعني أنني أمرته بالعصيان، وذلك تماماً ما ينطبق على الآية الكريمة التي أمر الله فيها أهل القرية بالطاعة فكان جوابهم أن فسقوا فيها، وهذا غاية ما كنا نبحث عنه بأن الله لا يأمر بالفحشاء والمعاصي والشرور.

وبالعودة إلى قضية الشر، أتذكر أني قرأت قصة جميلة في التراث اليهودي،تقول القصة: «يُحكى أن رجلاً صالحاً من بني إسرائيل وقف

يدعو الله قائلاً: أين أنت أيها الرب عن الكون الذي خلقته؟ ألا ترى الناس يعانون من الجوع والفقر؟ لماذا لا ترسل لهم مساعدة؟ فأجابه الرب قائلاً: لقد أرسلت مساعدة.. لقد أرسلتك أنت»

هل الإنسان مُسير أم مُخير؟

وكم من فتى قد ظن أن الله كتب عليه أن يشرب الخمر ويزني ويكفر به ليجعل نفسه مجبراً على هذه الأفعال معتبراً نفسه مؤدياً لقضاءٍ قد كُتب عليه، فيرتاح من تأنيب الضمير، ويعفي نفسه اللوامة من تلك المسؤولية، وليس هذا الفتى أو ذاك وحدهما من أساءا الظن، وجهلا المعنى الحقيقي (للمكتوب والمقدر)، هما يظنان أن «مكتوب» بمعنى (الإجبار على هذا الفعل المكتوب) وهذا كذب غير صحيح.. بل لو كان هنالك إجبارٌ لما كان هنالك اختيارٌ واختبارٌ. ولكن هذا دأب من يريد عصيان ربه أن يلقي المعاذير!

(إن الإنسان مخير فيما يعلم ومُسير فيما لا يعلم)، ولن يحاسبك الله على أمرٍ قد سيرك عليه، فلن تحاسب على كونك ذكراً أو أنثى، أبيضَ أو أسود، ذا نسب أو لا،فهذا مما كتبه الله عليك وسيرك إليه، ولكنه سيحاسبك على ما كتب لك (الخيار) فيه،فأنت وأنا وجميعنا نعلم أنه وبملء رغبتنا وحريتنا نستطيع فعل أي شيء نريده ما دمنا نملك الخيار على ذلك، تماماً مثلما اخترت أنت أن تقتني هذا الكتاب الآن، إنه خيارك أنت بملء إرادتك، وأنت تعلم ذلك جيداً.

إن حق الاختيار كفله الله للبشر في كتابه، فنجد أن الله سبحانه قد قال لذي القرنين: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] وكذلك لنبيه سليمان عليه السلام الذي فطن إلى ذلك فقال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠] فلا يكون البلاء بلاء لولا وجود هذا الخيار بين الشكر والكفر، ولا يكون بلاء لو لم يترتب على هذا الخيار الحرية!

إن الشواهد في جسدك على أنك مسير ومخير كثيرة، فأنت لا تتحكم في دقات قلبك ولا في دورتك الدموية أو جهازك الهضمي وهذه من الأمور التي سيرها الله لك، أما أن تمشي وتتحكم بيدك ورأسك فهذا ناتج عن ممارستك لخاصية التخيير والتحكم التي كتبها الله لك، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]! وماذا ستكسب من وراء ممارستك لحقك في التخيير، فكل نفسٍ بما كسبت رهينة..، والقول بأن الإنسان مسير على أفعال معينة ومكرهٌ على فعلها ينسب الظلم لله ويجعل الحياة مجرد تحصيل حاصل لسيناريو قد أعد من قبل، وما ربك بظلام للعبيد!

إن حقك في الاختيار مكفول لك حتى في الجنة، فنجد أن الله قد قال عن نعيم الجنة: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠] ولم يجبرك الله على نوع من الفواكه ولم يصادر حقك في الاختيار الذي كتبه لك.

لقد أحاط الله بعلمه كل شيء وهو عالم الغيب، فعلمه بما سأفعله أنا بملء حريتي واختياري لا يعني أنه أجبرني عليه، فالله لا يأمر بالفحشاء،

ولكن ذلك من تمام علم الإله، إنك إن وقعت أمام خيارات عدة في هذه الحياة ستستعين بنفسك بعد الله، فإن هداك وأعانك فهذا من فضله وإلا فأنت مخيرٌ ومسؤول عن تصرفاتك دون إجبار أو إكراه، تماماً مثل أهل الكهف الذين قال الله عنهم: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣] وقوله في سورة مريم: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦] فالهدى بالزيادة كان بعد ما آمن هؤلاء بربهم اختياراً.

يقول الشيخ محمد الغزالي: «يجب أن يعرف المسلمون بعض الحقائق، الحقيقة الأولى أن الكتابة السابقة لا دخل لها في تصرفاتنا أبداً، فلو كنت أنا أستاذاً في الجامعة فسأعرف الطالب المجتهد من الطالب المهمل، ولو سألوني ما رأيك في فلان؟ فيمكنني بناءً على علمي السابق أن أقول إن فلاناً قد يرسب وفلاناً قد ينجح! فهل إذا دخلا الامتحان سيكون رأيي أنا سبباً في نجاح ذاك أو رسوب هذا؟ بالطبع لا، فلا صلة لعلمي السابق وتقديري بتصرفات هؤلاء، والعلم الإلهي السابق لا صلة له بأعمال الخلق وإنما هو مرآة تنكشف فيها أعمال العباد، الحقيقة الثانية أن الأعمال التي يباشرها الناس قسمان: قسم لاعلاقة لك فيه كالحركة الدودية للمعدة والأمعاء التي يهضم بها الطعام، أما حركة يدك حين تضرب بها رجلاً بعصا أو مسدس فإن هذا تصرف دبرته وقدرته بإرادتك وبحواسك وأجهزتك وأنت مسؤول عنه أمام الله.. وهذا هو القسم الثاني»

إن تعرضك لحادث أو مصيبة هو من الأمور المقدرة عليك والتي لا تملك فيها خيار نفسك وهذا من قول الله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ

وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ [الحديد: ٢٢] وكذلك قوله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١] ومن رحمة الله أنه قال: (لنا) ولم يقل (علينا)، فحتى في هذه المصائب الخارجة عن إرادتنا وخيارنا نجد أن الله يكتبها لنا ولمصلحتنا لما ينطوي ذلك عليه من الابتلاء والأختبار حيث الصبر والإيمان.. والله مع الصابرين.

وكيف يصف الله نفسه بالمتكبر؟ وكيف يكون شديد الرحمة والعقاب معاً؟

أولاً: فيما يخص التكبر.. يجب أن نعلم دائماً بأن الله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١].. أحياناً نغفل عن هذه الآية فنظن أن الله يتكبر كالبشر!! وهذا بالطبع غير صحيح، وهو ناتج عن نظرتنا البشرية لا عن الله الذي قال ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الجاثية: ٣٧]، إن التكبر السلبي هو الذي يترفّع فيه الإنسان عن (أقرانه) من الناس.. بمعنى لا يمكن أن يتكبر الشخص وحده ومع نفسه!! بل تكبره يتطلب وجود أناس معه من أجل أن يتكبر عليهم.

وإذا أقررنا أن الله واحدٌ لا شريك له.. فهو يتكبر على من؟؟ الجواب بالتأكيد لا أحد، إذاً فالتكبر المقصود به هنا ليس المعنى السلبي الذي يمارسه الإنسان مع الغير، وانما بمعنى تجلي الله وتعاليه عن معاصي خلقه.

ثانياً.. لا شك أن الله قد وصف نفسه بشديد الرحمة، ولا شك أيضاً أنه وصف نفسه بشديد العقاب والعذاب وتوعد من يعصيه ويكفر به بالنار، ولكن التعذيب هنا لا يتعارض مع الرحمة، لأن التعذيب غالباً

جزء من الرحمة، فأنت مثلاً لو كنت ملكاً عادلاً وجاءك شخصان يحتكمان إليك،أحدهما قد قتل طفل الآخر ظلماً.

فمن الطبيعي أن (تعذب) القاتل (رحمةً) بالمقتول حتى ولو قررت إعدام القاتل، فشدة العذاب هي وجه ملازم لشدة الرحمة بعيداً عن منظورنا البشري، فنحن الناس وستبقى أنظارنا قاصرة دوماً عن إدراك ملك الناس!..

مكتبة بيلوسيكا

أنبياء الشرق

لا تزال من أجمل المقولات، تلك التي قالها الإمام أحمد السرهندي: (ولو كان العقل كافيًا وحده، لما بعث الله الأنبياء)، لا شك أن فطرة الإنسان السليمة وعقله سيقودانه إلى حيث يشعر بالغاية من وجوده.. وبأن هنالك موجداً له.. كما حدث مع الكثير من الحضارات البدائية التي جعلت لها آلهة وطقوسًا وديانات لاستشعارها برغبتها في ملء الجانب الروحي لديها، ولكن طالما هي رحلة بشرية، فستتفاوت بها العقول وسيكون من غير العدل أن يُترك كل إنسان وعقله، إلى جانب أن العقل البشري سيجعل الإنسان فيلسوفاً لو أبحر في أقصى غايات الوجود، ولن يجعله يدرك ما وراء هذه الغيبيات قطعًا.

إن أعظم حقيقة يقدمها الوحي الإلهي للناس هي رفع فكرهم ووعيهم لإدراك المطلقات والغيبيات دون حاجتهم لرحلات الفلسفة التي يقطعها الشك من كل جانب، فالوحي يهدف إلى الدين لا إلى الأديان.

وهكذا، بعث الله أنبياءه ورسله بالوحي لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وما تزال إلى يومنا هذا، تُطرح الكثير من التساؤلات حول شخوص هؤلاء الأنبياء! ومعجزاتهم الخارقة للطبيعة! ولا نكاد

نلتقي بصديقٍ متشكك إلا ويطرح ذلك السؤال الشهير (لماذا بعث الله أنبياءه في منطقة الشرق الأوسط فقط؟ وأين آثارهم على أرض الواقع؟ لماذا لا نجد لهم أدلة إلا في الكتب السماوية فقط؟) ولا تنتهي تلك التساؤلات التي تعدت الاستفهامات فيها وحي الأنبياء وبدأت تناقش شخوصهم وحقيقة معجزاتهم.

ولقناعتي بأني قد كنت من حَمَلة هذه التساؤلات من قبل، فقد قررت أن أدعو هذا الفصل ب(أنبياء الشرق) لما تجره الظنون على بعض الناس من أن سائر الأنبياء الذين ذكرهم الله كانوا في الشرق الأوسط فقط، فكيف يستوي منطقيّاً أن تكون رسالات هؤلاء الأنبياء عالمية!وأين الدلائل على وجودهم من غير كتب الأديان؟ ولماذا تتقاطع بعض قصص الأنبياء مع القصص الوثنية للحضارات القديمة بشكلٍ يثير الشبهة حول المصدر الطبيعي لقصص الأنبياء؟ ولعلنا نبحر حولً هذه التساؤلات ونضعها على الميزان لنرى صحتها وصحة الشكوك فيها!

ولماذا الشرق الأوسط؟

وقد كنت في بدايات تساؤلي حول الأنبياء أبحث عن إجابة شافية للسؤال الذي يقول: لماذا بعث الله أنبياءه في منطقة الشرق فقط؟ أليس هو رب المشرقين ورب المغربين؟ أليس هنالك شعوبٌ تعيش في ما وراء البحار وهي بحاجة ماسة لهذا الوحي؟.. حتى فطنت إلى أن المراجع التي أثارت تساؤلاتي هذه كانت لمفكرين وفلاسفة من أصحاب الخلفية اليهودية، وهذا ما جعلني أنجرف خلف أطروحاتهم دون وعي مني بأن

الخلفية اليهودية تصور الإله على أنه منحاز لشعبه اليهودي فقط ومنهم سيبعث سائر الأنبياء، وهم من سيُجازى ويدخل الجنة، لا تهم الشعوب الأخرى، المهم بنو إسرائيل - شعب الله المختار- وهذا ما كان سبباً لتحفيز هؤلاء الكتاب لانتقاد فكرة انحياز الإله لشعبٍ مخصص بالوحي والرسالة والنبوة والجنة دون سائر البشر الذين خلقهم هذا الإله.

ولا شك أني كمسلم لا أتّبع هذه الخلفية الدينية، وكسائر المسلمين، يجب أن نراعي في طرحنا لهذا السؤال أربعة أمور:

أولاً: أن القرآن الذي أخبرنا عن وجود الأنبياء أخبرنا أيضاً عن قول الله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] ويجب أن لا نهمل من القرآن هذا الجانب الذي يوضح أن كل أمة كان لها نذيرها.

ثانياً: أن القرآن أخبرنا عن قول الله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ويجب أن لا نتظلم بالنيابة عن الشعوب التي لم تصلها الرسالة، فبإذن الله أن رحمة الله تصلهم كما وضح ذلك الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة)، بل إن من يتدبر القرآن، سيلاحظ أن المُعذّبين يوم القيامة سيقولون: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٦] في إشارة واضحة إلى أن الله لن يعذب من لم يصله كتاب ولم يعرف ما الحساب!

ثالثاً: ذكر القرآن وجود أنبياء لم يقصص لنا الله عنهم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر: ٧٨]، وهذا يفتح الباب على مصراعيه حول إرسال الله لأنبياء لا نعلمهم وليس كما يظن البعض أن الرسالة حصراً في الأنبياء المقصوصين!

رابعاً: أن القرآن ذكر إشارات عالمية للرسالات الربانية، فنجد في قصة ذي القرنين أنه وصل إلى قوم لا يكادون يفقهون قولاً وذلك للخلاف اللغوي بينهم، وهذا ما دفع الكثير من العلماء إلى القول إن ذا القرنين وصل إلى أقاصي شرق آسيا في الصين، وكذلك ما قاله العلماء من أن النبي أيوب كان من الروم وعاش في أرض الروم، إلى جانب اجتهادات الباحثين من كون لقمان -والتي تعني سريع اللقمة- هو شخصية إيسوب الإغريقية، مع بقاء أصل الخلاف حول إن كان لقمان من أفريقيا أو من قوم عاد، ولكنها من الإشارات التي خاض فيها من خاض لتبيان أن الخطاب الرباني في القرآن لم يكن إقليمياً أو مناطقياً بدءاً من رسالة آدم التي ورد عنها من الروايات ما يفيد أنها ابتدأت من الهند.

هذا كله إلى جانب ما نراه الآن من أن الديانات السماوية قد انتشرت في كل بقاع العالم، فالديانة الأولى في أوروبا وأمريكا الشمالية والجنوبية هي الديانة المسيحية التي أتى بها الرجل الشرقي عيسى ابن مريم، تليها من الديانات السماوية الديانة الإسلامية التي أتى بها الرجل الشرقي محمد ابن عبد الله، بمعنى أننا تجاوزنا في أذهاننا كون العبرة العالمية للديانات السماوية قد تحققت بالفعل بعيداً عن أصلها الإقليمي أو المناطقي، فالرسالة الربانية لا بد أن تقع في نهاية الأمر بمدينة أو منطقة معينة من

على هذه الأرض أيّاً كان مكانها، إلا أن ذلك قد لا يعفينا من السؤال الذي يقول: (لماذا اختص الله إذاً بذكر أحداث وقصص الشرق الأوسط فقط، ولماذا بُعث السواد الأعظم من الأنبياء أولي العزم فيه)؟ فنقول:

إننا نعيش في زمن أمريكا والاتحاد الأوروبي ودول العالم الأول فنغفل أثناء طرحنا لهذا السؤال عن المعيار الزمني لمكانة الشرق الأوسط في الوقت الذي بعث الله فيه أنبياءه، إذ لو أننا أخذنا ذلك بعين الاعتبار فسيحل الإشكالية لدينا، لأننا سندرك أن منطقة الشرق الأوسط كانت مهداً لأقوى الحضارات والشعوب آنذاك، ففيها قامت الحضارة الأكادية والبابلية والآشورية والسومرية والكلدانية والفرعونية والحيثية والفارسية والسبئية والفينقية والأرمينية والفلسطينية القديمة وحضارة الهكسوس والكاشيين وغيرهم كثير، وحتى على صعيد الأقوام الذين كان لهم شأنهم وقوتهم كقوم عاد وثمود ولحيان والأنباط والغساسنة وغيرها من الممالك القوية والكبيرة كمملكة كندة ومعين وأوسان وحمير وتدمر والمناذرة وأصحاب الأيكة والأخدود في نجران.

ولن أقف في تعداد القوة التي كان يتمتع بها الشرق الأوسط، حيث كانت منطقة الشرق مثل الجوهرة بين الشعوب، حتى أن أنظار مختلف الحضارات حول العالم كانت تنصب نحوها، فلقد عانت منطقة الشرق الأوسط من غزوات الروم والإغريق، وإلى اليوم ونحن نرى الشواهد على ذلك كالآثار الرومانية والإغريقية الموجودة في جرش وقرطاج وإربد، كما نجد هناك من كان يسعى من أباطرة الحضارات الأخرى

لإقامة التحالفات مع الحضارات الشرق أوسطية، ونستشهد بالزواج الذي حصل بين يوليوس قيصر والملكة كيلوباترا وذلك حين شعر القيصر بالنكسة الاقتصادية التي ستواجهه فأراد تعزيز موقفه المالي وتسديد ديونه بهذه الزيجة!، وكذلك زحف الإسكندر المقدوني قادماً من مملكة مقدونيا القديمة إلى مصر حيث تُنسب الإسكندرية له إلى يومنا هذا، وهناك قام بتأسيس الدولة الهيلينستية ذات الأصول اليونانية، معلناً بداية عصر البطالمة في مصر.

لقد كانت الإسكندرية من أعظم الأماكن التي انطلقت منها المغامرات الفكرية، فقد كان سكانها يشكلون خليطاً عجيباً من الناس، فالجنود مقدونيون ورومان والكهنة مصريون، أما الارستقراطيون فكانوا إغريقاً، بينما كان البحارة فينيقيين، والعبيد هم القادمون من أفريقيا السمراء، هذا إلى جانب حث الإسكندر المقدوني جنوده على التزوج من الفارسيات والهنديات واحترام آلهة الشعوب الأخرى من أجل التعايش السلمي.

إننا حين نعرف قوة الشرق الأوسط التاريخية، وأهمية هذه المنطقة على الصعيد الحضاري، ومقدار ما حوته من حضارات وشعوب سواء أكان استيطاناً أم استعماراً، سيحل ذلك الاستفهامات التي تنتابنا إذا بدأنا بالتساؤل حول اقتصار القرآن الكريم على ذكر القصص التي حدثت في هذه المنطقة وتركّز أولي العزم من الرسل فيها، لأننا سندرك أن صلاح هذه المنطقة وتبليغ الرسالة فيها، هو نشره في العالم كله.. وهذه إجابة فورية

عن لماذا انتشرت هذه الأديان حول العالم بالفعل! وربما أن ذلك يفسر ما أورده الدكتور فراس السواح في كتابه (دين الإنسان) عن اكتشاف قبيلة بدائية في أفريقيا السمراء اسم الإله في ديانتهم (الله) والشيطان (إبليس) تماماً مثل اللفظ العربي!

***

إن الغاية من رسالات الأنبياء بعد الإيمان بالله وعبادته هي إصلاح حال المجتمعات والشعوب، ونشر الخير ومساعدة الفقراء والمحتاجين، لذلك نجد أن الفقراء وضعاف القوم والمضطهدين هم أول من يعتنق دعوات الأنبياء، وقد ورد ما يؤكد ذلك في نصوص قرآنية كثيرة كقول الله: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧] وقوله: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]. إن تعلق الفقراء والمساكين والعبيد برسالات الأنبياء يؤكد نبل هذه الرسالة وصدق المرسلين، وإن مكافحة الطغاة والجبابرة لها تؤكد تهديدها لهم.

لقد كانت رسالة موسى هي الحرية ضد الطغيان والعبودية، ورسالة عيسى هي الثورة ضد الاحتلال والخذلان، فمال قيصر لقيصر، ومال الله لله، وحيث تكثر الحضارات والإمبراطوريات والمماليك، يكثر الفقراء والمساكين والعبيد، ويكثر الظلم والطبقية والاستبداد، فتكثر الحاجة إلى المصلحين!

***

إن الغاية التي بُعث لأجلها الأنبياء في إصلاح المجتمعات والشعوب،

جعلت الأيادي تشير بأصابع النبوة والرسالة إلى شخصياتٍ كثيرة ساهمت في هذا الاصلاح حول العالم، فنجد من قال من الطائفة الأحمدية بأن بوذا نبي وهو أقرب لأن يكون نبي الله ذا الكفل رغم وجود من عارض هذا القول على أن ذا الكفل هو النبي حزقيال في التوراة مع بقاء إيمانهم بنبوة بوذا، ونجد من قال بأن هيرمس هو نفسه أخنوخ / إدريس عليه السلام! وكذلك من قال بأن كونفشيوس وزرادشت نبيان ومرسلان، خصوصاً من يقرأ كتاب الزرداشتية المقدس (الزندا أفيستا) ويجد مصطلحات تتقاطع مع المصطلحات القرآنية مثل السماوات والأراضي السبع، ومثل الوضوء والخمس الصلوات، ومثل سدرة المنتهى والجحيم والصراط المستقيم،وهذا ما جعل أنصار الديانة البهائية يضمون كل هذه الشخصيات إلى زمرة المرسلين أو المظاهرة الإلهية التي سبقت ظهور (حضرة بهاء الله) إلى جانب محمد وعيسى وموسى عليهم السلام.

أما كون هذه الديانات تعرضت إلى تحريفات بشرية أو تجلت في مللٍ ونحل، فذلك لا ينقص من أصلها الإلهي شيئاً تماماً مثلما نؤمن بذلك عن الديانات السماوية الأخرى.

وفي صدد ذكر الشخصيات، لا نغفل عن الفيسلوف العظيم سقراط «فالمعلوم أن سقراط في بدايته كان سوفسطائيّاً يرى أن الإنسان مقياسٌ لكل شيء، وأن قوانين العدل والمساواة أساسها ميزان الناس للأمور، إلى أن صرّح في أحد الأيام بأنه يشعر أن الوحي ينزل عليه

وبأن الله يسيطر عليه ويرشده سواء السبيل، فكفر بتعدد الآلهة وقال إن الإله واحد وانطلق في دعوته الإصلاحية إلى أن اصطدم مع دعوات الحكومة الديموقراطية آنذاك مما جعله يدفع حياته ثمناً لذلك بعد أن قاموا بتشريبه السم».

إن ما فعله سقراط في دعواته الإصلاحية وكفره بالآلهة المتعددة جعل من العلماء المسلمين من قال بأن الراجح أن سقراط كان من الأنبياء، نذكر منهم الإمام أحمد السرهندي في كتابه (المكتوبات الربانية) وغيره من العلماء.

بالانتقال إلى الديانة الطاوية الصينية، فنجد أن حكيمها لاو-تسو والذي يُعتقد أنه عاش ما بين القرن السادس والخامس قبل الميلاد وقد عاصر كونفوشيوس والتقى به واتفقا على أفكار كثيرة، نجد أنه وضع في كتابه الشهير (رسالة في الطاو/ Tao Te Ching) تعاليم مثرية ومفيدة، فيذكر من تعاليمه أن (الطاو) كمستوى قدسي خفي غير مشخص مثل الآلهة المشخصة فيقول حسب ما وصلنا من كتابه: «هناك شيء بلا شكل، موجود قبل السماء والأرض، قائم بنفسه لا يحول، شأنه الدوران بلا كلل، مؤهل لأمومة هذا العالم، لا أعرف اسمه فأدعوه الطاو، لا أستطيع وصفه فأقول العظيم، عظمته امتداد بلا نهاية».[1]

إن ما تذكره الطاوية من صفات (الطاو) والتي تعني الطريق الحق،شبيهة في تنزيه الخالق وصفاته عن صغائر الأمور، وهي تتشابه

١- انظر إلى: دين الإنسان فراس السواح ص ٢٤٧.

أيضاً مع ما قاله الفيلسوف أرسطو عن صفات الإله (إله واحد أحد، واجب الوجود، غير مادي، مطلق القدرة والعلم، كامل الخير).[1]

ومن الملاحظ أن ما ذكره أرسطو يلتقي مع ما جاء في القرآن من سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤] ومما يؤكد تشابه الرسالات في التنزيه والتوحيد أن ابنة النبي خالد بن سنان عليه السلام جاءت إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم فبسط لها ثوبه وقال: (هذه بنت نبي ضيعه قومه) وحين سمعته يقرأ قول الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ قالت: كان أبي يقول هذا![2]

***

في عام ٢١٦ ميلادي، ولد (ماني) لأسرة إيرانية قرب مدينة طيسفون، يُعرف ماني بلقب (نبي المانوية) نسبة إلى مقولته الشهيرة: «أنا الرسول الشكور المبعوث من أرض من بابل»، حيث يذكر التاريخ أن ماني تلقى وحياً من السماء عندما كان في سن الثانية عشرة من عمره، ثم عاوده وهو في الرابعة والعشرين وأمره الوحي هذه المرة بنشر دعوته، وقد ذكر المؤلف العربي (ابن النديم) في كتابه (الفهرست) أن ملاكاً هبط من السماء على ماني وبلّغه الرسالة «فلما تم له اثنتا عشرة سنة أتاه الوحي على قوله، من ملك جنان النور وهو الله تعالى عما يقوله،وكان الملاك الذي جاءه

---

١ - انظر: كتاب العودة إلى الحكمة لديفيد كونواي.

٢- راجع: مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي -سورة الإخلاص-.

بالوحي يسمى التوم، ومعناه بالنبطية القرين، فقال له: اعتزل هذه الملة فلست من أهلها، وعليك بالنزاهة وترك الشهوات، ولم يئن لك أن تظهر لحداثة سنك، فلما تم له أربع وعشرون سنة أتاه التوم فقال له: عليك السلام يا ماني مني ومن الرب الذي أرسلني إليك واختارك لرسالته، وقد أمرك أن تدعو وتبشر ببشرى الحق وتحتمل في ذلك كل جهدك».[1]

إن التقاء أقوال هؤلاء المصلحين مع أقوال من ثبت لدينا أنهم من الرسل والأنبياء وتشابه الغاية من وراء رسالاتهم الإصلاحية وتعاليمهم القيمة، يجعلان احتمالية وفكرة كونهم أنبياء ورسلاً مقبولة، رغم أنه لا يمكن إثباتها، وكذلك أيضاً لا يمكن نفيها،فجميع الاحتمالات قائمة.

***

ذكر الدكتور عمرو شريف في مناظرة تلفزيونية بينه وبين أحد الملحدين العرب عن وجود حوالي مئتي حضارة حول العالم بعضها يجهل بعضاً، ومع ذلك تتشابه قصصها التراثية أو الدينية بشكل كبير، فمعظم هذه الحضارات تتفق بأربعة أشياء أساسية بعيداً عن الجوانب الأخرى، نذكر منها:

١- تضحية أب بأحد أبنائه بعد ما جاءه وحي رباني يأمره بذلك وما أن بدأ بعملية الذبح حتى تدخل الإله وأنقذ الضحية واستبدل بها بهيمة من الأنعام، ونذكر مثالاً على هذا التشابه بين قصة النبي

١- انظر: الفهرست لابن النديم - فصل المانوية ص ٤٦٦.

إبراهيم عليه السلام مع ابنه وقصة أجاممنون مع ابنته أفيجينيا من ملحمة الإلياذة والتي قامت الإلاهة آرتميس بافتدائها بغزالة.

٢- حدوث طوفان عظيم غرق فيه قوم فاسدون ونجا منه رجل صالح بعد أن حمل معه أتباعه،ونذكر مثالاً على هذا التشابه بين قصة نوح عليه السلام وقصة أوتنابشتم أو أتراحسيس من ملحمة جلجامش وكذلك ديوكاليون عند الإغريق ومانو عند الهنود وغيرهم.

٣- ولادة طفل في قوم ظالمين فيكون ذلك سبباً لأن تقذفه أمه في البحر بعد أن تضعه في صندوق أو تابوت ونذكر مثالاً على التشابه هنا بين موسى عليه السلام وسرجون الأكادي.

٤- ولادة طفل من أم عذراء، ونجد التشابه كثيراً حول هذه القصة بين المسيح عيسى ابن مريم وبين كريشنا عند الهندوس، وميترا وغيرهم كبوذا وزرادشت، رغم أنه لم يصح قطعاً أن هؤلاء وغيرهم ولدوا من عذراوات وكل الروايات التي تشير لذلك ثبت أنها تعدلت بعد قدوم المسيح وكتابة الأناجيل مما قد يوحي بأن أصحاب هذه الأساطير هم من تأثروا بمعجزة عيسى عليه السلام.

ورغم قوة هذا التشابه بين القصص الدينية والوثنية، إلا أننا نجد من يحاول أن يجر القصص الدينية المذكورة في(القرآن والانجيل والتوراة والكنزا ربا) إلى دائرة الشكوك بقوله إنها مسروقات من هذه الأساطير

الوثنية، حيث يستخدم الكثير من اللادينين والملاحدة هذه الأمثلة لإثبات أن الأديان استوحت قصصها من هذه الأساطير الوثنية، إذ يستحيل أن يحدث هذا التشابه الكبير في ظنهم بمحض المصادفة - رغم أنهم أكثر من يؤمن بالمصادفة - إلا أنه لا أحد من أصحاب هذه المزاعم يستطيع تقديم دليل واحد يجزم فيه بأن الأديان سرقت هذه الأساطير وضمّتها في الكتب المقدسة!

كما لا يستطيع أن ينفي قطعاً أن يكون أصحاب هذه الأساطير هم من تأثروا بقصص الأديان فألهمتهم! وعلى الرغم من وجود الكثير من التساؤلات التي تجعل هذه المزاعم تقف حتف أنفها، إلا أن هنالك من رد عليها بالأدلة والإثباتات حتى أُشْبع الموضوع ضرباً كما سنعرج على بعض ذلك لاحقاً!

مع المعجزات:

لا شك أن المعجزات التي حصلت للأنبياء كانفلاق البحر لموسى وميلاد المسيح من دون أب وغيرها، كانت وما زالت من الأمور التي انشغل بالتفكير بها الكثير من الناس، فمنهم من حاولوا تفسيرها بشكلٍ علمي ومنطقي إيماناً منهم بأن الجهل العلمي سابقاً جعل الناس يظنون أنها معجزات خارقة للطبيعة، حيث يرون أنها ليست سوى حقائق علمية لم تُكتشف بعد، كأن يقولوا بأن البحر انفلق لموسى من قوة الرياح، وبأن المسيح ولد من دون أب عن طريق التلقيح الذاتي للخنثى مُشكل،وأن إسراء محمد ليس إلا إسقاطاً نجميّاً، بل إننا نجد من الطوائف الإسلامية

مثل الباطنية، من ذهب إلى أبعد من ذلك في تأويل المعجزات على غير سياقها، فهم يرون أن هدهد سليمان هو رمزٌ للهداية وليس هدهداً حقيقياً، وكذلك يرون أن المقصود بعصا موسى هي عصا الحق التي انفلق بها الباطل والذي يرمز له البحر، وكذلك يرون أن المقصود بالنار التي أُحرق فيها إبراهيم عليه السلام هي نار غضب النمرود وليست ناراً حقيقية، ولهم الكثير من التأويلات على هذا السياق.

شخصياً لا أنكر أن الموضوع كان يقلقني يوماً ما، وقد كنت ميّالاً إلى الرأي الذي يقول بأن المعجزات التي حصلت للأنبياء ليست أفعالاً خارقة لقوانين الطبيعة، بل هي ضمن قوانينها ولكننا نجهلها، وقد كنت أتتبع الآراء التي تعطيني أجوبةً منطقية حول هذه المعجزات، حيث كان وما زال يجذبني رأي الإمام الحسن البصري ورأي الإمام ابن إسحاق وما نقله عن عائشة ومعاوية - رحمهم الله جميعاً- من أن حادثة الإسراء لم تكن في اليقظة وإنما كانت رؤية منامية ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] ومنهم من قال كان إسراءً روحياً ولم يكن جسدياً، مع بقاء أصل الخلاف والرأي الذي يقول بأن الإسراء كان في اليقظة والجسد، ولكني كما أسلفت كنت أتتبع الأكثر منطقية، وقد فرحت ذات يوم حين قرأت عن قصة صائد السمك الإنجليزي (جيمس بارتلي/ James Bartley) أو المعروف باسم (يونس الجديد) نسبة إلى الحادثة التي حصلت له عام ١٨٩١ م ونشرتها أغلب الصحف القديمة آنذاك، بل وظلت تكتب عنه حتى بعد سنين من هذه الحادثة، إذ تقول القصة بأن جميس ذهب

بقاربه ذات يوم إلى إحدى الجزر ليصطاد السمك فتعرّض مركبه لهجومٍ من حوت فسقط جيمس في البحر فالتقمه الحوت، وظل جيمس في بطن الحوت ما يزيد على ١٥ ساعة، وقد خرج حيّاً بعد ذلك في حادثة تقرّب إلى الأذهان وتُمنطق قصة سيدنا يونس بن متّى!

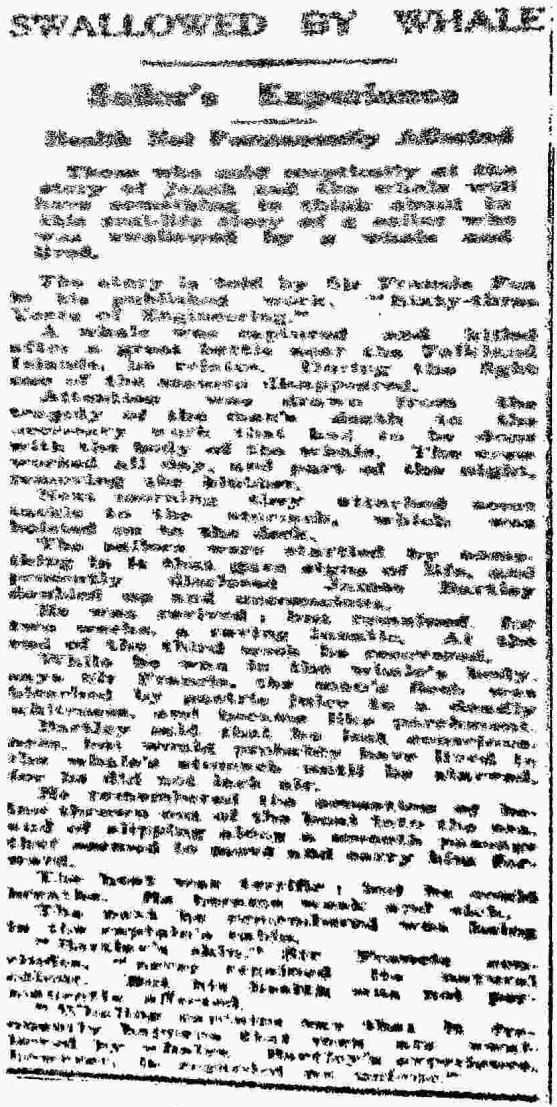

SWALLOWED BY WHALE

خبر بقاء جيمس في بطن الحوت منشوراً في الصحف القديمة.

وقد كان ذلك ديدني، حتى توقفت مع نفسي وبدأت بالتساؤل وقلت: قبل أن أبحث عن أصل المعجزة؟ ما الذي جعلني أراها معجزة من الأساس؟ فوجدت أن الجواب هو إيماني بوجود قوانين في الطبيعة تم اختراقها! وهنا قلت لنفسي: (دعك من كل المعجزات واسأل نفسك من أين جاءت تلك القوانين والنواميس والتي لولاها لما تبين لنا أن معجزةً ما قد حدثت!؟) وعندما كان الجواب هو (الله)، قلت: أوليس الله هو خالق قوانين الطبيعة وقادراً على إزالتها؟ إذا كان الجواب بلى.. فلم القلق والمغالاة في التمنطق! فجميع المعجزات ممكنة عقليّاً وليست مستحيلة، وطالما هي كذلك فإن العقل يقبلها وإلا لما خاطبنا الله (بأولي الألباب) لو لم تكن فكرة المعجزة مقبولةً لذي اللب.

وحتى نفرق بين الممكن والمستحيل عقليّاً، نذكر قصة لطيفة يُروى أنها حدثت للفيلسوف الفرنسي (رينيه ديكارت)، ففي ذات يوم وقف ديكارت أمام المرآة، وبدأ ينظر إلى نفسه فقرر أن يتخيل أنه عقلٌ بدون جسد، وقد تمكن بالفعل من أن يتخيل ذلك بعد أن أغمض عينيه وضاعف تركيزه ليخدع دماغه بأنه عقلٌ دون جسد نظراً لأن ذلك ممكن عقليّاً، بعدها حاول أن يعكس الحال، وذلك بأن يتخيل أنه جسدٌ بدون عقل، لكنه فشل! حاول كثيراً ولم يستطع حتى بعد تركيزه على ذلك!.. فكيف له أن يتخيل أنه بلا عقل وهو يحتاج أن يتخيل ذلك بعقله نفسه! فهذا مستحيل عقليّاً! عندها استنتج ديكارت أحد أهم أسباب الوجود، وكتب في دفتر ملاحظاته فوراً إحدى أشهر مقولات التاريخ.. «أنا أفكر.. إذاً أنا موجود».

فأن نقول بأن الله نجّى إبراهيم من النار، وموسى خلال البحر، وأمر بأن يولد عيسى من دون أب، وأن يبقى يونس في بطن الحوت حيّاً لمدة من الزمن اختلفوا في تقديرها ما بين ساعات إلى ثلاث ليالٍ، فكل هذه المعجزات وأكثر ليست مستحيلة عقليّاً، بل هي ممكنة عقليّاً ويمكن لأي إنسان أن يفهمها ويعقلها بل ويعتبر منها.. وبعد ذلك كله.. آمنت بأن حكمة الله سبحانه في معجزات أنبيائه تتجلى في أكثر من فائدة، منها أن يؤكد الله أنه هو خالق هذا الكون وواضع قوانينه ونواميسه وهو من يخترقها وحده.. ومنها أن يثبت الله صدق رسالات أنبيائه وتكون هذه المعجزات هي الجانب المادي من الوحي مضافةً إلى الجانب الغيبي،.. وأخيراً.. أرى أن من أعظم حِكم الله خلف هذه المعجزات هي في تهذيب نفوسنا أمام ثورة العلم وتوسيع مداركنا في استعياب فتنته، فلو كانت آفاق المؤمنين ضيقةً ولم يتم توسعة مداركهم بسماعهم عن حدوث معجزة لامرأة أنجبت من دون زوج، لوجدتهم قد كفروا اليوم بالدين أمام ثورة أطفال الأنابيب والاستنساخ والتلقيح الصناعي وغيرها، ولو لم يتم توسعة مداركهم بحدوث معجزة انتقال عرش بلقيس من مملكة سبأ إلى أورشليم عند النبي سليمان في طرفة عين، لوجدتهم قد كفروا اليوم بالدين أمام الثورة التقنية التي أدت إلى انتقال الصوت والصورة في غضون ثوانٍ!.. ولكن بفضل حكمة الله في حدوث كل هذه المعجزات بمختلف المجالات، صارت النفس مهذبة أمام قبول كل ما هو ممكن عقلياً، بل وصار ذلك دافعاً للبعض لكي لا يؤمن بالمستحيل..!

وأين آثارهم؟

وقد كانت النفس تراود النفس عن آثار الأنبياء، أن يبعث الله مئات الأنبياء فلا نجد لهم أثراً ماديّاً ولا دليلاً حسيّاً غير ما وجدناه في الكتب المقدسة! فلا نقوش ولا أحافير ولا آثار ولا غير ذلك! وهذا ما دفعني قديماً إلى البحث أكثر، ومما زادني يقيناً بأن هذه القضية قد أوقعت من الشك ما أوقعت في نفوس الناس، هو كثرة الأسئلة التي أقرأ عنها حيال هذا الأمر في كتب ومواقع الشبهات والشكوك، ومن هنا عزمت على البحث حول ذلك بعد أن سمعت من أصدقائي عن وجود آثارٍ ماديةٍ للأنبياء في أحد متاحف إسطنبول في تركيا، فحملت أمتعتي وذهبت إلى هناك، وما أن دخلت إلى المتحف حتى انطلقت إلى القسم المعني بالأنبياء والرسل، حيث يكتظ الناس! وتفاجأت هناك بوجود عصا موسى! وعمامة يوسف! وسيف داود! وأواني إبراهيم! وشعرة محمد! ولم يزدني ذلك إلا شكوكاً، فعلى حد علمي أن عصا موسى موجودةٌ في تابوت العهد الذي حملته الملائكة لبني إسرائيل وما زالوا يبحثون عنه بعد أن أضاعوه في الهيكل ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨] وأنه ما من دليل على أن هذه الآثار تعود للأنبياء حقّاً! فكيف توجد عمامة ليوسف وعلماء الآثار بحثوا كثيراً عن من يكون يوسف في التاريخ المصري! وقس على ذلك بقية آثار الرُّسل! ومن هنا شعرت أن الغرض من وضع هذه الآثار

ونسبها للأنبياء بكل أريحية قد يقف خلفه مساعٍ تجارية، أو أن يكون أهلها عن حقيقتها غافلين، فحين سألتهم عن معظم هذه التحف قالوا إن تاريخها يعود إلى المقتنيات والهدايا التي يتحصل عليها السلاطين إبان الدولة العثمانية من مصر والعراق والشام! وما زالت دائرة الشكوك تكبر بعد كل تحرٍّ لتؤكد لي أن الآثار الموجودة لدعم الحركة السياحية لا غير!

❋❋❋

ومن تلك اللحظة والفضول يتزايد لدي للبحث عن إرث هؤلاء الأنبياء وما تبقى من مماليكهم، بالتأكيد أننا لا نربط إيماننا بوجود الآثار من عدمها! ولكننا نسعى لتعزيز هذا الإيمان، وعليه فإننا سنقف الآن وقفةً مبسطة مع ما وجدناه ونزعم أنه من آثار الأنبياء، ورغم وجود من شكك بهذه الآثار ونسبها إلى غير الأنبياء إلا أنه لا يمتلك الدليل القاطع على ذلك كما لا يمتلك من يثبت أنها للأنبياء الدليل القاطع أيضاً! ولكن التواريخ ومجرى القصص تشير بلا شك إلى تقاربها مع القصص الواردة في الكتب المقدسة، ويبقى أن لا ننسى أن التشكيك قد طال كل شيء، ولو تتبعنا الشكوك لما صحت أي نظرية ولا تيقنّا من أي آثار لأي حضارة! بل حتى الزمن الذي نعيشه الآن.

فقد خرج علينا الباحثان الألمانيان هانس أولريخ نيميتز، وهيربرت ليغا بما يعرف بـ(نظرية الشبح)، ومفادها بأن هنالك مؤامرة على التقويم الزمني بطلها يوليوس قيصر والبيزنطيون! حيث قاموا بالتلاعب بالتقويم وإضافة ما يقارب ٣٠٠ سنة! أي أننا الآن في عام ١٧١٥م وليس كما نظن أننا في عام ٢٠١٥م!

وهذا مايدفعنا إلى عدم الانجراف خلف التشكيك وقبول أن يتم التشكيك بكل شيء على الوجود، بل حتى الوجود نفسه! من الخالق إلى المخلوق، وحتى في المناقشات والمناظرات لم يسلم أحد من التشكيك بالآخر أو القدح في وثائقه ومعلوماته ونظرياته.

أذكر في هذا السياق قصة طريفة حصلت بين اثنين من الفلاسفة أحدهما فيلسوف مؤمن بوجود الخالق والآخر ينكر وجود الخالق، فقال الأول للثاني: أنت تنكر وجود الله فلسفيّاً وتستند على أقوال فريدريك نيتشه، جان بول سارتر، فولتير، وديفيد هيوم! ألا تعلم بأن نيتشه قد أودع في مصحة عقلية عندما بلغ سن الأربعين! وبأن سارتر وفولتير ارتدا عن إلحادهما وطلبا رجل دين عندما شعرا بقرب موتهما ليبارك روحهما! وأن هيوم ينكر الذات والعقل والسببية ويبيح الانتحار!

فرد عليه الآخر: وأنت تستند في إثبات وجود خالق على فلسفة فيثاغورس المجنون الذي يؤمن بتناسخ الأرواح! وعلى أفلاطون اللوطي عاشق الغلمان! وعلى سقراط الذي حُكم عليه بالإعدام بتهمة الهرطقة!

وهكذا يطول الليل، ويصبح لزاماً عليك أن تعرف بأن موقفك من أي قناعة لك يجبرك أن تتحلى بثباتٍ أكبر من أي تشكيك لا يحتوي على أدلةٍ قاطعة تستدعي أن تترجل من قناعتك السابقة وتحررها!

وعليه، فإننا سنقوم الآن باستعراض بعض قصص الأنبياء مع ما ثبت ظنيّاً أنه من آثارهم بإذن الله!

١- أين يوسف من التاريخ؟

يتبادر إلى أذهاننا عندما نسمع اسم النبي يوسف قصة إخوته وكيف تخلصوا منه حين كان صغيراً بسبب الغيرة التي لحقت به جرّاء حب أبيه يعقوب المفرط له،التوراة تصف أن الضربة القاضية التي سددها يعقوب لإخوة يوسف هي حين أهداه قميصاً لا يلبسه إلا وجهاء القوم لديهم وهو المشهور باسم (القميص الملون). القرآن أشار للقميص الذي لطخوه بدم كذب حقداً على أن الذئب أكل يوسف، وهم في الحقيقة قد تخلصوا منهً بعد ما التقطته السيارة وباعوه بثمنٍ بخس.

ولكننا هنا لن نتحدث عن قصة يوسف المعروفة،بل عن أمورٍ تاريخية حول حقيقة النبي الذي تولى منصباً في مصر.

***

دخل يوسف مصر برفقة عزيزها كأحد العبيد إلا أن العزيز أمر بإكرام مثواه،حتى بلغ أشده وراودته (زليخة) عن نفسه وأودع السجن، وهناك برع في تفسير الأحلام وتعبير الرؤى، وقد أُخرج يوسف بعد ذلك من السجن ليفسر حلماً للملك وهناك صار ذا حظوة لدى الملك حتى جعله على خزائن الأرض ليصبح يوسف عزيزاً لمصر والسؤال الآن:ما موقف التاريخ هنا؟

ربما يسأل أحدنا نفسه فيقول:كيف يُخرج الملك سجيناً لمجرد تفسير حلم! هل يُعقل أن يكون تأويل الأحلام بهذه الأهمية لدى المصريين القدامى؟

تجيب عن ذلك الباحثة المتخصصة في التاريخ المصري (كاسيا سباكوسكا/ Kasia Szpakowska) في كتابها الذي يحمل عنوان «Daily Life in Ancient Egypt» عن ولع المصريين القدامى بالتأويلات، تحديداً في الفترتين(١٧٥٠-١٥٥٠) ق.م وهي الحقبة نفسها المتوقع أن يكون يوسف الصدّيق قد عاش فيها، ونلاحظ تركيز القرآن على ولع المصريين بتفسير الأحلام في تلك الحقبة حتى في قصة السجناء الذين كانوا مع يوسف في زنزانته.

تذكر الباحثة (كاسيا) في كتابها عن الآثار التي وجدت وأثبتت ولع المصريين القدامى بالأحلام إلى درجة أنهم استحدثوا وظيفة لمفسر أحلام كان يشغرها رجل اسمه (غودايا)، وهذا يؤكد ما جاء في الكتب السماوية عن الولع بالأحلام.. حيث تخبرنا التوراة في سفر التكوين الإصحاح رقم(٤١) عن حلم الملك الذي أخبر به يوسف «قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «إِنِّي كُنْتُ فِي حُلْمِي وَاقِفًا عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ، وَهُوَ ذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ طَالِعَةٍ مِنَ النَّهْرِ سَمِينَةِ اللَّحْمِ وَحَسَنَةِ الصُّورَةِ، فَارْتَعَتْ فِي رَوْضَةٍ. ثُمَّ هُوَ ذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ أُخْرَى طَالِعَةٍ وَرَاءَهَا مَهْزُولَةً وَقَبِيحَةَ الصُّورَةِ جِدًّا وَرَقِيقَةَ اللَّحْمِ. لَمْ أَنْظُرْ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ مِثْلَهَا فِي الْقَبَاحَةِ. فَأَكَلَتِ الْبَقَرَاتُ الرَّقِيقَةُ وَالْقَبِيحَةُ الْبَقَرَاتِ السَّبْعَ الأُولَى السَّمِينَةَ. فَدَخَلَتْ أَجْوَافَهَا، وَلَمْ يُعْلَمْ أَنَّهَا دَخَلَتْ فِي أَجْوَافِهَا، فَكَانَ مَنْظَرُهَا قَبِيحًا كَمَا فِي الأَوَّلِ. وَاسْتَيْقَظْتُ. ثُمَّ رَأَيْتُ فِي حُلْمِي وَهُوَ ذَا سَبْعُ سَنَابِلَ طَالِعَةٌ فِي سَاقٍ وَاحِدٍ

مُمْتَلِئَةً وَحَسَنَةً. ثُمَّ هُوَ ذَا سَبْعُ سَنَابِلَ يَابِسَةً رَقِيقَةً مَلْفُوحَةً بِالرِّيحِ الشَّرْقِيَّةِ نَابِتَةً وَرَاءَهَا. فَابْتَلَعَتِ السَّنَابِلُ الرَّقِيقَةُ السَّنَابِلَ السَّبْعَ الْحَسَنَةَ.

القرآن أشار إلى الحلم نفسه: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾ [يوسف: ٤٣] وهذا الحلم الذي فسره يوسف للملك وحذره من قدوم سبع سنين قاحلة ويتخللها مجاعة مرعبة وأن عليه الاستعداد لذلك!

ونحن نسأل أنفسنا هنا، هل ذكر التاريخ فعلاً عن وجود سبع سنين من القحط مرت على مصر..؟

الجواب على هذا السؤال ظل مجهولاً إلى قبل قرنين من الزمان حين كشفت الآثار عن ذلك، وأبرز الاكتشافات على وجود المجاعة التي استمرت سبع سنين هو ما يُسمى اليوم (لوحة المجاعة) والتي وُجدت بالقرب من أسوان.

حيث أشارت (لوحة المجاعة) بشكلٍ دقيق إلى استنجاد الملك (زوسر) من جرّاء القحط الذي أصابهم بسبب توقف النيل لـ(سبع سنين)، وقد اختلف العلماء والباحثون حول وقت هذه النقوش فمنهم من قال إن الملك (زوسر) عاش بعد يوسف ومنهم من قال إن الصخرة نُقشت في عهد البطالمة بعد (زوسر) بسنين!

و لكنني أؤيد قول د. محمد بيومي مهران بخصوص اللوحة! حيث ذكر في كتابه (بنو إسرائيل) عن أن اللوحة هي ترديد تاريخي لحادثة

المجاعة الشهيرة التي حدثت في مصر لمدة سبع سنين في وقت يُعتقد أنه وقت يوسف عليه السلام. يوسف الذي أنقذ مصر من هذه الحادثة وجعلهم يستعدون لها تم تنصيبه عزيزاً لمصر،ومنصبٌ مثل هذا من المفترض أن يكون مسجلاً في تاريخ مصر الأثري.

التوراة والإنجيل وقعا في خطأ تاريخي كبير، تحديداً في قولهما هنا في سفر التكوين الإصحاح رقم (٤٧) إنه عندما صار يوسف عزيزاً لمصر جلب أهله وأسكنهم بمدينة رعمسيس «فَأَسْكَنَ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَعْطَاهُمْ مُلْكًا فِي أَرْضِ مِصْرَ، فِي أَفْضَلِ الأَرْضِ، فِي أَرْضِ رَعَمْسِيسَ كَمَا أَمَرَ فِرْعَوْنُ».

ومن المؤكد أن هذا الخطأ هو نتيجة للتحريفات البشرية التي جرت على التوراة والإنجيل، حيث إن رمسيس لم يحكم مصر قبل ١٢١٣ ق.م أي بعد يوسف بكثير،فكيف تكون له مدينة تحمل اسمه قبل وجوده..؟!

لمزيدٍ من التحري، قمت بالاطلاع على موسوعة الكتاب المقدس للنصارى العرب ولم يعجبني شخصيّاً تبريرهم لهذا الخطأ عن ورود اسم المدينة قبل عصر رمسيس الثاني أي في القرن الرابع عشر قبل الميلاد فيقولون: «لا يعتبر ذكر اسم رعمسيس في سفر التكوين نوعاً من المفارقات التاريخية، كما لا يعني ذلك أن يعقوب عاش حتى زمن رمسيس الثاني، ولكن الاحتمال أن كاتب سفر التكوين استخدم هنا الاسم الذي كان يُطلق على تلك المنطقة في زمن كتابته للسفر».[1]

١- انظر: دائرة المعارف المسيحية http://st-takla. org/Full-Free-Coptic-Books FreeCopticBooks-002-Holy-Arabic-Bible-Dictionary/10_R/R_085. html

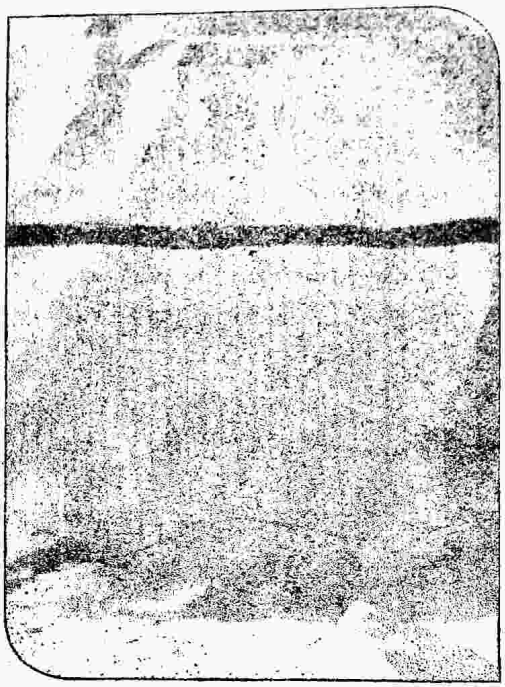

ولا أعلم كيف فات هؤلاء إيمانهم بأن موسى عليه السلام هو من كتب الأسفار الخمسة الأولى من التوراة!

***

الباحثة الدكتورة (آيرين فورستنر مولار) تعتذر من المتدينين اليهود والنصارى وتقول إن الآثار تؤكد أن المدينة التي سكنها يوسف مع أهله كان اسمها: أقارس، والتاريخ يقول إن أقارس كانت عاصمة مصر إبان حكم الهكسوس (الملوك الرعاة) قبل أن يُطردوا من الفراعنة بقيادة أحمس الأول، إذاً يوسف عاش في زمن الهكسوس، ونلاحظ دقة القرآن هنا على غيره من الكتب السماوية حين لم يصف ملك مصر في قصة يوسف

(بالفرعون) مثل الكتب الأخرى، بل قال: (الملك/ العزيز) وهي ألقاب تخص الهكسوس.

وبعد التنقيب في مدينة أفارس حصل الباحثون على قبر عزيزها الذي حكمها قبل دخول الفراعنة،ووجدوا نقوشاً إلى جانب تمثالٍ له تؤكد أن القبر يعود لرجلٍ سامي عبراني.

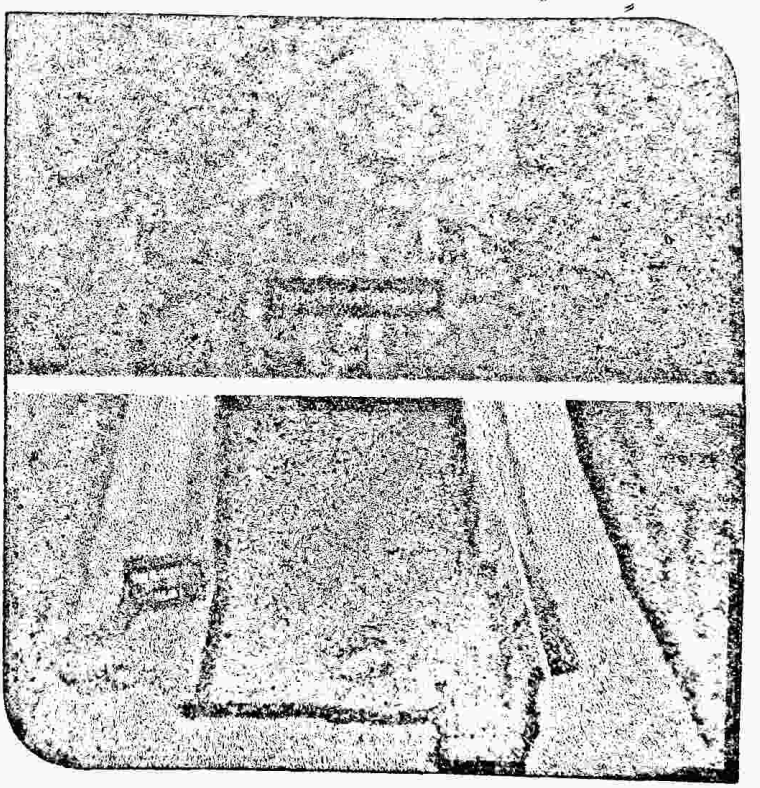

في هذه الصورة، نجد في الأعلى نقوشاً وفي الأسفل نرى القبر الذي وجد فيه ضريح خاص وقد كتب عليه ما يدل على أنه قبر صاحب منصب رفيع في مصر والأرجح أنه عزيزها، وهناك وجدوا في جانب الضريح تمثالاً يشير لصاحب القبر، وقد كان التمثال غريباً على الباحثين!

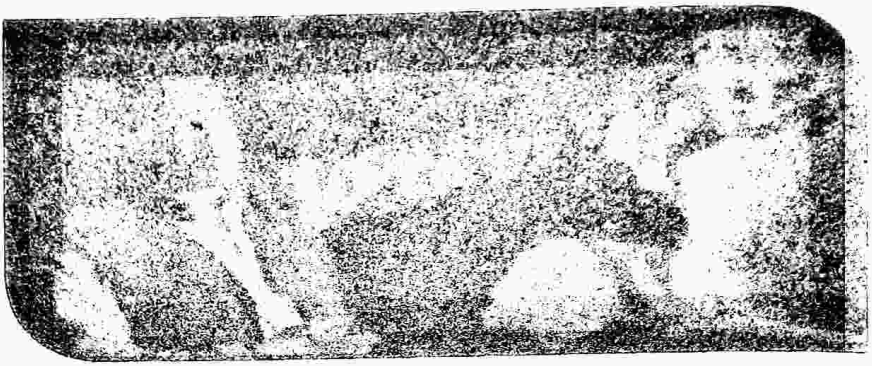

وهنا يشرح د. ديفيد روهل صاحب كتاب (فراعنة وملوك / Pharaohs and Kings) ويوضح أين تكمن الغرابة وأسباب اختلاف التمثال الذي وضّحت النقوش أنه تمثال سامي عبراني وسُمي بعد ذلك تمثال (يوسف)!

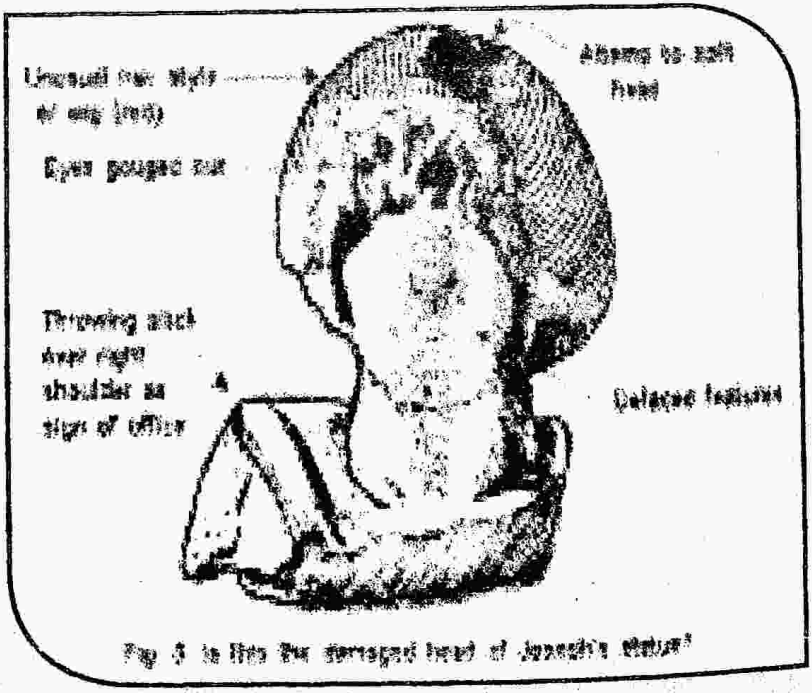

يقول الدكتور (روهل) إنه يشعر بلا شك أن القبر والتمثال يعودان للنبي يوسف خصوصاً أنهم وجدوا القبر منبوشاً وقد أُخذت الجثة منه! لأن ذلك يؤكد من وجهة نظر الدكتور (روهل) ما ورد في التوراة من أن النبي موسى نبش قبر يوسف وأخذ الجثمان معه عندما خرج من مصر، وذلك تلبيةً لوصية يوسف بأن يُدفن في أرض أجداده خارج مصر! كما جاء في التوراة في سفر الخروج الإصحاح رقم (١٣) «وَأَخَذَ مُوسَى عِظَامَ يُوسُفَ مَعَهُ، لأَنَّهُ كَانَ قَدِ اسْتَحْلَفَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِحَلْفٍ قَائِلاً: «إِنَّ اللهَ سَيَفْتَقِدُكُمْ فَتُصْعِدُونَ عِظَامِي مِنْ هُنَا مَعَكُمْ».».

نحن كمسلمين لا نمانع من تصديق قصة موسى ونبشه لقبر يوسف، نظراً لأنها وردت في أكثر من حديث صحيح أشهرها حديث (عجوز بني إسرائيل) وهو حديث صحيح على شرط مسلم وقد ذكره الألباني في السلسلة الصحيحة، يروي الحديث أبو موسى الأشعري عن أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «أَعجَزتُم أن تكونوا مثلَ عجوزِ بني إسرائيلَ؟ فقال أصحابُه: يا رسولَ اللهِ وما عجوزُ بني إسرائيلَ؟ قال: إنَّ موسى لما سار ببني إسرائيلَ من مصرَ، ضَلُّوا الطريقَ، فقال: ما هذا؟ فقال علماؤهم: نحن نُحَدِّثُك: إنَّ يوسفَ لما حضره الموتُ أخذ علينا مَوثِقًا من اللهِ أن لا نخرُجَ من مصرَ

حتى ننقُل عظامَه معنا، قال: فمن يعلمُ موضعَ قبرَه؟ قالوا: ما ندري أين قبرُ يوسفَ إلا عجوزًا من بني إسرائيلَ، فبعث إليها، فأتَته، فقال: دُلُّوني على قبرِ يوسفَ، قالت: لا والله لا أفعلُ حتى تُعطِيَني حُكمي، قال: وماحُكمُكِ؟ قالت: أكونُ معك في الجنَّةِ، فكره أن يُعطِيَها ذلك، فأوحى اللهُ إليه أن أَعطِها حكمَها، فانطلقَتْ بهم إلى بُحَيرةٍ، موضعِ مُستَنْقَعِ ماءٍ، فقالت: أنضِبوا هذا الماءَ، فأَنضبوا، قالت: احفِروا واستخرِجوا عظامَ يوسفَ، فلما أقلُّوها إلى الأرضِ، إذا الطريقُ مثلُ ضوءِ النَّهارِ».

***

الجدير بالذكر أن علماء الآثار قاموا بعد ذلك بإعادة ترميم وتصميم التمثال الذي أسموه تمثال (يوسف) فأخرجوه بصورة نهائية حديثة وجميلة ووضعوه في المتاحف . بإمكانك البحث عن صورة التمثال في الإنترنت باسم Joseph Statue in Egypt فنحن نتورّع عن وضع صورة التمثال حفاظاً على حرمة هذا النبي الكريم الذي علقت صورته في أذهاننا بجماله الخلّاب ! إن تسمية هذا التمثال باسم النبي يوسف، يعود لما يؤمن به الباحثون عن هوية صاحب التمثال، وعطفاً على الأدلة الموجودة .. والله وحده أعلم

٢- موسى والخروج:

مما لا شك فيه أن المقصود بالخروج هو حادثة انفلاق البحر وخروج بني إسرائيل من مصر بقيادة (موسى) هروباً من استعباد وتعذيب فرعون.

تعتبر شخصية (موسى) عليه السلام من أكثر الشخصيات ذكراً في القرآن والتوراة والإنجيل حيث ذُكر في القرآن ١٣٦ مرة وذلك لما في قصته من عبر.

وُلد موسى في الحقبة التي أمر فيها الفرعون بقتل المواليد فقذفته أمه في اليم حتى لا يُقتل لتلتقطه (امرأة فرعون) وتسميه ب(موسى) فما معنى اسمه أولاً؟

لقد اختلف العلماء والباحثون في معنى اسم (موسى) وانقسمت أقوالهم إلى رأيين:

الرأي الأول وهو الذي يتبناه علماء الآثار بقيادة (روبرت كارغل) أن معنى اسم موسى (الولد)، حيث يقول علماء الآثار بأن وجهاء الفراعنة كانوا يتخذون أسماءهم نسبة لآلهتهم، وأن اسم (موسى أو moses) كان موجوداً في أسماء أغلبهم، مثال ذلك اسم (رمسيس) أصله (Ra-moses) بمعنى (ابن إله الشمس رع) وكذلك (تحتمس) أصله (tutt-moses) ومعناه (ابن إله الحكمة توت) و(أحمس) هو (Ah-moses) أي (ابن إله القمر)، فيقولون إن موسى أو moses تربى في البلاط الملكي فكان لا بد من أن يُنسب إلى أحد آلهتهم ولكن حين بعثه الله بالحق حذف اسم الإله وبقي اسمه: موسى!

الرأي الآخر والذي يتبناه معظم علماء المسلمين واليهود هو أن موسى اسم مركب أصله «مو شيه» أي (المأخوذ من الماء أو المُنتشل) نسبة إلى الطريقة التي عُثر بها على موسى في صغره. ونجد في التوراة هذا المعنى موضحاً في حاشية سفر الخروج طبقاً لما يعتقده معظم المسلمين واليهود.

لقد تربى موسى في كنف فرعون برفقة أمه التي كانت ترضعه سرّاً حتى شبّ وكبر وهو لم يعرف حقيقته بعد وكان يظن أنه ابنٌ لفرعون، وقد تغيرت حياة موسى بعد أن عرف حقيقة انتمائه إلى بني إسرائيل عن طريق أخته التي صارحته بذلك ولم تعد تحتمل إخفاء الأمر نظراً للتعذيب الذي تعرض له العبرانيون، ومن بعد معرفة موسى للحقيقة لم يعد يطيق رؤية بني إسرائيل تحت الاستعباد والتعذيب فأراد إيقاف ذلك، خصوصاً عندما رأى أحد حرّاس فرعون وهو يجلد شيخاً من بني إسرائيل بالسوط ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]. بعد ذلك أدرك خطورة ما فعله فهرب لـ(مدْين).

في مدْين تزوج موسى من ابنة سيدها (يثرون) والذي يُعتقد أنه هو النبي (شعيب) وهنالك قضى موسى حوالي ثلاثين عاماً إلى أن كلمه الله وبعثه بالحق!

تقول التوراة إن الله كلم موسى في الشتاء بينما هو يرعى غنم (يثرون) ويبحث عن نار للتدفئة فحين رأى ما يشبه النار ذهب لها وهناك كلمه الله!

ورد في التوراة في الإصحاح الثالث من سفر الخروج ما يلي «وَأَمَّا

مُوسَى فَكَانَ يَرْعَى غَنَمَ يَثْرُونَ حَمِيهِ كَاهِنِ مِدْيَانَ، فَسَاقَ الْغَنَمَ إِلَى وَرَاءِ الْبَرِّيَّةِ وَجَاءَ إِلَى جَبَلِ اللهِ حُوريبَ. وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ بِلَهِيبِ نَارٍ مِنْ وَسَطِ عُلَّيْقَةٍ. فَنَظَرَ وَإِذَا الْعُلَّيْقَةُ تَتَوَقَّدُ بِالنَّارِ، وَالْعُلَّيْقَةُ لَمْ تَكُنْ تَحْتَرِقُ. فَقَالَ مُوسَى: «أَمِيلُ الآنَ لأَنْظُرَ هذَا الْمَنْظَرَ الْعَظِيمَ. لِمَاذَا لاَ تَحْتَرِقُ الْعُلَّيْقَةُ؟». فَلَمَّا رَأَى الرَّبُّ أَنَّهُ مَالَ لِيَنْظُرَ، نَادَاهُ اللهُ مِنْ وَسَطِ الْعُلَّيْقَةِ وَقَالَ: «مُوسَى، مُوسَى!». فَقَالَ: ها أنا ذا! فَقَالَ الرب: «لاَ تَقْتَرِبْ إِلَى ها هُنَا. اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ، لأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ» ثُمَّ قَالَ: «أَنَا إِلهُ أَبِيكَ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ». فَغَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللهِ.».

القرآن لا يخالف هذه القصة التي وردت في أكثر من موضع من القرآن نذكر منها ما جاء في سورة طه: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾ [طه: ٩-١٢].

ذهب بعض المفسرين مثل ابن كثير والطبري والماوردي إلى قولهم نقلاً عن ابن عباس بأن النار ليست ناراً حقيقية بل هي نورٌ من الله ليجذب موسى لتكليمه.

وبعد أن كلمه الله وأمره بالذهاب إلى الطاغية فرعون، طلب موسى من ربه أن ينضم أخوه هارون معه، وهنا نجد اختلافاً بين المسلمين واليهود في حقيقة عقدة لسان موسى، فغالبية علماء المسلمين قالوا: إن

عقدة لسان موسى هي بسبب جمرة أكلها في صغره ولكن هذا القول من الإسرائيليات كما وضّحه النيسابوري وغيره، أما غالبية اليهود فيفسرون ثقل لسان موسى بأنه نتيجة عيشه سنين في مدين (العربية) حيث سلبه ذلك فصاحته بلغته القديمة. وقد ورد في التوراة ما يلي «فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: «اسْتَمِعْ أَيُّهَا السَّيِّدُ، لَسْتُ أَنَا صَاحِبَ كَلَام بَلْ أَنَا ثَقِيلُ الْفَم وَاللِّسَان،قَالَ لَهُ الرَّبُّ: «مَنْ صَنَعَ لِلإِنْسَانِ فَمًا؟ أَوْ مَنْ يَصْنَعُ أَخْرَسَ أَوْ أَصَمَّ أَوْ بَصِيرًا أَوْ أَعْمَى؟ أَمَا هُوَ أَنَا الرَّبُّ؟ فَالآنَ اذْهَبْ وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَأُعَلِّمُكَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ» ومن هنا طلب موسى من الله أن يرسل معه أخاه هارون كونه أفصح لساناً منه وشخصياً أرى أن الرأي اليهودي أقرب للصواب،خصوصاً إذا لاحظنا أن غاية موسى في طلب أخيه هارون هي لفصاحته: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ ﴾ [القصص: ٣٤].

و بعد ذهاب موسى لفرعون وفوزه في تحدي السحرة أمر فرعون بقتلهم بحجة أنهم هم كبار السحرة، وهنا هرب موسى وهارون وبنو إسرائيل خلفهم فرعون وجنوده، وانفلق البحر بأمر الله وخرج بنو إسرائيل وموسى وهارون.. وما أن دخل فرعون وجنوده حتى أغرقهم الله.

والآن سأتوقف قليلاً مع هذه الحادثة، حيث ظلت قصة خروج بني إسرائيل من مصر بدون دليل لعلماء الآثار إلى عام ١٨٩٦م عندما اكتشف العلماء ما يعرف باسم (لوحة مرنبتاح).

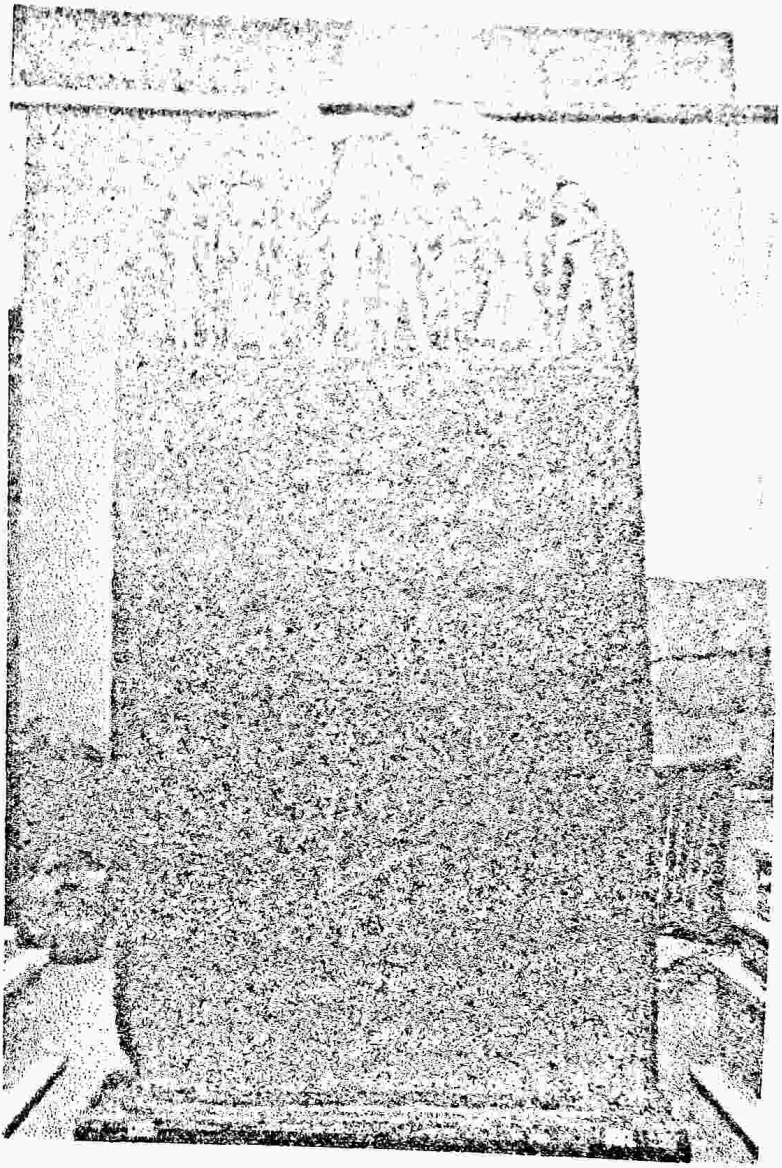

لوحة مرنبتاح المكتشفة.

تضم هذه اللوحة إنجازات الفرعون (مرنبتاح) والذي يعتقد أنه ابن رمسيس الثاني (فرعون موسى على الأرجح) وأبرز ما نقش فيها هو جملة (هرب بنو إسرائيل ولم يعد لهم بذور)!

وتُقرأ هذه الجملة المنقوشة حسب الطريقة المرفقة بالصورة

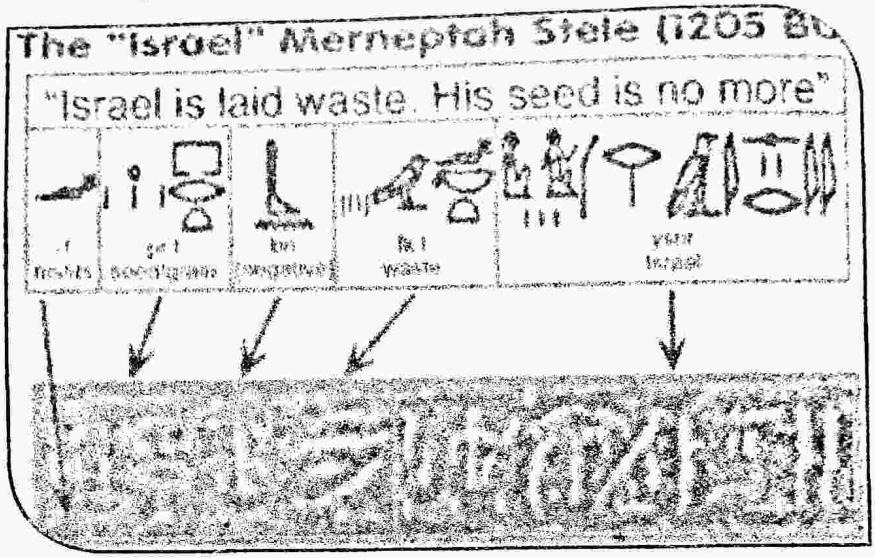

صورة توضيحية لكيفية قراءة لوحة مرنبتاح.

كما تُعد الدليل الوحيد (غير الديني) لخروج بني إسرائيل! رغم وجود من أنكر ذلك وقرأ الجملة على غير ما اتفق عليه علماء الآثار، وهذه طبيعة الاختلاف التي ذكرناها آنفاً.

٣- داود وجالوت:

قصة النبي داود عليه السلام وجالوت من أشهر القصص المذكورة في الكتب السماوية، إلا أن القصة لم تلاقِ قبولاً لدى الباحثين وتم تصنيفها لفترة كأسطورة!! ولكن تراجع الكثير من علماء الغرب عن رأيهم حين عثرت الباحثة الإسرائيلية (جيلا كوك) في بيت لحم على حجر منقوش به الأحداث!!

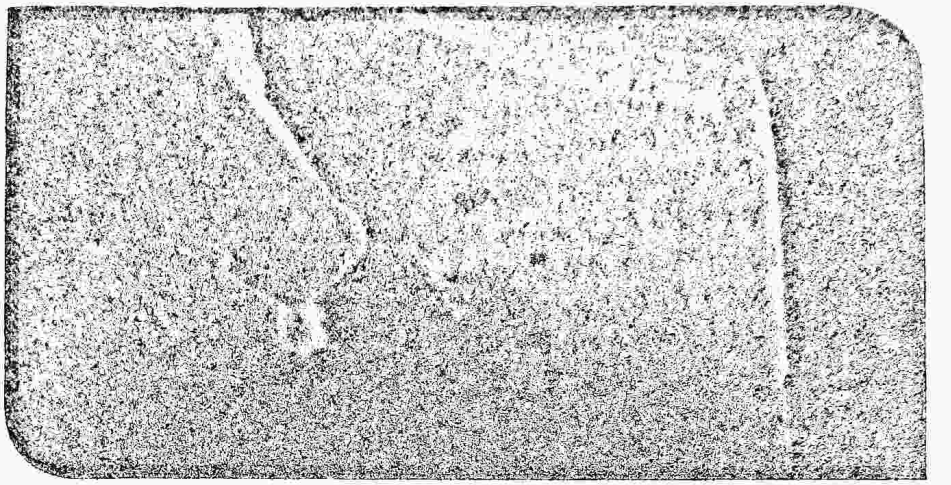

يحكي هذا الحجر المنقوش باللغة الآرامية أن هنالك خبراً لا يصدق،داود الراعي قتل جالوت الضخم! والكلام المنقوش عليه ليس له علاقة بالتوراة وإنما هو من رجل مؤرخ.

ونحن كمسلمين نؤمن يقيناً بقرآننا الذي ذكر القصة وأنها حدثت قبل حوالي ٣٠٠٠ سنة بالفعل! القصة تحكي عن الصراع القديم بين بني إسرائيل والفلسطينيين وذلك حين عبر الإسرائيليون البحر وخرجوا من مصر متجهين لفلسطين ومن هنا بدأت الحرب!

أشار القرآن إلى طبيعة أجساد سكان فلسطين الضخمة حين قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [المائدة: ٢٢]، وبذلك حكم الله عليهم بسبب تخاذلهم بالتيه ٤٠ عاماً: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]، فظلوا في سيناء إلى أن دخلوها في عهد يوشع بن نون،وهناك كما

تقول التوراة بدأت الحروب بين الإسرائيليين والفلسطينيين إلى أن أخذ بنو إسرائيل فلسطين فكونوا أول مملكة لهم وجعلوا (شاول/ طالوت) ملكاً لها، ولم تهدأ الصراعات بين الفلسطينيين والملك (شاول/ طالوت)، وفي تلك الحقبة كان هنالك راعي غنم صغير السن اسمه (داود) لم يكن يلفت النظر أمام وجهاء بني إسرائيل،إلا عندما اكتشفوا جمال صوته أثناء ترتيل التوراة، استمرت الهجمات من قبل سكان فلسطين ضد بني إسرائيل ولكن هذه المرة اضطروا أن يجلبوا معهم العملاق جالوت إلى جانب الجيوش الغفيرة وبدؤوا بالزحف!

علم الملك الإسرائيلي (شاول/ طالوت) بقدوم جيوش الفلسطينيين نحوه بقيادة (جالوت) فدب الرعب في قلوب بني إسرائيل،فهم الأقل عدداً والأضعف ولكنها الحرب!! وهنا جمع طالوت كل شعبه!! وبدأ زحف الجيشين ومن حسن حظ طالوت أنه أخذ معه حتى الرعاة -بأمر الله-: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٠]،.

وهناك، طلب جالوت مبارزة فردية بأن يخرج رجل لنزاله،وأمام عظمة جالوت لم يخرج أي رجل من بني إسرائيل لدرجة أن ملكهم (شاول/ طالوت) قال: من يخرج فسأزوجه ابنتي وأجعله ولي عهدي، ولم يخرج أحد! رغم أن بني إسرائيل هم من أرادوا ملكاً يجاهدون تحت رايته!

وبعد طول انتظار خرج راعي الأغنام الصغير (داود) عليه السلام ممسكاً بنبّالة الحجر خاصته، فاحتقره جالوت وقال: «ارجع يا طفل

فأنت أصغر من أن تموت»، فما كان من داود إلا أن وضع حجراً ورمى به جالوت فشج رأسه: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١] فانسحب جيشه هرباً على الفور!

❋❋❋

مؤخراً ظهر الباحث والكاتب الأمريكي (مالكولم غلادويل) وألقى محاضرة عن وجود حلقة مفقودة في التوراة،حيث إن الكتب والمرويات تشير إلى أن هنالك أداة قتل أخرى! فيقول إن داود لم يقتل العملاق جالوت بمقلاع/ نبّالة كما نعتقد، بل إن داود أول من صنع بطريقة ما سلاحاً حديديّاً يشبه المسدس استطاع أن يسدد من خلاله طلقة صوب رأس جالوت ويقتله، فكما يقول (مالكولم) بأن هنالك أدلة تشير إلى أن أداة القتل كانت سلاحاً حديديّاً صنعه داود، وهذا إن صح فليس حلقة مفقودة في القرآن الذي قال عن داود: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

٤- سليمان وملكة سبأ:

ورد ذكر ملكة سبأ (بلقيس) وقصة إسلامها في القرآن في سورة النمل، وكذلك ذُكرت في الإنجيل في سفر الملوك الأول في الإصحاح العاشر بمسمى (ملكة شيبا/ the queen of sheba).

وهذا بالتأكيد يعني أن جميع معتنقي الديانات السماوية الإبراهيمية يؤمنون بملكة شيبا أو سبأ، ولكن بمقارنة قصتها مع القرآن سنجد هذه الاختلافات:

نجد أنها في التوراة والإنجيل هي التي طلبت أن تزور الملك سليمان حين سمعت عن حكمته فأرادت أن تذهب لتختبره وأخذت معها هدية عبارة عن توابل وذهب وحجر كريم،كما لم تذكر الكتب السماوية مكان مدينة ملكة شيبا/ سبأ ولا حتى اسمها ولا ديانتها التي كانت عليها ولا قصة نقل عرشها من سبأ إلى أورشليم عند الملك سليمان،وبالتالي فإن القرآن يتفق مع الإنجيل والتوراة في أنه لم يذكر اسم الملكة وأقر بزيارتها للملك سليمان وأنها أرسلت له هدية: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ [النمل: ٣٥]، ويختلف معهما في أن الملك سليمان هو من طلب قدومها بعد ما أخبره الهدهد:﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل: ٢٢] وذكر القرآن عرشها العظيم، كما جاء في القرآن ذكر ديانتها القديمة في عبادة الشمس: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [النمل: ٢٤].

***

اليوم في عصر تطور العلم، لا يزال العلماء عاجزين عن تحديد حقيقة مكان ملكة قوم سبأ،وهل هم فعلاً كانوا في مأرب باليمن أم أديس أبابا في أثيوبيا؟ حيث إن كلًّا من اليمنيين والأثيوبيين يزعمون أن (بلقيس) كانت لديهم رغم أن علماء الآثار لم يجدوا دليلاً حقيقيّاً لهذه الملكة فاعتبروها أقرب لأن تكون أسطورة، وسبب سوء البحث يعود بشكل أساسي لاتكال علماء الآثار على كتابهم المقدس والذي لم يذكر تفاصيل تاريخية واضحة لحقيقة المدينة التي حكمتها ملكة سبأ، ولكن حين قرر بعض الباحثين على طريقة (نيكولاس كلوب) أن يطّلعوا على القرآن،

اختلف نمط البحث وذلك لما ذُكر عن مدينة سبأ في سورة كاملة تحمل اسم سبأ.

ما ذكره الله في قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥] إلى قوله: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦]، يشير فعلاً إلى قوم سبأ في اليمن، تحديداً سد مأرب الذي أثبتت النقوش الموجودة عليه أنه تعرض قديماً لسيلٍ جارف (سيل العرم) وقد كان حينها يفصل بين حقلين (أو جنتين كما أخبر القرآن).

جانب من النقوش السبئية الموجودة على سد مأرب.

ولكن ما من دليل إلى الآن عن حقيقة وجود ملكة امرأة كانت تحكمهم!، ومن الآثار التي وجدت هناك في مأرب، هو ما يسمى اليوم بـ(محرم بلقيس) وهو مكان للعبادة كانوا يعبدون فيه حسب النقوش (ألمقة/ Almaqah) إلهة القمر.

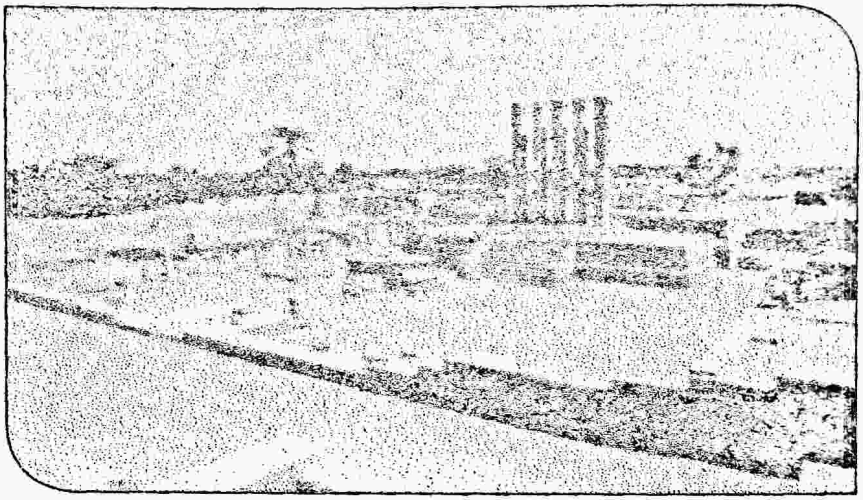

ولكن الشق الآخر من الباحثين ما زالوا على قناعة بأن ملكة شيبا/ سبأ من أثيوبيا وهي التي قد أنجبت من سليمان عليه السلام الملك (منليك الأول)، غير أن بعضهم تراجع حين وجد في أديس أبابا في أثيوبيا نقوشاً تعود أصلاً إلى الحضارة السبئية في اليمن،وبذلك استطاعوا أن يجمعوا بين النظريتين بأنه لا مانع من أن تكون ملكة شيبا رحلت إلى أثيوبيا غير أن أصلها من مأرب في سبأ، وقد أُنتجت عشرات الأفلام الوثائقية التي توضح هذا اللبس الذي حصل في نسبة ملكة سبأ ما بين اليمن وأثيوبيا، أشهرها الوثائقي الضخم الذي أنتجته قناة History والذي يحمل عنوان

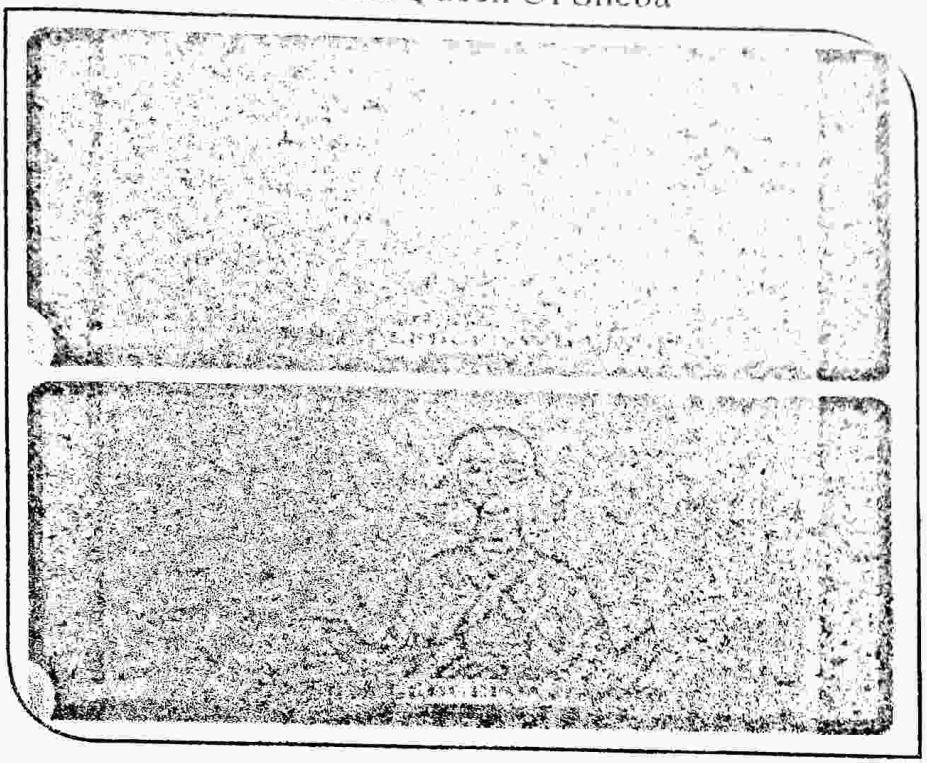

وبعد سلسلة البحث، تم العثور على أدلة قوية لوجود ملكة سبأ علاوة على ما وجده الباحثون من تماثيل ونقوش في مأرب تشير إلى أن المنطقة قد حكمتها امرأة ذات شأن عظيم في سالف الزمان،إلا أن الإشكالية المتبقية هي ما قيل من أن قوم سبأ كانوا يعبدون القمر ولم يكونوا يعبدون الشمس كما ذكر القرآن! حيث يقول علماء الآثار إن النقوش الموجودة حول معبد بلقيس أو محرم بلقيس تثبت أنهم كانوا يعبدون القمر المتمثل في إلهة القمر (ألمقة/ Almaqah).

وقد كان هذا هو الرأي السائد إلى أن تدخل علماء مختصون في دراسة الآثار الدينية مثل (ريكمانس) وقالوا إن (ألمقة) هو إله الشمس.

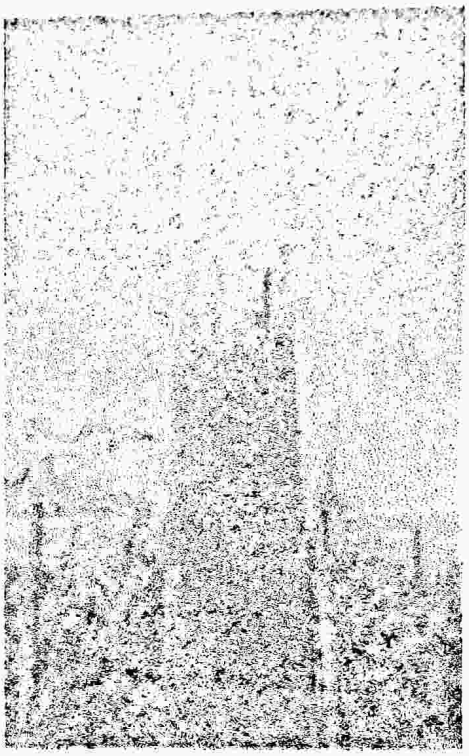

Almaqah (Moon God)

(b)

Figure 1: (a) Mahram Bilqis in Marib (Yemen), also known as Temple Awwam. This temple was dedicated to Ilmaqah (or Almaqah), the national god of the Kingdom of Saba. Although in the popular literature it is referred to as "Temple of the Moon-god", Ilmaqah was actually a Sun-god. (b) Ground plan of the Mahram Bilqis. [31]

The nature of the Sabaean chief deity *Ilmaqah* was studied in considerable detail by J. Pirenne[32] and G. Garbini[33] in the 1970s. They have shown that the motifs associated with *Ilmaqah* such as the bull's head, the vine and also the lion's skin on a human statue are solar and dionysiac attributes. Therefore, *Ilmaqah* was a Sun-god rather than a Moon-god. Concerning *Ilmaqah*, J. Ryckmans in *The Anchor Bible Dictionary* says:

> *[illegible]* [34]

حيث قالوا إن هنالك خطأ في قراءة النقوش ولا بد من النظر لثقافة العرب في تأنيث الشمس وتذكير القمر، إذ إن (ألقة) هو إله الشمس وليس إله القمر كما يظن البعض

وهذا تبيان لعظمة ودقة وصف القرآن للحضارات البائدة.

نبي وشبهة محيرة!

وكما ذكرنا سابقاً أن الشكوك والتساؤلات قد طالت كل الموجودات والمسموعات، ولا ريب في أن يكون هذا الشك مفيداً تارة، كما قد يكون مضرّاً تارة أخرى، بيد أنه يجري في داخل الإنسان مجرى الدم، فيدفعه للتساؤل حول قصة هذا النبي! وكيف يفعل هذا الفعل نبي! وكيف يقول هذا القول نبي! وإلى ما لا نهاية!

أردنا أن نتوقف هنا عند أبرز تلك التساؤلات التي تعصفها الأذهان فتبقى في النفوس، لعلنا نشارك بها من زاوية أخرى، تضيف إلى رصيد من غلبت عليه الظنون ظنّاً جديداً.

أولاً: نوح والطوفان:

تشترك الديانات السماوية في قصة الطوفان الذي عاقب الله به قوم نوح نظير كفرهم، إلا أن القصة في شكلها التوراتي الإنجيلي حسب ما ذكره الكتاب المقدس، خالفت أبجديات العقل، فكان عاقبة ذلك أن كفر بالدين من كفر، نذكر من هؤلاء باروخ إسبنيوزا وجيوردانو برونو، واللذين كان لقضية الطوفان التوراتية نصيب الأسد في تخليهما عن الدين،

فقصة نوح حسب ما وردت في الكتاب المقدس تشير إلى عالمية الطوفان الذي غطى الأرض كلها، كما تشير إلى أن نوحاً قد جمع الحيوانات كلها من كل زوجين اثنين كما ورد في التوراة في سفر التكوين «مِنَ الطُّيُورِ كَأَجْنَاسِهَا، وَمِنَ الْبَهَائِمِ كَأَجْنَاسِهَا، وَمِنْ كُلِّ دَبَّابَاتِ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. اثْنَيْنِ مِنْ كُلٍّ تُدْخِلُ إِلَيْكَ لاسْتِبْقَائِهَا» وذلك كله في سفينة طولها ٣٠٠ ذراعٍ، وعرضها ٥٠ ذراعًا، وارتفاعها ٣٠ ذراعًا!!

إن قصة الطوفان الواردة في التوراة فيها من التناقضات العلمية ما يتوقف عنده القارئ العابر، بل ونجد حتى أن القصة نفسها تتناقض بعضها مع بعض في مواضع مختلفة، مثال ذلك لو لاحظنا النص التوراتي الذي أوردناه قبل قليل فيما يخص حمولة السفينة من الحيوانات بأن تكون «اثْنَيْنِ مِنْ كُلٍّ» نجد نصّاً توراتيّاً آخر في سفر التكوين يقول فيه: «مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ تَأْخُذُ مَعَكَ سَبْعَةً سَبْعَةً ذَكَرًا وَأُنْثَى»، رغم أن النص السابق كان العدد اثنين دون قيود الطهارة.

فتح موضوع الطوفان الباب على مصراعيه لاستقبال الخرافات والروايات التي لم يأتِ بها القرآن، لذلك نجد حتى في التراث الإسلامي الكثير من الروايات التي لا تتسق مع النص القرآني الذي هذّب هذه القصة وقدمها بشكل لائق،ونحن لا نشك في قدرة الله على شيء ولكننا لا نزيد على ما قاله الله لنا في كتابه الكريم، فالزيادة وقبول القصص غير المعقولة سيجعلان النص القرآني يعود إلى دائرة الشكوك التوراتية التي نزهه الله عنها، وعليه فإننا سنذكر كيف أورد القرآن قصة الطوفان مهذبة:

١- إن من يمعن في النص القرآني سيجد أن الطوفان لم يكن عالمياً كما يقول الكتاب المقدس، بل إن الطوفان كان خاصّاً بقوم نوح فقط، ويتضح ذلك من قول الله في أكثر من موضع، حيث نجد في سورة نوح أن الله ابتدأها بقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [نوح: ١-٢] وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥] وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٢٣] وقول الله عن نوح: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأنبياء: ٧٧] ومن الملاحظ أن جميع الآيات تشير إلى أن نوحاً كان نبيّاً مخصصاً لقوم مخصص وهذا ما يؤكد أن العقاب كان مخصصاً بإغراق هؤلاء القوم نظير ظلمهم وليس بإغراق الأرض كافة فيؤخذ الأبرياء بذنب هؤلاء المجرمين، ونلاحظ هنا قول الله عن قوم نوح: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧] فكما هو واضح أن الإغراق الجماعي كان عطفاً على قوم السوء فقط،كما أن المقصود بكلمة الأرض التي وردت في سياق قصة نوح كقول الله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] فالأرض هنا هي الأرض التي يسكنها قوم نوح وليست الأرض قاطبة، أي ما يعرف اصطلاحاً بـ (الأرض المعهودة) كقول الله عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾

[القصص: ٤] فالمقصود أنه علا في الأرض التي يحكمها وليس الأرض كلها وكذلك قول الله عن الغراب الذي أرسله ليعلم ابن آدم كيف يواري سوءة أخيه: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣١] ومن الواضح أن الغراب يبحث في الأرض المعنية بالحدث وليس الأرض كلها!وهذا ما نريد توضيحه في حادثة طوفان نوح، إن ذلك كله تهذيبٌ قرآني للقصة التوراتية التي تقول بأن الله أغرق جميع من في الأرض كلها، فالله لا يعذب حتى يبعث رسولاً، ونوحٌ كما أسلفنا بُعث إلى قومه خاصة، وهم المعنيون بالتعذيب فقط وليس سكّان الأرض قاطبة!

وهذا مصداقٌ للحديث المروي في الصحيحين أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (أعطيتُ خَمْساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ مِنَ الأنبياءِ قَبْلي) وذكر منها: (وكانَ النبي يُبعث إِلَى قَوْمِهِ خاصَّة وَبُعثتُ إِلَى النَّاسِ عَامّة)

٢- إن النص التوراتي يحكي عن أن نوح حمل جميع الحيوانات الموجودة حوله، الأنيسة والمتوحشة، الطاهرة والنجسة، من كل جنس اثنين اثنين، أو سبعة سبعة!، لا شك في أن القرآن يتفق مع مسألة أن نوح حمل معه الحيوانات: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠] ولكن التهذيب القرآني للقصة كان في توضيح أن نوحاً لم يحمل كل الحيوانات من كل جنس على الأرض، بل من يلاحظ في النصوص التي ورد فيها الأمر الرباني بحمل الحيوانات سيجد أنها جاءت بعد أن بدأ عقاب الله: ﴿حَتَّىٰٓ

إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠]

ومن غير الممكن أن يحمل نوح كل الحيوانات بعد أن جاء أمر الله في لمح البصر، وبما أن القرآن هو خير من يفسر نفسه، نجد في نص آخر أن الله قال: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [المؤمنون: ٢٧] والسلك لغويّاً هو ما يلج بسهولة بحيث يبقى منه جزءٌ في الخارج كقول الله عن يد موسى: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [القصص: ٣٢] وقوله عن المطر: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا ﴾ [الزمر: ٢١] فالسلك هو سهولة الإدخال والتمرير، وهذا ما يتماشى مع الأمر الرباني في أن يسلك نوح ما تيسر من الحيوانات التي سينتفع بها معه بعد وقوع أمر الله وبدء العقاب! فلو كانت كل الحيوانات بما فيها المتوحشة العسيرة هي من ستدخل السفينة فإن ذلك في اللغة ليس من السلك، لما يغلب عليه الشقاء في جمع وإدخال هذه الوحوش والكواسر بعد قدوم العذاب! لذلك نجد أن في قراءة حفص أنه قد قرأ ﴿كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [هود: ٤٠] بتنوين كلمة (كلٍّ) فيكون معنى ذلك: من كلِّ زوجين اثنين أي من الأزواج المتاحة والتي ستسلك مع نوح لينتفع بها، وليس من (كل) زوجين، فيكون المعنى عامّاً وشاملاً كل الأزواج في الأرض كما في النسخة التوراتية.

٣- إن عمر سيدنا نوح الذي ذكره الله في القرآن قد تجاوز الألف عام نظراً لأن عمر دعوته فقط كان يشير إلى هذه المدة كما ورد في قول الله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، وهذا فتح الباب لمزيدٍ من التدبر حول إمكانية أن يعيش إنسانٌ هذا العمر في السياق الطبيعي، لا شك أن الله سبحانه قادر على كل شيء، ولكننا كما ذكرنا نبحث في ضمن الآيات الربانية ونسعى خلف تدبرها، إن الواضح في القرآن الكريم أنه يحوي إعجازاً بلاغيّاً وبيانيّاً ليس له نظير،ومن أبرز العلوم القرآنية هو استجابة النص القرآني لمعالم العصر الذي يتحدث عنه، فنجد أنه في عصر إبراهيم عليه السلام قال: (بكة) بينما في عصر محمد عليه الصلاة والسلام قال: (مكة)، لأن الأولى تنحدر من اللغة الآرامية الدارجة في حقبة إبراهيم الخليل وكما ذكرتها التوراة بمسمى وادي البكاء Baca.

وكذلك في عهد موسى عليه السلام، نجد احتواء النص القرآني على كلماتٍ تعود إلى اللغة المصرية القديمة أو الهيروغليفية، مثل كلمة تابوت ويم وفرعون وهامان، على عكس عهد يوسف الصديق الذي يسبق عهد موسى والذي لم يذكر الله فيه كلمة (فرعون) لأن الأبحاث أكدت أن الهكسوس أي الملوك الرعاة هم من كانوا يحكمون مصر آنذاك،وهذا ما يؤكد صدق الوحي القرآني الذي أخذ على عاتقه هذا المعيار الزمني.

والأمثلة تطول على ذلك، ولكننا نود أن نذكر مثالاً يخص سيدنا نوحاً كونه محور حديثنا، تحديداً في قول الله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ [المؤمنون: ٢٧] إذ كنت في صغري أظن أن المقصود بالتنور هو المكان الذي يُصنع به الخبز، رغم أن هذا المعنى هو الصحيح حسب ما ينطبق عليه معيارنا الزمني، غير أن الأصل اللغوي لهذه الكلمة يعود إلى أصلها الآرامي والذي يُنطق (beyt nouro/ بيت النور) وقد ذكر ذلك العنيسي في كتابه (تفسير الألفاظ الدخيلة على اللغة العربية) إذ إن الكلمة في أصلها الآرامي (بإسقاط الباء والياء من كلمة beyt) ترجع أيضاً إلى أصلٍ اختلفوا في كونه سومريّاً فتنطق (tinur) أو أكاديّاً فتنطق (tinuru) وهذا ما يرجّح أن تكون قد تأثرت به اللغة الأرامية والعبرية فصارت كلمة (tannur) في قاموسها اللغوي، والكلمة في أصلها تعني (البركان) وهذا ما يعطي عذاب الله بعداً أكبر وأكثر رعباً، بأن تنفجر الأرض والسماء وتفور البراكين، ومما يؤكد أن منطقة قوم نوح التي وقع عليها العذاب كانت منطقة جبلية هو في قول ابن نوح: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ ﴾ [هود: ٤٣]، ولاحظ هنا قوله: إلى جبل! أي إن هنالك عدة جبال في إشارة إلى أن المنطقة جبلية وذلك يقرب إلى الأذهان قبول فكرة التعامل مع كلمة (تنور) بأصلها اللغوي القديم بأن يكون معنى الآية: (وفار البركان) ولا يتعارض ذلك مع فهمنا الحالي من أن التنور هو مكان صنع الخبز، لأن تسمية مصنع الخبز بالتنور الذي يتكون من فوهة تفور النار والحرارة منها قد يكون بإلهامٍ من شكل البراكين.

إن الهدف من ذكرنا لهذه المقدمة هو لتأكيد أن القرآن يعتد بالمعيار الزمني وهذا ما يجعلنا نتوقف عند العمر الذي ذكره الله عن سيدنا نوح، فحساب السنين والأعوام قد ذُكر في القرآن بأكثر من شكل، فقد جاء في القرآن ذكر السنة الشمسية (الحول) في الرضاعة والسنة الزراعية في قصة يوسف، والسنة المالية التي ذكرت في قصة موسى بالثماني الحجج، كما ذكر الله أن حساب السنة من عنده سبحانه يختلف عن حساب السنين التي نعدها كقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وهذا مما يشير إلى إمكانية أن تكون حسبة الزمن مختلفة في عهد نوح عن عهدنا، بل ونجد حتى أن حساب القرن لم يعتمد في كونه يمثل مئة عام إلا في القرون الوسطى، وهذا ما جعل العلماء المسلمين يختلفون في تفسير حديث رسول الله: (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم) فنجد أن الحسن قال: القرن عشر سنين، وقال قتادة القرن: سبعون، أما النخعي فقال: أربعون،وزرارة بن أبي أوفى قال: مائة وعشرون، أما عبد الملك بن عمير فقال: مائة،وقال ابن الأعرابي: هو الوقت، ويقول محمد بن أبي بكر الرازي في كتابه (مختار الصحاح): القرن ثمانون سنة، وقيل: ثلاثون سنة.

إن اختلاف الحسبة الزمنية من جيلٍ لجيل ومن حضارة لحضارة ومن تقويم لتقويم يؤكد أن ذلك أمر ممكن وجائز ولا خلاف عليه، فلو بحثنا في وقتنا الحالي سنجد أن هنالك حضارات ودولاً لها تاريخها الخاص الذي يخالف ما اتفق عليه العالمين، فالتقويم الأثيوبي مثلاً يضم ١٣ شهراً وهذا ما يجعل أثيوبيا اليوم تعيش في عام ٢٠٠٧ م.

بالعودة الآن إلى عمر سيدنا نوح الذي ورد في القرآن، نجد أن الباحث (كوندراتوف) قد ذكر في كتابه (الطوفان العظيم بين الواقع والأساطير) أمراً يستحق الوقوف عليه، حيث قال في حديثه عن ما اكتشفه العلماء من النقوش السومرية والتي تتحدث عن ترتيب الملوك السومريين ما يلي: «في وثيقة تعود لنهاية الألف الثالث قبل الميلاد وضع الكهنة قائمة للملوك السومريين الذين حكموا مدن الرافدين قبل الطوفان وبعده، يقدم هذا النص معطيات عن وجود خمس مدن في عصر ما قبل الطوفان حيث نزلت الملوكية من السماء وأسست تلك المدن وهي: أريدو حيث حكمها ملكان استمر حكمهما لمدة ٦٤٠٠٠ سنة!

ثم انتقلت الملوكية إلى مدينة باد - تبيرا

وحكمها ثلاثة ملوك لمدة ١٨٠٠٠٠ سنة.

وانتقلت فيما بعد إلى مدينة لرك وحكمها ملك واحد لمدة ٢٨٠٠٠ سنة.

ثم سبار حيث حكمها ملك واحد لمدة ٢١٠٠٠ سنة.

وأخيراً مدينة شوروباك التي حكمها ملك واحد لمدة ١٨٠٠٠ سنة.

وما نلاحظه هنا هو فترات حكم الملوك الخيالية والمبالغ فيها، أو ربما لا يمكن فهمها إلا ضمن مساقها السومري آنذاك».

وبالنظر إلى هذه الأعمار الخيالية للملوك الذين حكموا آنذاك (في فترة الطوفان) فإن ذلك يوحي بما لا شك فيه أن حساب السنين لديهم في ذلك

الوقت كان بشكلٍ مغاير لما نحن عليه الآن، ولعل الملك الذي حكم في ذلك التقويم لمدة ٦٤٠٠٠ سنة لا تتجاوز في تقويمنا الحالي عشرين عاماً!

نخلص من ذلك كله إلى أن القرآن يأخذ بالمعيار الزمني للعصر الذي يخاطبنا عنه والراجح أن الله خاطبنا بعمر سيدنا نوح طبقاً للتقويم الحسابي الذي كان متفشياً في بلاد الرافدين آنذاك كما أثبتت النقوش والوثائق، وفوق كل ذي علمٍ عليم.

٤- يجب أن لا نفهم من دعاء نوح وقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، أنه يدعو على الكافرين بالهلاك والموت، فكلمة (لا تذر) لا تعني بالضرورة أن لا يذرهم الله أحياء بل قد تعني أن يهديهم الله ويصلح حالهم فيذرهم مؤمنين ولا يذرهم على الكفر، نجد أن زكريا حين دعا ربه وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩] أن الله استجاب له ووهب له يحيى، وهنا دلالة على أن معنى ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي أصلح حالي وارزقني بذرية لا بمعنى أهلكني!

وأيضاً في سورة نوح نفسها حين قال قومه بعضهم لبعض: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] فلا يعني لا تذرن هنا أن لا تُبقوا هذه الآلهة بإهلاكها وتحطيمها! وإنما المقصود، لا تتخلوا عنها بالعبادة، فقول نوح إذاً: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، يكون بطلب عون الله له بأن يجعل هؤلاء

الكفار مؤمنين فلا يبقى منهم أحد على الكفر، وهذا يتسق مع موقف نوح حين أمره الله بأن يصنع الفلك لأن قومه سيُغْرقون نتيجة ظلمهم، إذ نلاحظ أن نوحاً طلب من ربه أن يعفو عن قومه ويمهلهم فكان جواب الله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧]، حيث لو كان نوح أراد لهم الموت لما طلب لهم العفو، وإنما أراد لهم الهداية التي كان يدعوهم لها، وهذا ما يجب أن يدعو به كل مسلم على غيره لو كان يريد لهم الخير فعلاً، نعم هي الهداية لا الهلاك!

ثانياً: إبراهيم وتحطيم الأصنام

لا شك أن الدين الإسلامي هو دين استسلام لله وسلام مع خلق الله، ونجد أن القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يحمل نصوصاً تكرس مفهوم احترام الديانات كقول الله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وغير ذلك كثير، غير أنه من المؤسف أن نجد من يسيء فهم هذه الدعوات الربانية إلى ضرورة احترام الآخرين، فيظن أنه يتقرب إلى الله بإيذاء الآخرين وإهانة مقدساتهم ومن ثم يبرر ذلك ويستشهد بحادثة سيدنا إبراهيم الخليل معتقداً أن تشابه الفعل هو نفسه تشابه الحالة والظروف! ولعلي أذكر مثالاً على ذلك ما فعله أحد المبتعثين السعوديين في اليابان مؤخراً، وذلك حين قام بتكسير تماثيل تعبر عن مقدسات الشعب الياباني

وديانتهم، فأخذ الإعلام العالمي يردد هذه الحالة وكأن الدين الإسلامي يباركها ويؤيد هذا الشاب على فعلته، دون أن يقول أي أحد من هؤلاء المتهزين إن القرآن الذي ذكر قصة سيدنا إبراهيم قد ذكر أيضاً قول الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فإذا كان الأمر الرباني هنا ينهانا عن السب والذي هو قولٌ فقط، فالأولى أن يكون موقفه من الاعتداء الفعلي أشد نهياً وتجريماً!

إن كل من يتطاول على مقدسات الآخرين فيهينها أو يحطم منها شيئاً أو يعتدي عليها فقد خالف المطالب الربانية كلها، وأما من يستشهد بقصة سيدنا إبراهيم فهو على خطأ، لأن قصة سيدنا إبراهيم يتخللها حيثيات وظروف لا تنطبق على أي حالة اعتداء وتطاول، وسنفصل هذه الحيثيات حسب النقاط التالية:

١- إن من يلاحظ في سيرة نبي الله إبراهيم سيجد أن الله فطره على الحق ووهب له قلباً سليماً، ولم يجعله من المشركين، فآيات القرآن التي تشير إلى أن إبراهيم كان يبحث عن ربه بفطرته قبل النبوة ويعرض عن عبادة الأصنام من تلقاء نفسه كثيرة، نذكر منها قول الله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٰٔفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٨]، فقد قال غير واحد من المفسرين

كما جاء في تفسير القرطبي والبغوي إن هذه الآيات كانت تخص رحلة إبراهيم في البحث عن ربه في حال طفولته وقبل قيام الحجة، مع بقاء الخلاف حول من قال بأن إبراهيم في هذه الآيات كان يحاجّ قومه،إلا أننا لا نرى مانعاً من الجمع بين الاثنين، كأن يكون إبراهيم محاجّاً لقومه في صحة بحثه عن الإله الحق!وكذلك قول الله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧]، في إشاره إلى أن إبراهيم كان يترقب تلك الهداية التي فُطر عليها عندما أعرض عن الأصنام، وعليه،فإن حادثة تحطيم إبراهيم عليه السلام للأصنام كانت خلال رحلة بحثه وثورته في صغره وقبل أن يبعثه الله، ومما يدل على ذلك ما قاله قومه حين وجدوا الأصنام محطمة: ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٩-٦٠]، فقولهم: (سمعنا فتى يذكرهم) يدل بشكل صريح أن إبراهيم عليه السلام كان في مرحلة الفتـوّة، والراجح أن الله سبحانه لم يبعث أنبياءه بالوحي إلا عند سن الأربعين كما ذكر ذلك الإمام ابن القيم في كتابه (زاد المعاد) حيث قال: «بعث الله النبي عليه الصلاة والسلام على رأس أربعين وهي سن الكمال. قيل: ولها تبعث الرسل، وأما ما يذكر عن المسيح أنه رفع إلى السماء وله ثلاث وثلاثون سنة فهذا لا يعرف له أثر متصل يجب المصير إليه» ورغم عدم وجود دليل

قاطع على كون سن الأربعين هو سن كل بعثات الأنبياء، إلا أن ذلك الأغلب كونه السن الذي يبلغ فيه الإنسان أشده: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥]، ولو حصل عكس ذلك كما جرى لعيسى بن مريم الذي نطق بالنبوة في المهد ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ [مريم: ٣٠]، ويحيى بن زكريا الذي آتاه الله الحكم في صباه ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ١٢]، فإن هذه استثناءات وضحها القرآن ولا تتعارض مع الأغلبية، والظاهر من هذا كله أن ما فعله إبراهيم عليه السلام كان نزعةً فطرية ولم يكن بوحي وأمر رباني، وهذا يتسق في مطلع القصة مع قول الله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]، أي أن ما فعله إبراهيم كان نتيجة لفطرته وعقله ورشده.

لذلك خلت القصة في الموضعين اللذين ذكرت بهما في سورة الأنبياء والصافات من أي أمر إلهي مباشر يأمر الله فيه إبراهيم بتحطيم الأصنام.

٢- إن ما فعله إبراهيم عليه السلام كان مع قومه الذين ينتمي لهم: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، وهذا ما حفّز إبراهيم لمحاولة إصلاح قومه بدافع الانتماء إليهم، فلا يصح أن يستشهد أحدهم بهذه الحادثة كذريعة للاعتداء على غيره من الأقوام والشعوب وأصحاب الديانات

الأخرى الذين لا ينتمي لهم، لذلك نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يفعل أي شيء من ذلك مع الأقوام الأخرى رغم كفرها، بل أخذ يدعوهم ويجادلهم بالحسنى، ونذكر مثال ذلك حواره مع الملك النمرود - الذي ادعى الألوهية - حيث لم يخرج الحوار عن دائرة الأدب وأخلاق المناظرات كما جاء في سورة البقرة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٣- إن قوم إبراهيم كانوا في حالة تذبذب وشكوك من دينهم وبعضهم قد تأثر بفطرة إبراهيم فعرف عن وجود حقيقة أخرى تنافي عبادة الأصنام، نلاحظ مثلاً حين سأل إبراهيم قومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، كان ردهم: ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٣]، بينما لو كانوا يدينون لها بشكل مطلق لكان جوابهم (هذه آلهتنا)! فأنا لا أتصور أن أسأل بوذيّاً وأقول له: (ماهذا التمثال الذي أنت عاكف عنده) فيقول لي (هكذا وجدت أبي!) بل سيقول: (هذا ربي) لأنه يؤمن به حقّاً ويمثل رمزاً مقدساً له.

الأمر الآخر هو حين قال لهم إبراهيم: ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء: ٥٤]، فهنا نجد أن رد قوم إبراهيم كان عجيباً: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٥]، وما أقصده بالعجيب هو أن قومه كانوا يستبشرون ويترقبون أن يأتيهم أحدٌ (بالحق) إيماناً منهم بوجود إله آخر أحق من هذه التماثيل، بينما لو كانوا يدينون بها ويقدسونها

لكان ردهم على إبراهيم (بل أنت الذي في ضلال مبين) وهذا مما يوحي بأن إبراهيم أراد بفعلته تلك أن ينقذ قومه من عبادة الباطل وأن ينقلهم إلى اليقين بدلاً من الشك، وأن يؤكد لهم أنه قد جاءه الحق بالفعل وأنه ليس من اللاعبين، أما معاقبتهم له بالتحريق في النار فهي في سبيل ردع ما يرونه تمرداً على قوانين القوم وآلهة القوم بغض النظر عن قربهم الديني من هذه الآلهة، وبذلك، لا ينطبق تحطيم المقدسات على من يدين ويقدس يقيناً معتقداته وقناعاته، فإن ذلك من الاعتداء الذي نهانا الله عنه، وتبقى لغة الحوار هي الأرقى دائماً وهي المطلب الرباني الأكيد ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]،.

ثالثاً: لوط وبنات لوط

إن الصورة السيئة التي صورها الكتاب المقدس لليهود والنصارى عن بنات لوط كان لها الأثر في تشويه صورة لوط عليه السلام وتعامله مع بناته وإثارة الشبهات من قبل الملاحدة واللادينين للقدح في طهارة لوط وبنات لوط.

في البدء يجب أن نتوقف عند ما يذكره الكتاب المقدس في القصة التي وردت في سفر التكوين الإصحاح رقم (١٩) وأنا أعتذر عن اقتباس النص لبشاعته!حيث تحدث النص عن بنات لوط وقيامهن بالاضطجاع مع أبيهن وهو تحت تأثير المسكر بعد أن أشربوه الخمر مما أدى إلى حملهن منه فأنجبت الابنة البكر من أبيها ولداً اسمته موآب وهو جد الموآبيين إلى

اليوم (أرض موآب هي الأردن) وأنجبت الأخرى أبناً واسمته بن عمي وهو جد بني عمون إلى اليوم (أي المملكة العمونية التي ظهرت مابين الأردن وفلسطين وسوريا وإليها تُنسب العاصمة الأردنية عمّان).

ولا شك أن الإساءة إلى الأنبياء الطاهرين بمثل هذه النصوص تقف خلفها مزاعم يهودية تخص قضية (أرض الميعاد) التي يصبون إليها في محاولة منهم لإحكام قبضتهم التاريخية على خارطة العالم العربي وتأصيل وجودهم عليها وأحقيتهم بها، وسنقوم بتحليل هذا الجانب في فصل لاحق لنوضح البعد السياسي الذي يرمي إليه كتبة التوراة ورغبتهم في التحكم بالشعوب الأخرى التي يريدون أن يوهموا الشعوب العربية أنهم ينحدرون من سلالتهم، غير أن موضوعنا الحالي هو في الحديث عن طهارة لوط وبنات لوط التي أشار إليها القرآن الكريم، لأن من تأثر من الملاحدة بالنصوص المحرفة في حق النبي الكريم لوط، أخذ يردد شبهة أن لوط قدم بناته لقومه من أجل ممارسة البغاء عوضاً عن ضيوفه حسب فهمهم للنص القرآني الذي يقول: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١]، والنص الذي يقول: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾ [هود: ٧٨]، ومن المؤسف أن يكون من يصطاد في الماء العكر ضيق الأفق إلى درجة انتقاء النصوص واقتطاع ما يناسبه منها دون مراعاة القصص القرآني كاملاً والذي ورد في أكثر من موضع لتبيان ذلك، ومن أجل أن نوضح هذا الأمر يجب أن نراعي الأمور التالية عند سماعنا لقصة لوط:

١- يقول الله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقد قال قتادة في أثرٍ حسن رواه الطبري تفسيراً لهذه الآية: (شرعةً ومنهاجاً أي سبيلاً وسُنّة. والسنن مختلفة: للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يحلُّ الله فيها ما يشاء، ويحرِّم ما يشاء بلاءً، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه. ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره: التوحيدُ والإخلاصُ لله، الذي جاءت به الرسل) وهذا مما قد يشكل على البعض حين يظن أن شريعة لوط آنذاك ينطوي عليها في شأن النكاح مثل ما ينطوي على شريعة عيسى ومحمد! لا شك أن النكاح الحديث بوجود عقد نكاح وشهود وصَداق ورضا للطرفين ليس إلا تشريعاً جديداً في عمر التاريخ، بل إن أول عقد نكاح حصل عليه العلماء هو عقد يعود للحضارة الفرعونية - وبصرف النظر عن كون الشريعة الفرعونية تبيح زواج الإخوة- إلا أنه مما يؤكد أن لكل قوم شريعة تخصهم!

إن النكاح في عهد إبراهيم الخليل وابن أخيه لوط عليهما السلام كان بأن يأخذ الرجل الفتاة فيعرف الناس أنها وُهبت له وأنها صارت زوجةً له، ومنهم من قال إن مقياس الزواج آنذاك يكون بأن يضطجع الرجل مع الفتاة فيُعرف عنها بأنها ضجيعته أو زوجته فلا يمسها أحد ويستشهدون على ذلك بالقصة التي حصلت بين (بوعز) واضطجاعه مع (راعوث) والتي وردت في سفر راعوث في الكتاب المقدس.

إن من يلمز بأن لوطاً قد عرض بناته على قومه بغير هدف الزواج هو يخلط بالضرورة بين شروط النكاح في العقائد الجديدة التي يعيشها في زمانه وبين الشريعة السائدة في تلك الحقبة، وهو مثل من يظن أن كلمة (السيارة) التي وردت في سورة يوسف بمعنى المركبة الحديثة التي نقودها اليوم لأنه ينظر للعصور البائدة بعيون عصرنا.

٢- إن خوف لوط من سوء السمعة والفضيحة والخزي والعار تكرر كثيراً على لسانه في القرآن، فنجد قول الله: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾ [الحجر: ٦٨-٦٩]، وأيضاً: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، حيث يستحيل أن يكون الشخص الذي يخاف على سمعته من الفضيحة والخزي حتى على (ضيوفه) أن يُقدم على فعل ما سيجلب له قدراً أكبر من الخزي والفضيحة بأن يكون ذلك على (أهل بيته)! وهذا مما يعزز أن ما فعله لوط ليس كما يظنه البعض، بل هو فعلٌ شرعي آنذاك بنية تطهير قومه من فعلتهم: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾!

٣- لا شك أن النص القرآني ذكر أن قوم لوط احتشدوا على بابه بأعدادٍ كبيرة بهدف الاعتداء جنسيّاً على ضيوف لوط - والذين كانوا من الملائكة ولكن قومه يجهلون ذلك - غير أن احتشادهم قد يدفع أحدنا للتساؤل فيقول: إن كان لوط قد قدّم ابنتيه (ريثا وذعرتا) بنية الزواج فكيف يتزوج جماعةٌ كاملة من ابنتين فقط؟

فنقول: إن المقصود هنا أن لوطاً عليه السلام أراد تزويج اثنين من كبار قومه ببنتيه فيتأسى بقية القوم بهذا الفعل ويتأثرون بالفطرة السليمة، هذا مع بقاء أصل الخلاف حول أن لوطاً يعني بقوله: (هؤلاء بناتي) أي بنات قومه الذين بُعث إليهم جميعاً وليس مجرد بنات صُلبه، مثل أي نبي يكون أولاد وبنات قومه في مقام أولاده وبناته، غير أن التفسير الأول هو الراجح لدينا من واقع مقارنات في كتب الأديان وبعض المرويات التاريخية.

***

وبمناسبة الحديث عن لوط، سأقوم بالتعريج على موضوع آخر. فقد أرسل لي أحد الأصدقاء قبل فترة دراسة نُشرت على موقع BBC تؤكد أن الشذوذ قد يكون لأسباب جينية وراثية لا دخل للإنسان فيها! فأخذ يسألني عن موقف الدين تجاه هذه الحالات، وكيف يتوعد الله شخصاً لم يختر لنفسه هذا المصير؟ هل حين يخلق الله أحدهم مجنوناً سيعاقبه على ترك الصلاة؟ الجواب بالتأكيد لا لأن القلم مرفوعٌ عنه، فلماذا إذاً يُعاقب اللوطي على ميوله الذي لم يختاره؟ بل ويهتز له عرش الرحمن!؟[1]

١- للاطلاع على الدراسة أنظر http://www. bbc. com/news/magazine-26089486?ocid=socialflow_twitter

في البداية وحتى نجيب على هذه التساؤلات لا بد أن نأخذ في الإعتبار النقاط التالية:

١- يعزّ علينا أننا ما زلنا نسمي اللواط نسبةً إلى نبي الله لوط عليه السلام، حتى جعل ذلك الناس تنفر من تسمية ابنائها على اسم هذا النبي الكريم بعد أن تم تشويه اسمه، فالأصح والأسلم أن نتجنب تسمية اللواط بهذا الاسم وأن نطلق عليه إما الشذوذ الجنسي أو المثلية الجنسية، وعسى أن يعينني ربي لأكون أولكم.

٢- يجب أن نعلم بأن جميع أحاديث (اهتزاز عرش الرحمن) ضعيفة ولا تصح! فاستواء الله على عرشه لن يهتز من أجل رجلين مارسا الجنس بعضهما مع بعض! تعالى الله عن ذلك.

٣- من المهم أن لا نعاند العِلم فيما تم اثباته، فالعِلم اليوم يؤكد أن أحد أنواع الشذوذ يعود لأسبابٍ جينية وراثية لا دخل للإنسان فيها ولا يستطيع أن يتحكم بنفسه! وقد تحدث عن ذلك حتى في قديم الزمان الطبيب النفسي (سيغموند فرويد) في كتابه (ثلاثة مباحث في نظرية الجنس) عن أن الشذوذ الجنسي ينقسم إلى ثلاثة أنواع:

أ- **النوع الأول** هو الشذوذ العارض وهو الذي يكتسبه الشخص نتيجةً لظروف معينة كأن يوضع في السجن أو في البحرية برفقة رجالٍ آخرين لمدةٍ طويلة فيبدأ بالميل إلى ممارسة الجنس مع أمثاله.

ب- **النوع الثاني** وهو الشذوذ المزدوج (ثنائي الجنس/ bisexual) وهو النوع الذي يمنح صاحبه القدرة على ممارسة الجنس مع الذكر والأنثى على سواء.

جـ- **النوع الثالث** وهو الشذوذ المُطلق، وهذا هو محور حديثنا، حيث أن الشذوذ المُطلق هو حالة جينية وراثية يجد الإنسان نفسه عليها منذ أن يرى النور، وهذه الحالة تحتاج للعلاج والاحتواء أكثر من غيرها، وللأسف الكثير من الذين يعانون من الشذوذ المطلق يتم إرهابهم وتهديدهم بالنار وبعذاب الله بدلاً عن احتوائهم والمحاولة في معالجتهم، فينشأ لدى هذه الفئة الشعور بالظلم وربما يقودها ذلك إلى الكفر أو الإلحاد! وهذا نتيجة طبيعية من جرّاء التعنيف الذي يتعرضون له وتشبيههم الدائم بقوم لوط بدلاً عن الوقوف إلى جانبهم! نحن لا نقصد بالوقوف إلى جانبهم بالسماح لهم بممارسة الشذوذ! تماماً مثل الإنسان الطبيعي الذي لن نسمح له بممارسة الزنا! ولكننا نقصد بالوقوف معهم هو في تفهّم أن هذه الحالة قاهرة فلا يتم التعامل مع أصحابها على أنهم يملكون خيار أنفسهم في حين أنهم بحاجة إلى من يحتويهم ويساهم في معالجتهم، حتى لو تطلب ذلك معالجتهم جينياً!

٤- إن ما ثبت عن قوم لوط في نص القرآن أنهم كانوا (مزدوجي الجنس) ولم يكونوا من أصحاب (الشذوذ المطلق أو الجيني

الوراثي)، والدليل على ذلك هو ماقاله لوط في القرآن الكريم ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وقول لوط هنا (ما سبقكم بها من أحد) يدل قطعاً على أن الشذوذ الذي مارسه قومه لم يكن وراثياً جينياً وإنما كان من أشكال الترف الجنسي الذي تفشى قديماً في أكثر من حضارة، فالتاريخ يذكر لنا تفشي الشذوذ الجنسي عند الإغريق وكذلك في شرق أوروبا ومصر القديمة، بل وحتى لدى بعض العصور الإسلامية كالدولة العباسية التي انغمس الكثير من رجالاتها في منادمة الغلمان، إن ما ذكرناه هنا هو بهدف تبيان أن قوم لوط كانوا يملكون خيار أنفسهم ولكنهم أرادوا من شدة فسقهم أن ينحرفوا حتى بممارستهم الجنسية.

٥- إن من الدلائل الأخرى على أن قوم لوط كانوا يملكون خيار أنفسهم هو ما فعله لوط في عرضه لبناته عليهم من أجل الزواج، فلا يمكن أن يفعل ذلك هدراً للوقت وإنما لمعرفته بطريقة إصلاح الحال! كذلك لا يرسل الله نبياً من أجل الدعوة والإصلاح إلا ويكون القوم الذين بُعث إليهم هذا النبي مخيّرين في أمرهم، فلا يصح أن يدعوهم لوط للعدول عن شذوذهم لو لم يكن لديهم خيار العدول عن ذلك، فهذا مما يؤكد أيضاً أنهم كانوا مزدوجي الجنس ويملكون خيار أنفسهم ولكنهم لا يريدون ذلك، على عكس من يولد وقد ابتلاه الله بالخلل الجيني الوراثي، فهو

لا يملك أي خيار على ميوله الجنسي، بل هو مُكره عليه، فلا يصح أن يؤخذ من ابتلاهم الله بالشذوذ الوراثي بجريرة هؤلاء المترفين، فنجعلهم سواءً في استحقاق الوعيد والعذاب والطرد من رحمة الله! بينما قد يرحم الله من ابتلاهم برحمته على عكس ما يظن الجميع!

رابعاً: موسى والخضر وقتل الغلام:

إن قصة مقتل الغلام على يد الخضر عليه السلام والتي وردت في سورة الكهف، كانت من أكثر القصص التي علقت في ذهني أيام صغري، حتى أنني أطلت التساؤل حولها مع المعلمين أيام المدرسة مروراً بالجامعة، ودائماً ما كنت أسألهم فأقول: (كيف يُقتل الغلام بحجة أنه لو كبر وتقدم في العمر فسيكون كافراً وسيرهق أبويه؟ هل يأمر الله بقتل إنسان في مقابل ذنب لم يرتكبه بعد؟ هل يأمر الله بقتل غلام صغير غير مكلف أصلاً؟!) وللأسف كانت الإجابات آنذاك (نعم، وهذا لحكمة يعلمها الله)!

ونظراً لكثرة التساؤلات حول هذه الشبهة من قبل المسلمين، واستغلال غير المسلمين لها في مهاجمة الإسلام كونها في ظاهرها تعارض الفطرة الإنسانية، فقد دفعني ذلك أن أنبذ اليأس في البحث والتنقيب عن أسرار هذه الحادثة وما يمكن أن يكون تبريراً لما فعله الخضر، وبعد ذلك، ألهمتني بعض التفاصيل الدقيقة في هذه القصة التي حدثت بين موسى والخضر! فجميعنا نعرف في سورة الكهف التي يقرؤها معظمنا في كل

يوم جمعة بأن موسى هو من طلب من الخضر أن يعلمه مما علمه الله: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، فكان جواب الخضر أن أخبر موسى أنه لن يستطيع الصبر على ذلك، ثم ما أن أبدى موسى استعداده للصبر، حتى طلب منه الخضر طلباً غريباً فقال له: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]، إذ إن نسبةً كبيرة من الناس يجهلون أسباب الحكمة التي جعلت الخضر يطلب من موسى أن يلتزم الصمت والصبر أمام ما سيفعله من أحداث، بل وكان الخضر يوبخ موسى في كل مرة فيقول له: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]، حيث يظن بعض الناس أن الحكمة هي بهدف التشويق إلى ما سيكتشفه موسى من أفعال الخضر مرة تلو الأخرى وأن أحداث القصة انتهت عند معرفة موسى لتأويل تلك الأمور التي لم يصبر عليها! غير أن ذلك ليس بصحيح، وأننا لو تتبعنا الحكمة التي جعلت الخضر يشرط على موسى التزام الصمت والصبر ربما يحل ذلك لنا شبهة الغلام، خصوصاً أن الخضر وضح في نهاية القصة أنه عندما أمر موسى بالصمت والصبر لم يكن من عنده بل كان بوحي رباني: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢]، وهذا مما يوحي بأن المسألة يقف خلفها تدبيرٌ وحكمةٌ ربانية تلزمنا بأن نسعى لمباحثتها! ولكن قبل أن نفعل ذلك سنوضح بعض النقاط والتي لها علاقة في قضية مقتل الطفل ثم سنعود للحكمة:

١- إننا نعلم يقيناً وكما ورد في سورة الكهف أن الخضر قام بفعل

ثلاثة أمور (خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار) ولا نشك في أن مقصده من وراء خرق السفينة وإقامة الجدار هو مقصدُ خير كما تبين في نهاية القصة، غير أن الإشكالية هي في قصة قتل الغلام كونه لم يُقنع بعض الناس في تبريره عن الأسباب التي تقف خلف عملية القتل، ولكننا نقول هنا إن فعلين من أصل ثلاثة أفعال قام بها الخضر تبين أن الهدف من ورائها نبيلٌ جدّاً وهما خرق السفينة وإقامة الجدار، وبما أن الغالبية غالبة، فإن ذلك ما سيدفعنا للبحث عن أين يكمن الخير في الفعل الثالث، ألا وهو قتل الغلام!

٢- لا يقتصر معنى كلمة (غلام) على المعنى الشهير لها وهو الطفل الصغير، بل إن للكلمة معاني أخرى، وقد وردت في القرآن حتى بمعنى الرجل مجازيّاً كقول الله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]، غير أن الكلمة في أصلها اللغوي وكما أورد ذلك ابن منظور في لسان العرب تشمل معاني أخرى وكثيرة أيضاً، منها أن يكون معنى الغلام هو الخادم أو الأجير كما قال الله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤]، كذلك ما ورد في الحديث الصحيح: (يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك) ولا يشترط للغلام الأجير هنا أن يكون في سن الطفولة بل ويشمل سن الغلمة والبلوغ، ومن معاني الغلام أيضاً هو الهيجان ويشمل ذلك الهيجان الجنسي كما ورد في الحديث الحسن: (خير

نسائكم العفيفة الغلمة، عفيفة في فرجها، غلمة على زوجها) والمرأة الغلمة هنا هي الهائجة في شهوتها مع بعلها، ومن مظاهر استخدام الغلمة في معنى الهيجان ما ورد في حديث تميم الداري والجساسة حين قال: (ركبنا في سفينةٍ بحريةٍ. فصادفْنا البحرَ حين اغتلمَ . فلعب بنا المَوجُ شهرًا) واغتلم أي هاج البحر علينا، غير أن هذه المعاني كلها لا تهمنا حاليًا، لأننا نزعم - بإذن الله- أن معنى الغلام المقصود بالآية القرآنية في سورة الكهف هو ما ذكره الكسائي من أن أحد معاني الغلام «هو من تجاوز الحد! حيث ذكر أن الغلمة والاغتلام هو أن يتجاوز الإنسان حد ما أمر به من الخير والمباح أي الذين جاوزوا الحد، وقد ورد في حديث لعلي بن أبي طالب أنه قال: تجهزوا لقتال المارقين المغتلمين أي الذين تجاوزوا حد ما أمروا به من الدين وطاعة الإمام وبغوا عليه وطغوا».[1]

٣- مما يوحي بأن كلمة غلام في قصة الخضر لم تكن بمعنى صغير السن وإنما بمعنى من تجاوز حدوده وطغى أيًا كان عمره، هو ردة فعل موسى عليه السلام حين قام الخضر بقتل هذا الغلام حيث قال موسى: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]، فلو كان الغلام طفلاً غير مكلف وغير قوي لما قال موسى (بغير نفس) في إشارة إلى أن هذا الغلام مكلف ومهيأ

---

١ - انظر: لسان العرب ابن منظور، حرف الغين/ غلم.

لأن يرتكب جريمة قتل، وأنه لو ارتكب جريمة قتل لصح قتله، والحد لا يُطبق إلا على المكلفين، وهذا ما جعل موسى يعترض بحجة أن الغلام لم يقتل نفسًا حتى يتم قتله ولم يكن اعتراض موسى بأن المقتول كان ولداً صغيراً!.

٤- إن الغلام في قصة الخضر لم يُقتل من أجل كفره كما يظن الكثير، بل إن الخضر وضح السبب قائلاً: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠]، إذ كما هو ملحوظ أن السبب كان الطغيان قبل الكفر، والطغيان أو الرجل الطاغي في اللغة هو من جاوز القدر وارتفع وغلا في الشر، وغالباً يكون الطغيان في تجاوز الحد بالتعدي حتى على أرواح الآخرين وهو ما يستدعي ردع الطاغية وإيقافه عند حده، لذلك أرسل الله موسى وهارون لفرعون عندما طغى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣]، وقد وضح الله كيفية طغيان فرعون في قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٤]، كما نجد أن الله قد أهلك ثمود عندما جاوزوا حدهم وطغوا في كفرهم وتعدوا على الآخرين: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥]، أي بطغيانهم.

٥- إن ما يثبت أن الغلام كان طاغية عند قتله وليس كما نظن من أنه قُتل لأنه سيكفر إذا كبر هو في قول الخضر: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا

رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١]، فقوله: (خيراً منه) وقوله: (وأقرب رحمًا) يدلان على أن الوضع الآني للغلام هو (الشر) و(البعد عن الرحم) مما يوحي بأن الطغيان وتجاوز الحد قد وقع بالفعل، والله لا يجازي كل نفسٍ إلا بما كسبت﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [غافر: ١٧].

نخلص من النقاط التي ذكرناها أعلاه إلى أن الغلام كان كبيراً في السن ومكلفاً وإنما معنى الغلام هنا هو من تجاوز الحدود فاستحق أن يُطبق عليه الحد، وما يؤكد صحة هذا المعنى هنا هو أن الله اقتص منه بذنب طغيانه وليس كفره وحده، لما يغلب على الطغيان في اللغة من التجاوز والاعتداء على أرواح الآخرين، وآخر ذلك هو أن الغلام كان في خضم طغيانه وليس أنه سيفعل ذلك في المستقبل!

***

بالعودة الآن إلى تقصّي الحكمة من وراء طلب الخضر من موسى التزام الصبر والصمت حتى ينتهي من جولته التعليمية، هو سببٌ يتعلق بشخصية موسى نفسها! فجميعنا نعرف بأن موسى عندما كان في البلاط الفرعوني قد قتل نفساً بالخطأ: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [القصص: ١٥] ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ [طه: ٤٠] وعلى الرغم من ندمه ومن أن الله قد غفر له ذنبه، إلا أن شخصية في مثل مقام موسى جاء ذكرها في القرآن لأكثر من ١٣٦ مرة إلى جانب الضمائر التي تشير إليه، فهو أمام العيون في سيرته ومحط قدوة للمؤمنين ومع ذلك هو

قاتل! وهذا قد يكون ذريعة للمتطرفين بأن يقوموا باسترخاص أنفس البشر فيقتلون منها ما يقتلون ثم يقولون: (موسى الذي كاد يذهب بثلث القرآن قتل نفساً)! وهذا طبيعي، لأن الإنسان في طبيعته يحب الإسقاطات، أتذكر حين كنا أطفالاً صغاراً، كان أحدنا يطيل شعره وإذا أمرته إدارة المدرسة بحلاقته قال: (ولكن الرسول محمداً عليه الصلاة والسلام كان يطيل شعره!).. ورغم أننا نعرف بأن فعلنا الاستعراضي لا علاقة له بالنبي لا من قريب ولا بعيد، إلا أن الفرد منا يريد أن يبحث عن قدوة تخدم رغبته في تبرير هذا الفعل، وفي الوقت نفسه تُخرس الخصوم! وليس أمام المعترضين أمثلةً ترتعد لها فرائصهم غير الأنبياء!

ولك أن تتخيل ماذا سيفعل من يبحث عن قدوة تُخرس خصومه في حال قتل نفساً! سيقول: (موسى قتل نفساً أيضاً)! بل إنه حتى فرعون الطاغية قاتل الأطفال أخذ يسخر من موسى ويلمز في حادثة قتله نفساً حين قال له: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩].

لذلك، كان من حكمة الله بعد أن بعث موسى نبيّاً بالحق، أن أجرى له هذا الاختبار على يد الخضر وأمره بأن يلتزم الصمتُ والصبر أمام ما سيراه من مناظر كان موسى يفعلها إبان عيشه في البلاط الملكي الفرعوني، وذلك من أجل أن يسجل موسى موقفاً استنكاريّاً منها في القرآن، فيمحو به كل ماضيه في خلال هذه الدورة التطهيرية.

وحتى يؤكد الله لنا نحن المؤمنين أن موقف قدوتنا موسى قد تغير ولن يبرر لأي أحد أن يسلب أو يقتل باسمه، وأن الروح عند النبي موسى صارت مقدسة، فرغم أنه عاهد الخضر أن يصبر ويصمت: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ [الكهف: ٦٩] إلا أنه لم يستطع أن يصبر ويصمت أمام المشهد الأول حين خرق الخضر السفينة،ففكر موسى بهذه الأرواح والأنفس البشرية البريئة فنطق من صمته قائلاً: ﴿أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا إِمۡرٗا﴾ [الكهف: ٧١] فعاتبه الخضر هنا قائلاً: ﴿أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ [الكهف: ٧٢].. نعم فموسى النبي لم يعد يصبر على الظلم، لم يعد يصبر على إزهاق أرواح الناس أو العبث في ممتلكاتهم كما تربى صغيراً في كنف الطاغية فرعون، وبذلك سجل موسى أول استنكار هنا يبين فيه عِظم اهتمامه بالنفس البشرية، فعاد وعاهد الخضر بأن لا ينطق مرة أخرى وقال: ﴿لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾ [الكهف: ٧٣]، فانطلقا بعد ذلك إلى مشهد الغلام، فقام الخضر بقتله أمام موسى، فلم يستطع موسى أن يكتم أنفاسه رغم العهد الذي أعطاه للخضر بأنه سيصبر ويصمت، موسى الآن نبي، موسى الآن يجل ويقدر النفس البشرية التي نفخ الله فيها من روحه، موسى يرى أمامه إنساناً يُقتل بدون سبب فيعترض قائلاً: ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسَۢا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾ [الكهف: ٧٤]، وهنا تحديداً عندما قال موسى: ﴿شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾..

فقد أنكر جريمة القتل ضد النفس البريئة كما كان يبدو له، لأنه يجهل الأسباب الخفية خلف قتل الغلام، فهو لا يعلم بأنه طاغية وبأن الخضر قد طبق عليه الحد الذي يستحقه، ولكن العملية جرت أمام موسى دون علمه ليسجل هذا الاستنكار من القتل، فيعرف الجميع من هو موسى، وما هو موقفه من النفس البشرية الزكية، فلا يتخذ أحدٌ ما فعله في ماضيه ذريعةً للتعدي أو القتل.

الآن، بإمكاننا أن نقول لكل من كان يظن أن في قصة قتل الغلام إرخاصاً للنفس البشرية بأنه على خطأ، بل في هذه القصة تعظيمٌ للنفس البشرية، وإنكار لقتلها بغير حق، وهذا ما جعل موسى كليم الله، يعترض ويتحدث رغم عهده بالصمت،فروحك يا أيها الإنسان،لم يستطع موسى على إزهاقها صبراً.

خامساً: موسى وسرجون الأكادي:

كما ذكرنا سابقاً في حديثنا عن تشابه بعض قصص الحضارات مع القصص التي جاءت في الكتب السماوية، وكيف أن ذلك كان بوابة للملاحدة واللادينين للقدح في مصداقية القرآن على أنه ذو مصدرٍ وثني، رغم أنه كما أسلفنا لا يستطيع أحدهم أن يأتي بدليل قاطع يؤكد ذلك كون هذه المرويات في هذه النقوش وتراث الحضارات ليس لها ما يؤكد كونها حدثت قبل قصص الأنبياء، بل إن معظمها لم يُكتب أو يُنقش إلا بعد التواريخ التي كُتبت بها الكتب المقدسة.

إن مجرد وجود تشابه عارض بين القصة الوثنية والقصة الدينية ليس دليلاً على أن الأولى هي مصدر الثانية، لأن من يفعل ذلك يغض بصره عنوةً عن الأمور الأخرى الكثيرة والتي لا تتشابه.

إننا نخص هذه الجزئية في الرد على أعظم قصة يتشدق بها أعداء الأديان لإثبات أن الأديان سرقت القصة -دون دليل سوى التشابه- وأن هذه القصص الدينية ليست إلا من تأليف البشر، ونحن نعني هنا التشابه بين قصة الملك سرجون الأكادي وموسى عليه السلام، ولك أن تتخيل وفقاً لما سنثبته أن هذه الشبهة التي عظّمها البعض لا تشبه قصة موسى إلا في أمرٍ واحد فقط،وهو تشابه ظروف ميلاد سرجون الأكادي وميلاد موسى، تحديداً عندما قذفت أم كل واحدٍ منهما ابنها في تابوت أو زنبيل ومن ثم قذفته في البحر خشية قتله! وعلى الرغم من أن هذه قصة دارجة وما زال الكثير يستخدمونها في رواياتهم كما فعل الفيلسوف المسلم ابن طفيل في روايته الشهيرة (حي بن يقظان) بأن جعل أم (حي) تضعه في تابوت وتقذف به في البحر ليرسو الابن في جزيرة وتربيه الحيوانات بعد ذلك حتى يكتشف الله بفطرته، وغيرها من القصص الشعبية والسينمائية، إلا أننا سنرى بعد استعراض النقاط التالية كيف أن بعض الملاحدة واللادينين يقتاتون على التشنيع!

١- تروي النقوش السومرية قصة الملك سرجون الأكادي والتي يُعتقد أنها كُتبت في القرن الثامن قبل الميلاد كما يلي:

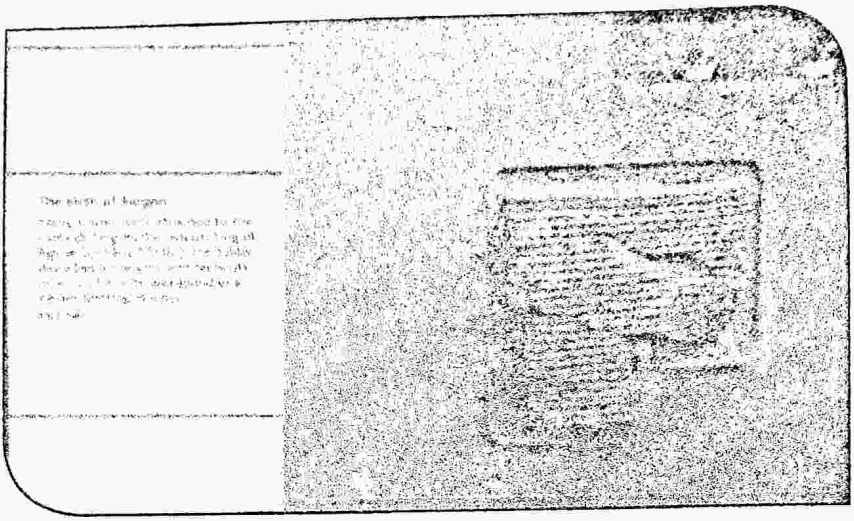

(أنا سارجون، ملك الأكاديين، ملك القوة
أمي قدّيشة، لم أعرف أبي
أعمامي أحبوا التلال
مدينتي أزوبيرانو، الواقعة على ضفاف الفرات
أمي القدّيشة حملت بي، وولدتني في السر
وضعتني في سلة وغطت عينيّ بالقار
وألقتني في النهر
التقطني «عكي» من النهر وهو يتناول إبريقه
اتخذني «عكي» ابنًا له ورباني
عينني بستانيًّا لحديقته
وأنا بستاني، أحبتني عشتار
ومضت الأيام إلى أن صرت ملكًا).

إن الاطلاع على هذا النص فقط كفيل جداً بأن يُظهر حجم الفروقات بين قصة سرجون الأكادي وقصة موسى، فالواضح هنا أن (قديشة) هو لقب الكاهنات في المعابد الوثنية التي تهب نفسها للزنى من أجل الآلهة ويكون الدخل للمعبد، إذاً أم سرجون الأكادي زانية وليست طاهرة مثل أم موسى، وكون سرجون ابن زنى ومجهول الأب فإن ذلك كان السبب الرئيس للتخلص منه أما سبب ما فعلته أم موسى فقد كان لحماية ابنها من القتل طبقاً للأمر الذي صدر من فرعون بقتل الذكور.

تقول النقوش أيضاً إن أم سرجون غطت عينيه بالقار وهذا لم يحدث مع النبي موسى، كما أن من حمل سرجون من النهر كان (عكي) أو ما يسمى بالسقّاء على عكس قصة موسى والذي وجدته الملكة!

ونلاحظ أيضاً أن أم سرجون لم تعد تعلم شيئاً عن ابنها ولم يعد إليها،أما في قصة موسى فأخته كانت تتابعه وهي من دلتهم على من يرضعه ويكفله ليعيده الله بعد ذلك لأمه الحقيقية كي تقر عينها ولا تحزن، وبذلك صار موسى ابناً بالتبني لفرعون وقد تربى في البلاط الملكي أما سرجون فتربى في بيت السقاء الذي هو ليس ملكيّاً، هذا غير أن سرجون قاد انقلاباً علي (لاورزابابا) آخر ملوك (كيس) وأيضاً قتل منافسه الآخر (لوجالزاجيزي) ملك(أرك) واستولى على الحكم، وهذا ما لم يحدث مع موسى إطلاقاً، فهل اختلاف القصة في كل شيء وتشابهها في نقطة واحدة يجعلها منقولة؟

٢- هنالك الكثير من علماء الآثار مثل بول لاميتا، فيكتور بلاس، واستين هنري لايارد وهنري فرنكفورت وبعثته من معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو، يرون أن المقصود في الملحمة المنقوشة هو سرجون الثاني وليس سرجون الأكادي الأول، ولهذا فإن سرجون الثاني لقّب نفسه باسم (الرجل الجديد) أولاً، ثم لقّب نفسه باسم سارو جينو (سرجون) والذي يعني الملك الحقيقي على اسم سرجون الأول والمؤسس، وحالما اعتلى سرجون العرش حاول كثيراً أن يدعي أن أصله ملوكي،فيحتمل أن تكون الملحمة متحدثةً عنه هو وليس عن سرجون الأول، وما يدعم ذلك هو أن الملحمة تذكر هزيمة (تيلمون) على يد سرجون، وتيلمون هذا لم يصلنا الكثير عنه سوى أنه وجد في فترة وجيزة تسبق سرجون الثاني وليس له أي علاقة بالحقبة الزمنية لسرجون الأول (المؤسس).[1]

وعليه، فإن من المرجح أن ملحمة سرجون هي عن سرجون الذي لُقب فيما بعد وهو من نقل عن غيره وليس العكس، فهو إذاً الذي نقل قصة موسى من اليهود الذين جاؤوه وأصبحت قصة موسى معروفة جداً في أوساطهم، وذلك على افتراض وجود نقل بين القصتين أصلاً،لأن الاختلافات تثبت أن التشابه الوحيد في قصة الميلاد ليس إلا محض مصادفة ولا يرتقي لأن يكون متناقلاً من الطرفين.

١- انظر: http://www. drghaly. com/articles/display/11134

سادساً: وهل كفر سليمان؟

يصف لنا القرآن أن الملك سليمان كان ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] لذا أكرمه الله بأن أجاب دعاءه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] فسخّر له الريح والجن وعلمه منطق الطير وآتاه من كل شيء، إلا أن وضعية النبي سليمان مختلفة جدّاً في التوراة، فنجده هناك وقد أُلصقت به أبشع الصفات،منها أنه لا يستحق المُلك بعد أبيه داود وأنه قد سلبه من أخيه أدّونيا، حيث تذكر التوراة في سفر الملوك أن النبي سليمان تنازع المُلك بعد وفاة داود مع أخيه أدّونيا وانقسم الناس بعد ما قتل سليمان أخاه! (حَلَفَ سُلَيْمَانُ الْمَلِكُ بِالرَّبِّ قَائِلاً: «هكَذَا يَفْعَلُ لِيَ اللهُ وَهكَذَا يَزِيدُ، إِنَّهُ قَدْ تَكَلَّمَ أَدُونِيَّا بِهذَا الْكَلاَمِ ضِدَّ نَفْسِهِ. وَالآنَ حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ الَّذِي ثَبَّتَنِي وَأَجْلَسَنِي عَلَى كُرْسِيِّ دَاوُدَ أَبِي، وَالَّذِي صَنَعَ لِي بَيْتًا كَمَا تَكَلَّمَ، إِنَّهُ الْيَوْمَ يُقْتَلُ أَدُونِيَّا». فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ بِيَدِ بَنَايَاهُو بْنِ يَهُويَادَاعَ، فَبَطَشَ بِهِ فَمَاتَ).

ولأن سليمان صار ملكاً بهذه الكيفية، فإن الناس انقسموا في ولائهم تجاهه، فلم يؤمن به البعض بل وشككوا به وبتحكمه بالجن وادعوا أنه (ساحر)، وأن سر السحر يكمن في خاتمه الذي يلبسه، ومن هنا ظهر مصطلح (خاتم سليمان).

ربما يتم ترديد كلمة (خاتم سليمان) اليوم كثيراً في أشعارنا وأغانينا دون الوعي أنها تهمة تقدح في نبوة سليمان وتطعن في حقيقة معجزته التي وهبها الله له.

تذكر التوراة أيضاً أن سليمان كفر وآمن بالآلهة البابلية مثل الإلهة (عشتاروت) وقام بعبادتها، فغضب الرب منه ومزّق مملكته ولولا أن أباه كان داود لعاقبه عقاباً أعظم على كفره. فقد ورد في سفر الملوك الإصحاح الحادي عشر (ذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَثَ إِلاهَةِ الصِّيدُونِيِّينَ، وَمَلْكُومَ رِجْسِ الْعَمُّونِيِّينَ. وَعَمِلَ سُلَيْمَانُ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَلَمْ يَتْبَعِ الرَّبَّ تَمَامًا كَدَاوُدَ أَبِيهِ. فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي تَرَاءَى لَهُ مَرَّتَيْنِ، وَأَوْصَاهُ فِي هذَا الأَمْرِ أَنْ لا يَتَّبِعَ آلِهَةً أُخْرَى، فَلَمْ يَحْفَظْ مَا أَوْصَى بِهِ الرَّبُّ. فَقَالَ الرَّبُّ لِسُلَيْمَانَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذلِكَ عِنْدَكَ، وَلَمْ تَحْفَظْ عَهْدِي وَفَرَائِضِيَ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ بِهَا، فَإِنِّي أُمَزِّقُ الْمَمْلَكَةَ عَنْكَ تَمْزِيقًا وَأُعْطِيهَا لِعَبْدِكَ. إِلَّا أَنِّي لا أَفْعَلُ ذلِكَ فِي أَيَّامِكَ، مِنْ أَجْلِ دَاوُدَ أَبِيكَ، بَلْ مِنْ يَدِ ابْنِكَ أُمَزِّقُهَا.).

وبذلك انقسم اليهود لفريقين:

فريقٌ آمن بملك سليمان ونبوته ومعجزاته.

وفريقٌ كذّب ذلك واتبع أقوال شياطين الإنس وقدحهم بمُلك سليمان.

وهم من قال عنهم الله في القرآن: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠١-١٠٢]. ولا بد أن ننوه أن شيطان أصلها من كلمة (شطن) أي تمرد، وهي تنطبق على الجن والإنس معاً كما قال

الله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وإننا نرجح أن المقصود في قول الله: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ ﴾ [البقرة: ١٠٢] هو شياطين الإنس الذين تمردوا على شرعية حكم النبي سليمان كما ذكر هذا القول القرطبي والطبري في تفسيريهما من جملة الأقوال.

***

نزه القرآن سليمان من تهمة البطش من أجل المُلك بأن جعل الله مُلكه وراثةً من داود: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: ١٦] وكذلك نزهه القرآن من تهمة الكفر المحرّفة والمذكورة في العهد القديم من الكتاب المقدس إذ قال الله: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي إن هؤلاء هم من كفر في قدحهم بنبوة سليمان، جاء في هذه الآية نفسها أيضاً رقم ١٠٢ من سورة البقرة أن سبب كفر هؤلاء الشياطين هو أنهم ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وسنتحدث قبل كل شيء عن هاروت وماروت ومع اختلافات الأقوال حولهما وعن حقيقة كونهما ملكين وأنهما أنزلا السحر معهما للناس.

كلنا نعلم أن الملائكة لا تعصي الله فكيف يكون ذلك؟

فنقول: الراجح لدينا أن (هاروت وماروت) ليسا ملكين من عند الله بل هما من الشياطين البابلية وقد ذكر ذلك القرطبي في تفسيره حين قال:

إن هاروت وماروت (بَدَل مِن الشَّياطِين)، كما نجد أن هنالك مفسرين لديهم آراء أخرى تنزيهية للملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فنجد مثال ذلك مما أورده الطبري في تفسيره نقلاً عن ابن عباس أنه قال:

«إن المقصود ﴿بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ هو التأخير الذي معناه التقديم فإن قائل قائل: وكيف هو وجه تقديم ذلك؟

قيل: وجه تقديمه أن يقال: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ من السحر وما أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروت - فيكون معنيّاً ب «الملكين: جبريل وميكائيل، لأن سحرة اليهود، فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبها الله بذلك، وأخبر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر قط، وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر، فأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن اللذين يعلمانهم ذلك رجلان: اسم أحدهما هاروت، واسم الآخر ماروت. فيكون «هاروت وماروت»، على هذا التأويل، ترجمة على «الناس» وردّاً عليهم».

***

إن من يلاحظ في أسماء ملائكة الله سيجد أنها تنتهي بـ(إيل) والتي تعني (الله) مثل جبريل، إسرافيل، ميكائيل، وغيرهم، اعلم أن هذا ليس شرطاً لأننا نجهل أسماء آلاف الملائكة ولكن الغالب على ظننا أن كلمة (روت) تخص الديانة الوثنية في بابل القديمة وأحد كبار آلهتها الذي تُنسب له الآلهة هناك، نذكر منها (تاروت وعشتاروت وناروت)، ولا شك أن ثقافة الإسرائيليين قد اختلطت بالبابليين بعد(السبي البابلي) واحتلال (نبوخذ - نصر) للقدس،أو حتى من جراء رحلات التهجير والتجارة، لذلك تتهم التوراة سليمان بعبادة عشتاروت.

إذاً فإن لفظ الملكين الذي ورد قبل اسم هاروت وماروت لا يعني بالضرورة أن المقصود هو ملائكة من عند الله، بل إننا قد ذكرنا من الاختلافات ما يؤكد أن هنالك من قال إنهم رجال وهنالك من قال إنهم شياطين وآخرون قالوا بأنهم ملائكة حسب الثقافة البابلية.

وعليه فإن الصحيح لدينا وبحسب ما يشير له اسمهم(روت)هو أنهما فعلاً من ملائكة السحر لدى ثقافة الديانة البابلية القديمة وعن أسطورة أنهم يعلمون من يؤمن بهم السحر.

لذلك قال ترجمان القرآن عبد الله بن عباس عن قول الله: (وما أنزل على الملكين): إن (ما) هنا نافية بمعنى أن الله ما أنزل على الملكين ببابل أي سحر وهذا افتراء. «عن ابن عباس والربيع»

وأيضاً نجد الكثير من المفسرين من قال بأن (ما) هنا تفيد النفي والجحد.

قال أبو جعفر : اختلف أهل العلم في تأويل «ما» التي في قوله: وما أنزل على الملكين). فقال بعضهم: معناه الجحد، وهي بمعنى «لم».

وكذلك حدثني محمد بن سعد قال: حدثني أبي قال: حدثني عمي قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قوله : (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) فإنه يقول: لم ينزل الله السحر).

وأيضاً (حدثنا ابن حميد قال: حدثني حكام، عن أبي جعفر، عن الربيع بن أنس :(وما أنزل على الملكين)، قال: ما أنزل الله عليهما السحر).[1]

و سبب هذا الافتراء هو القدح بسليمان على أنه قد كفر وأنه ليس إلا ساحراً وسبب معرفته للسحر هو عبادته لإلهة بابل (عشتاروت) كما ورد في التوراة..

وبذلك ظهرت فرقة تزعم أن بإمكانها مجاراة سليمان في (سحره) عن طريق ما توهموه من عبادة آلهة وملائكة الديانة البابلية (هاروت وماروت) وأنهم يبيعون ذلك لمن يريد! لذا نجد أن الله قد ذكر كلمة (اشتراه) في قوله عن السحر: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ ﴾ [البقرة: ١٠٢] لتأكيد ما قيل في التوراة من أن شياطين الإنس هؤلاء الذين قاموا بتكفير سليمان هم من كفر واستغلوا أكاذيبهم لأهداف مادية.

وهذا كله من تبعات عدم تصديقهم لرؤية رجل أمامهم يتحكم بالجن ويعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل، وعليه تم استغلال ذلك لأهداف مادية.

١- انظر: تفسير الطبري لسورة البقرة.

ولعل هذه الفتنة كانت حكمة من الله حتى يعرف كل من تعلم السحر من الذين كفروا بسليمان وادعوا أن بإمكانهم جعلك تتحكم بالجن مثله بمقابل مادي، أنهم كاذبون! وبذلك ينزهه الله من تهمة السحر وتكون معجزته التي وهبها الله إياه حقيقةً في أعين الناس، فيتراجع كل من انهم هذا النبي بالسحر وعبادة آلهة وملائكة الحضارة البابلية الوثنية.

وللأسف أننا إلى يومنا هذا نجد من يكذب على الناس بقدرته على التحكم بالجن لهدف مادي، على الرغم من معرفة من ذهب لهؤلاء الدجالين أن سليمان قال عن ملكه بما يتخلله من تحكمٍ مع الجن ﴿لَا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ [ص: ٣٥].

سابعاً: محمد وتهمة نقل قصص القرآن من الكتب السابقة:

إن من يتتبع أقوال المستشرقين وأعداء الإسلام من الديانات الأخرى، سيجدها دائماً متمحورة حول عدد قليل من التهم التي يرددونها رغم أنها أُشبعت ردّاً وضرباً، ولكنهم يتشدقون بها وإن غشّاها ماغشّى.

نذكر منها ما كانوا يرددونه قديماً حول أن النبي محمداً عليه الصلاة والسلام كان ينقل قصص القرآن المتشابهة مع التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى مثل الراهب (بحيرا) ومن ورقة بن نوفل وبعض الفلاسفة وشعراء الجاهلية مثل امرئ القيس.

ننقل هنا مثلاً ما قاله المستشرق (كارادي فو) والذي أشعل نار هذه الشبهة: «وقد اصطنع النبي القصة التي تقول بأن الرسول السماوي

يتحدث إلى الأنبياء، وأعتقد أنه تلقى رسالته ووحيه منه، والظاهر أن النبي محمداً عرف جبريل من خبر البشارة الوارد في الإنجيل ولكنه لم يكن في مقدروه أن يعرف الإنجيل من غير وساطة، ولعله سمع ذلك الخبر من أفواه بعض الفلاسفة أو الباحثين في الأديان أو من أحد الحنفية، وقد وصلهم الخبر مشوهاً، وفي رأي النبي أن الله بعث روحه إلى مريم فتمثل لها بشراً سويّاً».

وبصرف النظر عن وجود كلمات ظنية كقوله: (أعتقد،الظاهر،لعل) في مسألة تتطلب دليلاً قطعيّاً وليس مجرد مزاعم! إلا أن ردنا لا يرتكز على هذه النقطة فقط،وإنما يتبادر إلى ذهننا عدة أسئلة: كيف وأين التقى محمد بهؤلاء الفلاسفة أو الباحثين في الأديان؟ ومن هم الذين التقى بهم؟ ولماذا لم يرد اسم واحد منهم؟ وإذا حاولنا حصر هؤلاء في فترة حياة النبي، فهل وُجد أحدهم في شبه الجزيرة العربية في تلك الفترة؟ أو هل ثبت وجود النبي مع أحدهم آنذاك؟

وإذا قلنا إنه التقى بهم أثناء رحلته التجارية كقولهم إنه التقى بالراهب (بحيرا) في رحلته للشام مع عمه أبي طالب، وإنه علمه مما في كتبهم، فإن تلك الفترة-مع عدم ثبوت ذلك-ليست كافية أبداً للتعلم والمعرفة،فهل تكفي عشرة أيام فقط للإلمام بكل ما حواه القرآن؟

ثم ألم يأتِ القرآن بأحداث وتفصيلات يومية من السيرة النبوية،كقول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] و﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] وغيرها الكثير؟ فهل كان الفلاسفة والباحثون في الأديان

يعيشون مع النبي وقت وقوع هذه الأحداث ليعلموه كيف يقول القرآن فيها؟ ثم لماذا جاء في القرآن الكثير من القصص التي لم ترد في الكتب السماوية السابقة كقصة صالح وهود وأصحاب الكهف وأصحاب الأيكة والأخدود وقصة رفض إبليس السجود لآدم،ولماذا يتم اعتبار أن محمداً وصله الخبر مشوهاً حول المسيح وليس أن الوحي وصله مصححاً لما تم تحريفه في العقيدة النصرانية؟ أليس الأجدر أن يكون الخبر المشوه هو أن يثبت القرآن أن المسيح هو الله وليس أن ينفي ذلك بشدة؟ لماذا تتطابق القصة القرآنية مع العقيدة النصرانية القديمة التي لم يرد فيها أن المسيح ثالث ثلاثة وأنه ابن الله؟[1]

فإن قلنا إن محمداً عليه الصلاة والسلام تعلم ذلك من الحنفاء المشهورين آنذاك مثل: عبد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل وأمية بن أبي الصلت، فإن من يتتبع سيَر هؤلاء الأحناف سيجد أن أغلبهم لم يدركوا النبي وماتوا قبيل ظهور الإسلام، كما أن منهم من تنصّر ولم يسلم، نذكر مثلاً ما روي عن عبد الله بن جحش «فقد أسلم عند قيام الدعوة المحمدية ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة،فلما قدمها تنصر وفارق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانيّاً» ثم نجد ما روي عن عثمان بن الحويرث من أنه قد ذهب إلى قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده ومات نصرانيّاً، مع ضرورة أن نلاحظ أن العقيدة النصرانية للروم قائمة على الثالوث الذي اعتمده

---

١ – انظر: موسوعة الرد على الشبهات والافتراءات الموجهة ضد الإسلام/ د. أحمد شوقي.

قسطنطين في مجمع نيقية، بمعنى أن عثمان بن الحويرث اعتنق الديانة المحرفة والتي تؤله المسيح!

أما ورقة بن نوفل فتقول الروايات إنه استحكم في النصرانية وابتاع الكتب من أهلها حتى صار عالماً من علماء النصرانية العبرانية،وعندما جاء الوحي إلى النبي في غار حراء ذهبت به زوجته خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، ولما استمع ورقة إلى ما حكاه النبي له قال: «هذا الناموس الذي نزل على موسى،يا ليتني فيها جذعاً (شاباً) ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك» فسأله النبي وقال: «أومُخرجي هم؟» فأجاب ورقة:«نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك لأنصرنك نصراً مؤزراً» وقد توفي ورقة عند ظهور الإسلام، ولا يوجد ما يثبت أنه عاش مع النبي طيلة حياته وكان يخبره بما يجب أن يقوله النبي في القرآن وإلا لكانت هذه تهمةً شائعة على لسان كفار قريش، بل إن المصادر تقول إن هذا كان اللقاء الأول والأخير بين النبي وورقة، وعلى من يدعي غير ذلك أن يثبت العكس، بالتأكيد لن نجد دليلاً وكل ما في الأمر أنها محاولات ربط وهمية لا تقوم على حجة![1]

المشكلة أن هؤلاء أخذوا من المصدر نفسه ما يريدون وتركوا ما لا يريدون، وأنا أعني هنا ما ورد في السيرة المكتوبة من أن ورقة بن نوفل كان يعبد الأصنام لأكثر من ستين سنة وحتى ولادة النبي، جاء في البداية والنهاية لابن كثير (أن نفراً من قريش منهم ورقة ابن نوفل بن أسد بن

١- انظر إلى: مدخل إلى القرآن الكريم في التعريف بالقرآن/ د. محمد الجابري.

عبد العزى بن قصي وزيد بن عمرو بن نفيل وعبد الله بن جحش بن رئاب وعثمان بن الحويرث كانوا ثم صنم لهم يجتمعون إليه قد اتخذوا ذلك اليوم من كل سنة عيداً كانوا يعظمونه وينحرون له الجزور ثم يأكلون ويشربون الخمر ويعكفون عليه فدخلوا عليه في الليل فرأوه مكبوباً على وجهه فأنكروا ذلك فأخذوه فردوه إلى حاله فلم يلبث أن انقلب انقلاباً عنيفاً فأخذوه فردوه إلى حاله فانقلب الثالثة فلما رأوا ذلك اغتموا له وأعظموا ذلك فقال عثمان بن الحويرث ما له قد أكثر التنكس إن هذا لأمر قد حدث وذلك في الليلة التي ولد فيها رسول الله »

وهذا يعني أن عمر ورقة بن نوفل عند بعثة النبي كان (٦٠) عاماً، وأن عمره كان عند زواج النبي من خديجة بنت خويلد (٨٥) عاماً، وعندما بُعث النبي كان عمره (١٠٠) عام! وبما أن ورقة بن نوفل -طبقاً للمصادر نفسها التي استشهد بها المستشرقون- قد ولد سنة (٥٠٨) للميلاد وتوفي سنة (٦١١) للميلاد، أي إنه لم يدرك نبوة محمد إلا في ظرف أربع سنوات فقط كان حينها أعمى،وعلى من يظن أن محمداً قد أخذ القرآن كاملاً والذي كان يتنزل طبقاً لقصص وأحداث لحظية في حياة النبي كاملة منذ بعثته وحتى موته من ورقة بن نوفل، أن يثبت أن ورقة بن نوفل كان يعلم الغيب وكان يخبره عن الآيات التي ستحدث مستقبلاً خلال هذه الأربع سنوات التي أدرك فيها ظهور الإسلام -على افتراض إثبات وجود لقاء آخر بين النبي وورقة-! عدا ذلك فالمسألة ليست إلا أوهاماً.

نعرّج الآن على تهمة أخرى أشعلها القس (أنيس شروش) في إحدى مناظراته مع الشيخ (أحمد ديدات) وقد ظل يتناقلها الناس دون أن يتوقفوا حول حقيقة البحث فيها وتمحيصها، وبصرف النظر عن كون الشيخ ديدات قد جلد أوجه جميع مناظريه، إلا أننا سنقف قليلاً مع ما أثاره أنيس شروش حول أن النبي قد اقتبس من الأشعار الجاهلية، تحديداً شعر امرئ القيس، فيقول شروش: «كان امرؤ القيس من أعظم شعراء العرب القدامى قبل محمد، وفي إحدى قصائده، هناك أربع آيات مأخوذة منها، تم إدخالها في القرآن من قبل محمد،وتظهر في سورة القمر، نجد أن القرآن قد قال ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] ونجد أن امرأ القيس قد قال في إحدى قصائده: (دنت الساعة وانشق القمر) ثم نجد أن القرآن يقول: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦] ويقول امرؤ القيس:

وإذا ماغاب عني ساعة كانت الساعة أدهى وأمر

ولذلك نجد أن ابنة امرئ القيس عندما أدركت الإسلام وسمعت أبيات أبيها عرفتها وطالبت بمعرفة كيف ظهرت أبيات أبيها فجأة في القرآن».

ورغم أن القس شروش لم يذكر غير هذين المثالين وقد زعم في البداية أن هنالك أربعة أمثلة، إلا أننا سنقف لاستعراض قوله هذا وسنقف مع التهمة في عدة نقاط:

١- إننا من هذا المنطلق نقول إن هذه الأبيات لم ترد إطلاقاً في دواوين امرئ القيس الأصلية والثابتة عنه، بل لم نجد هذه الأبيات حتى

في كتب من انشغل في جمع وشرح الشعر الجاهلي مثل الإمام الحافظ أبي بكر الباقلاني والذي تعرض في كتابه (إعجاز القرآن) لفصل كبير للمقارنة بين الشعر والقرآن، وخصص منه الباقلاني جزءاً كبيراً لشعر امرئ القيس،فهل لم يصل هذا الشعر لهؤلاء المهتمين بالقصائد الجاهلية؟ وهل يصح أن تُنسب هذه القصائد لشاعر فلا نجدها في دواوينه؟ ولم ترد على لسان حفّاظ شعر امرئ القيس فلم يذكروه؟

٢- إن المصدر الوحيد الذي وردت فيه هذه الأبيات هو كتاب (فيض القدير،شرح الجامع الصغير) للإمام المناوي، وذكر المناوي أن هذه الأبيات (تُنسب) للشاعر الجاهلي امرئ القيس ولم يقف عندها، وهنا نسأل ونقول: أي امرئ القيس هنا؟ فهنالك أربعة شعراء في الجاهلية يحملون هذا الاسم؟ هل هو امرؤ القيس بن حجر الكندي؟ أم امرؤ القيس السكوني؟ أم امرؤ القيس بن بحر الزهيري؟ أم امرؤ القيس بن عابس؟ وليس الهدف من طرحنا لهذه التساؤلات هو لتشتيت التهمة بقدر ما هو أبسط حق للمُتهمين بأن يعرفوا مدى دقة التهمة ويتحققوا منها! خصوصاً أن من درس الشعر الجاهلي سيعرف أن الأبيات الواردة لا تتفق مع أسلوب أيٍّ من هؤلاء الشعراء إطلاقاً! بل نجد من قال مثل الدكتور عبد الله الفقيه إن آيات سورة القمر لا تتفق أصلاً مع موازين الشعر العربي حتى يقال إنها من الشعر،

وفي ذلك تبيان لجهل أصحاب التهمة، فهذا إن صح في كونه شعراً جاهليّاً، فهو منحول نسبةً إلى امرئ القيس، فقضية نحل الشعر لمشاهير الشعراء قضية معروفة في الأدب العربي يعرفها كل باحث ومهتم.[1]

٣- يزعم (شروش) أن ابنة امرئ القيس حين أسلمت عرفت شعر أبيها، ولم يرد ما يدل على ذلك في الروايات الثابتة، ورغم عدم ورود شيء في ابنة امرئ القيس هذه، إلا أننا سنعذر صاحب الشبهة ونقول لعله يقصد حفيدات امرئ القيس،وعليه الآن أن يخبرنا، أي حفيدة من حفيدات امرئ القيس التي يعنيها فمن حقنا أن نعرف، هل يقصد الرباب بنت النعمان بن امرئ القيس؟ أم عقرب بنت معاذ بن النعمان بن امرئ القيس؟ أم هند بنت سماك بن عتيك بن امرئ القيس؟ أم أمامة بنت سماك بن عتيك بن امرئ القيس؟ أم حواء بنت رافع بن امرئ القيس؟ أم خولة بنت عقبة؟ أم أم إياس بنت أنس؟ أم أم سعد بنت عقبة؟

٤- لو كانت هذه الأبيات حقيقة ثابتة عن امرئ القيس لعرف العرب ذلك ولجعلوها حجة على النبي إذ لا يخفى عليهم أشعار الجاهلية، ويناقض (شروش) بذلك نفسه حين أثبت أن امرأ

١- انظر: موسوعة الرد على الشبهات والافتراءات الموجهة ضد الإسلام ص ٣١٢/ د. أحمد شوقي.

القيس أعظم شعراء الجاهلية ثم لم يذكر أن كبار كفار قريش وأبلغهم وأحفظهم شعراً لم يرد عنهم اتهام النبي بسرقة هذه الآيات من الشاعر العظيم امرئ القيس! بل لم يثبت إلا اعتراف سادات قريش مثل الوليد بن المغيرة بأن القرآن ليس بقول بشر،

إننا نستطيع أن نقول بما لا يدع مجالاً للشك، إن كل هذه ليست إلا افتراءات ظنية لا تَقُوم لها قائمة بدون دليلٍ قطعي.

ثامناً: محمد وتهمة نشر الإسلام بالسيف:

لن نرد هنا بتلك الردود التقليدية من أن القرآن لم ترد فيه كلمة سيف أو رمح على عكس كتب الديانات الأخرى، ولن نرد بقولنا إن جميع الآيات القتالية في القرآن كانت في موقف الدفاع فقط بينما لم ينهَنا الله عن الذين لم يقاتلونا في الدين أن نبرهم ونقسط إليهم، لأن هذه الردود لن تُبعد هذه التهمة في أعين مروجيها، نظراً لأنهم يعرفون أن النبي محمداً عليه الصلاة والسلام، هو الوحيد من الأنبياء تقريباً الذي قاد جيوشاً في غزوات ومعارك مثل (أحد، وبدر، الخندق، وتبوك وغيرها)، وهذا ما كان مسوغاً لهم في الترويج لمثل هذه الأقاويل، وعليه فإني أستميحكم باقتباس ما كتبه عالم الاجتماع الدكتور (علي الوردي) فهو خير من تحدث في هذا السياق من واقع قراءة علمية مجتمعية لحال النبي مع قريش، ولا بد أن يتم إعادة وإحياء وإبراز هذا الرأي من جديد،ليعرف الجميع تبعات هذه المعارك والغزوات التي شنها النبي الكريم على قومه، يقول الدكتور علي الوردي: «يتهم بعض المستشرقين محمداً بأنه من طراز جنكيزخان،

قائدٌ بدويٌّ وجه أمته نحو الغنيمة والغلبة، ولذلك شرّع لأتباعه شرعة الحرب والقتال بخلاف ما فعله المسيح قبله، نسي هؤلاء أن محمداً سار سيرة المسيح في بدء دعوته، حيث أخذ يدعو إلى ربه بالطريقة السلمية ويحضُّ أتباعه على العفو والصبر ومقابلة السيئة بالحسنة، وبقي على ذلك مدة طويلة تناهز ثلاثة عشر عاماً، وكانت نتيجة ذلك أن قريشاً اجتمعت على قتله وكادت تنجح في ذلك، لو لم يهيئ الله له خيط العنكبوت وبيض الحمام كما هو معروف.

ولو أن قريشاً نجحت في قتله آنذاك لذهب محمد في التاريخ كما ذهب أخوه المسيح من قبل، ولما وجد المؤرخون بينهما فرقاً كبيراً.

ولم يكد محمد يصل إلى المدينة سالماً بعد الحادثة، حتى بدأ يغير خطته تجاه قريش، فقد أدرك بعد التجارب المُرّة التي مرت عليه في مكة، أن قريشاً لا تخضع لدعوته إلا إذا أخضعها بحد السيف، وأدرك كذلك أن العرب لا يدخلون في الإسلام إلا إذا انتصر على قريش، وكان العرب يقولون: (دعوا محمداً يقاتل قومه، فإن نجح فهو نبي حقّاً).

يتساءل البرفسور توبيني: (أكان محمد مدعياً يريد الملك والمال أم كان نبيّاً يريد الإصلاح؟ ثم يجيب على ذلك فيقول: إن سيرة محمد في بدء دعوته تدل على أنه كان صادقاً في إيمانه مخلصاً لرسالته، أما ما حدث بعد الهجرة من تحول في سيرته، فمرده إلى أنه كان يعيش في مجتمع يختلف عن مجتمع المسيح اختلافاً كبيراً).

والبحوث الاجتماعية الحديثة تؤيد رأي توبيني هذا، فالعرب الذين

ظهر محمد فيهم كانوا أولي قيم بدوية صارمة، وهذه القيم تعد القوة رمز الحق، وهي لا تميل إلى الإيمان بنبي مستضعف، ولا يزال البدو حتى يومنا هذا يعتبرون القوة دليل الحق، ومن أمثالهم الدارجة (الحق بالسيف والعاجز يريد شهوداً).

وقد حدثنا التاريخ أن محمداً ظل في مكة يدعو إلى دينه بالطريقة السلمية زمناً طويلاً فلم ينجذب إليه إلا نفرٌ قليل، وكان هؤلاء النفر من أهل مكة والمدينة الذين أُطلق عليهم فيما بعد اسم (المهاجرين والأنصار). أما عرب الصحراء فلم يدخل في الإسلام منهم آنذاك إلا رجل واحد هو أبو ذر الغفاري، وأمر هذا الرجل عجيب.

ولكن البدو دخلوا في دين الله أفواجاً بعد فتح مكة، وقد سمي العام الذي تلا عام الفتح بعام الوفود، وذلك لكثرة من وفد إلى النبي فيه من القبائل العربية.

وقد أشار البرفسور نكلسون إلى أن معركة بدر هي أول حادثة لفتت نظر القبائل البدوية إلى محمد وأثارت إعجابهم به، ويقول نكلسون في شأن هذه المعركة: (ومهما كان العرب قليلي الاكتراث بدين محمد، فإنهم لم يستطيعوا إلا أن يحترموا الرجل الذي أذل نبلاء مكة وبدأ بأهله)، ويعد نكلسون معركة بدر من أعظم المعارك العالمية التي غيرت وجه التاريخ.

نستنتج من هذا أن محمداً لم يتبع طرق الحرب حبّاً بالحرب والبطش كما زعم المستشرقون من أعداء الإسلام، إنما هو لجأ إلى الحرب اضطراراً، ولولا ذلك لما قامت للإسلام قائمة في جزيرة العرب.

والواقع أن الحروب المحمدية لم تكن سوى مظهر من مظاهر الثورة الاجتماعية التي قام بها، والثوار في جميع الأزمان يتبعون في بدء دعوتهم طريق السلم، فإذا اجتمع لديهم من الأنصار عددٌ كافٍ عبؤوهم تعبئة القتال وأخذوا يشنون على خصومهم حرباً شعواء قد تقضي على ما كان لهم من مكانة اجتماعية وترف وبذخ.

يقول ابن إسحاق، وهو أول من كتب السير النبوية: كان رسول الله قبل بيعة العقبة لم يؤذن له بالحرب ولم تُحلل له الدماء، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم، ونفوهم من بلادهم، فهم بين مفتون في دينه، وبين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فراراً منهم، فنجد منهم من فر إلى الحبشة، ومنهم من فر إلى المدينة،وفي كل البقاع، فلما عتت قريش على الله، أذن الله عز وجل لرسوله في القتال والانتصار ممن ظلموه وبغوا عليه، فكانت أول آية أُنزلت في إذنه له في الحرب وإحلاله له الدماء والقتال على من بغى عليه قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٣٩-٤١].

إن هذه الآية التي أذنت بالقتال لأول مرة في تاريخ الإسلام، قد يلاحظ فيها القارئ ثلاثة أمور:

١- إن الله لم يأذن للمسلمين بالقتال إلا لأنهم كانوا مظلومين ومضطهدين من جرّاء فكرة آمنوا بها.

٢- إن التنازع الاجتماعي، أو التدافع بين الناس أمر طبيعي، ولولاه لما نشأ دين على وجه الأرض يُعبد به الله.

٣- إن المسلمين إذا انتصروا على خصومهم فسوف يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، والله لا ينصر إلا من انتصر له.

والواقع أننا لا نفهم شرعة الحرب في الإسلام إلا إذا فهمنا الآية وأدركنا ما فيها من مبادئ اجتماعية هامة، ففيها يتضح أن الإسلام ثورة اجتماعية، يقاتل فيها المظلومون عن حقهم في الحياة، وهم أيضاً إنما يقاتلون المترفين لكي يحققوا نظام العدالة والمساواة بين الناس وينشروا بينهم أمر الله.[1]

١- انظر إلى: مهزلة العقل البشري ص ٢٣٠ - ٢٣٢/ د. علي الوردي.

الفصل الثالث

امرأةٌ رسولة

ويقولون لنا دائماً: كيف تزعمون أن الإسلام عدل بين الرجل والمرأة وأنتم تعلمون جيداً أن الله لم يبعث امرأة نبية أو رسولة؟

فنقول: بادئ ذي بدء، يجب أن نعرف ماذا يميز الرجل العادي عن النبي؟ ما الذي يجعل فلاناً نبيّاً والآخر رجلاً عاديّاً؟ الجواب بالتأكيد هو أن ما يميز النبي عن غيره أن النبي يوحى إليه ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم ﴾ [يوسف: ١٠٩]. أي إننا لو رفعنا ميزة الوحي عن الأنبياء لعادوا رجالاً مثل غيرهم.

وإذا سلمنا أن الوحي هو ما يميز الأنبياء عن غيرهم من الرجال، فإن ذلك سيدعونا للتساؤل فنقول: هل أوحى الله إلى نساء أيضاً؟

الجواب الأكيد هو نعم، وإليكم الأدلة:

لن أذكر الأمثلة الموجودة في الكتب السماوية والتراثية للأديان الأخرى من النساء اللاتي خاطبهن الله أو وهب لهن من معجزاته مثل الملكة استير وحنّا زوجة عمران وإليزابيث زوجة زكريا وراعوث ومارت شموني ووالدة شمشون الجبّار،بل سأكتفي بالقرآن الكريم كتابنا.

المثال الأول هو قول الله في سورة طه عن أم موسى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ٣٨] وقول الله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٧]، وهذا مما لا شك فيه وحيٌ سماوي صريح أوحاه الله لامرأة، ورغم وجود من قال بأن المقصود بالوحي هنا هو الإلهام كقول الله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨] إلا أن الوحي الذي أوحاه الله لأم موسى أكبر من الإلهام، ودليل ذلك أن الله وعد أم موسى بأن ابنها سيعود إليها ولتعلم أن وعد الله حق: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] أيضاً: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣] فهذه الآيات تشير إلى أن أم موسى كانت موعودة بأن ابنها سيرجع إليها مستقبلاً وهذا يدل على أن الوحي هنا لم يكن مجرد إلهام، فالإلهام لا ينطوي على علم الغيب! وإنما هنالك من أخبرها بالفعل عن أنباء الغيب ووعدها بأن ابنها سيعود إليها،وهذا هو وحي الله سبحانه الذي بلغ به المَلَك الأمين جبريل عليه السلام.

المثال الآخر نجده في سورة مريم، تحديداً حين أرسل الله جبريل لمريم كما أرسله لسائر أنبيائه: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] ثم خاطبها جبريل قائلاً ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩].

نستطيع أن نقول هنا بأن الله أوحى للنساء وأرسل لهن جبريل مثلما أوحى للرجال، وبما أن الوحي هو العلامة الفارقة بين النبي وغيره،

فيمكننا أن نقول: نعم هنالك عدل ومساواة في الوحي، وهذا ما دفع الكثير من العلماء مثل القرطبي وغيره إلى القول بأن مريم عليها السلام كانت نبية.

ولكن السؤال الآن: إذا كان هنالك مساواة في الوحي فلماذا لم يرسل الله رسولات لتبليغ الرسالة؟

إن الجواب هنا يعود للطبيعة السيكولوجية للمرأة، فجميع آيات القرآن تشير إلى أن الوحي مخيف ومخيف جدّاً وكان حملاً مرعباً على الرجال الأشداء وسأذكر أمثلة على ذلك

طبعاً لن أنفرد بذكر خوف لوط من الملائكة: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ [العنكبوت: ٣٣] ولن أنفرد بذكر موقف إبراهيم الخليل المرعب مع ضيوفه من الملائكة الذين بشروه بإسحاق بعد أن أوجس منهم خيفة: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢] ووجلون بمعنى خائفون، ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨] ولن أنفرد بذكر الملكين اللذين بعثهما إلى داود اختباراً له في حكمه وقضائه ففزع منهما: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ [ص: ٢١-٢٢].

كما لن أتطرق لمحمد صلى الله عليه وسلم حين هلع مع بدء نزول الوحي قائلاً: (دثروني، زملوني).

ولكن سأكتفي بموسى عليه السلام،إن اختياري لموسى هو لأسباب تعود لشخصيته، فحسب صفاته التي وردت في المأثور أنه كان من أشد الأنبياء بنية وأقواهم جسداً، وقد ذكر الله عنه صفة القوة في قوله: ﴿ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، ومن قوة وشدة موسى، تذكر التوراة أنه قتل رجلاً من آل فرعون بدفعة يد بسيطة، ويؤكد القرآن ذلك في قول الله: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، وهذا مما لا يجلب الشك حول قوته وعظمته وجبروته.

ومع ذلك، سنرى الآن كم مرة ترددت صفة الخوف في وصف هذه الشخصية في القرآن: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨])، ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١])، ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]، ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص: ٣١]، ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١]، ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨]، ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧]، ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠]، ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ [طه: ٤٥]، و﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

الخوف الذي لازم موسى (القوي) في جميع هذه الآيات من أجل تبليغه للرسالة يثبت بما لا يدعو للشك عدم صلاح مهمة تبليغ الرسالة

وتحمل مشقاتها للنساء، وهذا ليس فيه انتقاص،فالله أوحى للجنسين وأعطى كل جنس ما يتناسب معه من أوامر ربانية، فالله فضل كل جنس على الآخر بمزايا تليق به وهذه هي (العدالة).

ثم أخبرنا أن لا نتمنى ما فضل الله به بعضنا على بعض ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]، قد يقول قائل بأن الله يمكنه أن لا يجعل الوحي مخيفاً لهن، الكلام صحيح، لذلك،ذكر الله في سورة مريم عن جبريل قوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، إذ إن الله جعله بشراً (سويّاً) رأفةً ورحمةً بمريم، وهو ما يتناسب مع وحيها كامرأة،أما غير ذلك من متطلبات الرسالة ومشقاتها وما يترتب عليها من مجابهات ملوك وسادات قبائل وربما حروب وأمور كثيرة لا تطيقها المرأة وخاف منها أعتى الرجال، فهي لا تتناسب مع طبيعتها والأمور التي فضلها الله بها على الرجل.

خلاصة قولنا هذا أن (المساواة) كانت في الوحي بينما (العدالة) كانت في طريقته.

ولماذا لم يذكر الله أسماء النساء في القرآن؟

أتذكر الكثير ممن اجتهدوا بنشر بحوث عبر شبكة الإنترنت بأن اسم المرأة (عورة) ويتطلب ذلك الستر عليها ويستدلون أن القرآن لم يذكر النساء بأسمائهن سوى مريم عليها السلام كحالة استثنائية، كما نجد هناك من شكك في عدم تكريم القرآن للمرأة لأنه لم يذكر أسماء النساء،وهذا بالتأكيد تطرف وغير صحيح.

إننا نتفهم موقفنا كبشر بأن لدينا اعتبارات توحي لنا أن ذكر الاسم يدل على التكريم، إلا أن هذه الرؤية يجب أن لا تُطبق على القرآن فالحال هناك مختلف تماماً.

القرآن لا يذكر الأسماء على وجه التكريم إطلاقاً، والعكس صحيح أيضاً بأن القرآن لا يسكت عن ذكر الأسماء على وجه التسفيه سواءً للرجال أو النساء.

فقد جاء في القرآن من أسماء الذكور (فرعون - هامان - آزر - قارون - أبو لهب - جالوت - إبليس) وجميعنا نعلم أن هذه أسماء لطغاة لا يعني ذكرها تكريمها أبداً، بينما نجد أن القرآن أشار لرجالٍ صالحين دون ذكر أسمائهم مثل (الخضر - أهل الكهف - ذي القرنين - النبي صاموئيل - ذي الكفل - يوشع بن نون - أبي بكر - الحواريين).

فهل يصح أن نقول إن القرآن كرّم أولئك (الطغاة) على هؤلاء (الصالحين) بذكر أسمائهم؟! بالطبع لا، وما أردته من هذه المقارنة هو استبعاد فكرة التكريم، ولتأكيد أن الاسم في القرآن لا يرد على سبيل التكريم، نجد أن فرعون ورد ذكره (٧٤ مرة) أي أكثر من إبراهيم عليه السلام والذي ذُكر (٦٩) مرة، وعيسى عليه السلام والذي ذُكر (٢٥) مرة، وأيضاً محمد صلى الله عليه وسلم والذي لم يُذكر سوى (٤)مرات!.

كما نجد العكس أيضاً، وذلك بأن يذكر القرآن أسماء الصالحين بشكل صريح وهم كثر،بينما أشار لطغاة دون الاسم مثل (النمرود - الوليد بن المغيرة - العاص بن وائل).

وما نود الوصول له مثلما قلت سابقاً أن ذكر الأسماء في القرآن (ورد على كل الأشكال) بلا مدلول، وهو شأنٌ إلهي بما يتناسب مع المعجزة البلاغية للقرآن.

الحال نفسه للمرأة، فقد وردت بالاسم الصريح مثل مريم (٣٤ مرة تقريباً) ووردت بالإشارة لنساء عاصيات مثل (نعمة امرأة نوح - وآدو امرأة لوط - وأروى حمّالة الحطب).. ووردت أيضاً أسماء لنساء صالحات بالإشارة لهن مثل (آسيا - صفورا - بلقيس - حنّة - إليزابيث امرأة زكريا- خولة بنت ثعلبة - ريطة - زينب بنت جحش - عائشة)، فكل الحالات أيضاً ذكرت للمرأة هنا.

نخلص من ذلك، إلى أن ذكر الأسماء في القرآن ليس له أي مدلول للتكريم أو التسفيه لأنه ورد بكل الحالات الممكنة (اسم صريح أو إشارة) وتساوى بذلك الذكر والأنثى.

وما قصة الضلع الأعوج؟

وقد ظهرت مؤخراً بعض الدعاوي التي فهمت المساواة بين الرجل والمرأة بطريقةٍ مخطئة، فظنت أن المساواة يجب أن تكون في كيفية الخلق، وقد نتج عن ذلك بعض الدراسات الغريبة كمن ظهر ليقول إن حواء خُلقت مع آدم من تراب، وآخر يقول إن حواء هي التي خُلقت قبل آدم وإن آدم هو الذي خُلق منها، وهذا كله وأكثر يعود لاعتقاد مخطئ أن المرأة تابعة للرجل كونها قد خُلقت منه، فانتهى الحال بكل من يبالغ في

المساواة إلى بحر هذه التصورات المخطئة والتي لا تستند على أدلة الدين الإسلامي.

بل إننا قمنا سابقاً بالبحث في الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والكنزا ربا، لعل فيها ما ألهم هؤلاء بالكيفية التي خلق الله بها حواء، فلم نجد هناك إلا تصديقاً حول ما جاء في القرآن الكريم من أن الله خلقنا من نفس واحدة (آدم) وخلق منها زوجها (حواء) كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء: ١].

إذاً لا تعارض بين ما ورد في القرآن الكريم وما جاء في الحديث الصحيح من أن حواء قد خُلقت من آدم ومن ضلعٍ أعوج، ولكننا لا بد أن نراعي في هذه المسألة الأمور التالية لما فيها من تبيانٍ وتوضيح:

١- على الإنسان- رجلاً كان أم امرأة - أن لا يكترث في البحث عن أفضلية خلقية له،فحتى التراب الذي خلق الله منه آدم كان يرد في القرآن على أنه شيءٌ لا يذكر، نجد عندما بشّر الله سيدنا زكريا بابنه يحيى ولم يصدق زكريا ذلك أنه قال له: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٩] كما قال الله عن الإنسان: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٦٧] وقال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: ١]، بل حتى في تكاثر البشر جنسيّاً، نجد أن الله كان يذكر حدوث ذلك عبر (الماء المهين)، بل وحتى الملاحدة الذين

أنكروا وجود الخالق، لم يستطيعوا إعطاء أفضلية خلقية لأصل الإنسان، فمن مصادفةٍ وعشوائية، مروراً بخليةٍ عمياء،إلى سلفٍ مشترك مع القرد والحيوانات.

إذاً، فالأصل في حكمة الله أن يخلق الإنسان من شيءٍ لا يُذكر كالتراب،ومن ثم يرفع من شأنه بأن تسجد له الملائكة وأن يستخلفه في الأرض، وذلك كان السبب الذي جعل إبليس يرفض السجود لمن خلقه الله من طينٍ لازب! فعلى أقل تقدير، نجد أن الضلع الأعوج شيءٌ يُذكر مقابل التراب وإن كان هو أصل الجنسين.

٢- إن تصورنا البشري نحو كلمة (أعوج) والتي تعني (غير السوي/ غير المستقيم) يجب أن لا يكون معياراً هنا، بل إن المقصود بالضلع الأعوج هنا هو الضلع السوي والكامل، لأن تمام الضلع في اعوجاجه، إن من حكمة الله أن جعل في أضلاعنا اعوجاجاً، لأن هذه الكيفية هي التي يتمكن الضلع من خلالها أن يحتوي القلب وسائر الأحشاء، ولو كان الضلع مستقيماً لاًعتبر ذلك إعاقةً طبية، فكما قال الشيخ الشعراوي -رحمه الله- بأن تمام الضلع في اعوجاجه ونقصه في استقامته، فإننا نجد الكثير من الأمور في حياتنا اليومية يكون الذي يجعلها مفيدة هو شكلها، فمثلاً لو لم تكن عجلات السيارة دائرية لما استطاعت السيارة أن تمشي، ولكن لأن تمام شكل العجلة في دائريتها فكان لا بد أن تكون كذلك، وهذا ما قصدنا بأن تمام الضلع في اعوجاجه مع فارق التشبيه.

٣- إلى كل رجلٍ يظن أنه يملك أفضلية خلقية على المرأة في كونها خُلقت منه، يجب أن يتدبر القرآن جيداً، خصوصاً في سورة آل عمران عند قول الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فاختيار الله سبحانه هنا (عيسى) كمقارنة بينه وبين (آدم) يجعل الإنسان يتفكر ويقول لماذا؟

الجواب: هو أن الله سبحانه أراد أن يقول لنا: (أنت يا آدم، يا أيها الرجل الذي خلقت منك امرأةً بدون عملية جنسية طبيعية، مثلك عندي مثل (عيسى) الرجل الذي خلقته من امرأة بدون عملية جنسية طبيعية، كلكم عندي سواء، ولكني أردت ذلك لحكمةٍ فقلت له: كن فيكون).

ومن هنا نستنتج أن الله لم يفرق بين أصل الخلق، لأن الرجل لايملك أفضلية على المرأة وكلاهما قد خُلقا من أصلٍ مهين، والمرأة التي تقول: (أنا مثل الرجل في خلقتي) فكأنما تقول: (أنا لم أخلق من ضلع أعوج بل من ترابٍ لم يكن شيئاً مذكوراً).. القضية ليس فيها انتصار، وعلى الإنسان أن يعمل بالحكمة من وجوده في طاعة الله والاستخلاف في الأرض وإعمارها، فذلك ما سيجعله سيداً يوم القيامة.

الفصل الرابع

الرب والابن أم النبي؟

وبعد انتهاء عهد المسيح، لم تكن الديانة النصرانية كما هي في شكلها الحالي، ولم يكن هنالك ثالوثٌ مقدسٌ، ولم يكن الصليب رمزاً، بل ولم يقل المسيح يوماً إنني أنا الله، وحتى بعد تحريف الديانة بشكلها الروماني الكاثوليكي الجديد في عهد الإمبراطور قسطنطين، ظل رجال الدين والقساوسة المسيحيون في خوفٍ من أن يضيفوا إلى العهد الجديد من الكتاب المقدس ما يدل على صحة عقيدتهم حول لاهوت المسيح أو الأقانيم الثلاثة.. وهذا ما جعل الشيخ المسلم أحمد ديدات يشهر التحدي بكل ثقة عندما قال: (أضع رأسي تحت المقصلة لو أطلعتموني على نص واحد في كتابكم قال فيه المسيح عن نفسه: «أنا إله» أو قال «اعبدوني»).

ولعلنا نبحر معاً ونقف على سلسلة من الطوائف والصراعات المسيحية التي رفضت أن تخضع لعقيدة الثالوث والصليب.

***

تحدث القرآن عن أتباع الديانة المسيحية تحت اسم (النصارى) ولم يرد فيه لفظ (المسيحية)، وذلك لأن علماء الطوائف المسيحية الرسمية (الكاثوليكية والآرثوذوكسية والأنجليكانية) يُجمعون على أن النصارى

فرقة ضالة غير معتبرة، أما عند المسلمين فالنصارى هم المنحدرون من الحواريين (صحابة عيسى عليه السلام) الذين أيدوه ونصروه دون أن يجعلوه إلهاً أو ابناً لله، وهم الذين تحدث عنهم القرآن في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ [الصف: ١٤] وكان ذلك في قرية الناصرة شمال فلسطين، وهي مكان نشأة السيد المسيح، وإليها ينسب: عيسى الناصري، أما النصارى فسُموا بذلك لأنهم ناصروا المسيح.[1]

ولا شك أن القرآن الكريم قد أثنى على النصارى في غير موضع كقول الله: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٢].

كما قال تعالى واصفاً النصارى: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، ونجد هنالك آيات أخرى لها نفس الطابع.

وسبب توضيحنا هذا الذي سنذكره هو كي لا يُشكل ذلك على أحدهم عندما يقرأ القرآن، فيجد أن الموقف القرآني كان مؤيداً للحواريين والنصارى ومن ثم يتفاجأ عندما يجد الموقف القرآني يذم العقيدة المسيحية والثالوث وتأليه المسيح أيضاً!، فلا يستطيع أن يجمع

---

١ - انظر: مدخل إلى القرآن الكريم في التعريف بالقرآن ص ٣٩.

بين هذه الآيات، فيقع في وهم التعارض! وعليه فقد وجب أن نشير إلى دقة القرآن في التفريق بين الطوائف المسيحية.

فالنصارى ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ [المائدة: ١٤] هم المؤمنون الأوائل الذين كانوا أصحاب موقفٍ صحيح وسليم من دعوة المسيح ولم يقوموا برفعه إلى درجة الألوهية أو الربوبية ولم يجعلوه ابناً لله، وذلك لأن عقيدة الثالوث عقيدة دخيلة على الاعتقاد النصراني القديم والسليم، لذلك استحق النصارى هذا الثناء الرباني.

أما (المسيحيون) وهم من أتباع الطوائف المحرفة، فقد فصل القرآن في ذكرهم واتخذ منهم مواقفَ مختلفة، فنجد أن الموقف القرآني لأتباع الكنائس الرسمية (الكاثوليكية والأنجليكانية) التي جعلت التثليث عقيدة لها يتمثل في قول الله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

أما الكنائس والطوائف الأخرى التي لا تؤمن بكامل عقيدة الثالوث (الرب، الابن، الروح القُدس) مثل الطائفة النسطورية (نسبة إلى مؤسسها نسطور) والتي تؤكد اتحاد اللاهوت والناسوت في شخص المسيح، وأن والدته مريم العذراء ليست سوى إنسان لا غير، ولا يمكن اعتبارها (أم الإله)، فهذا جعل الطائفة النسطورية تتعرض لهجوم كبير من بقية الطوائف، وعلى الرغم من ذلك، فقد لاقت رواجاً كبيراً في العراق وفارس حيث تم تبنيها هناك، فاستقلت الكنيسة النسطورية لتصبح الكنيسة الشرقية في مقابل الكنيسة الغربية، ومع أن الطائفة

النسطورية تفصل مريم عن عقيدة التثليث مستنكرة اعتبارها أمّاً للإله، إلا أن احتفاظها بالأقنومين الآخرين (الأب والابن) قد جعلها في نظر القرآن في مستوى واحد مع الفرقة اليهودية التي قالت بأن «عزيراً ابن الله» ولذلك جمع بينهما القرآن في قوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ [التوبة: ٣٠].

وإلى جانب الفرقة النسطورية، وانقلاباً على تعاليمها، قامت المدرسة الآرثوذوكسية أو اليعقوبية (نسبة إلى مؤسسها يعقوب البرادعي) لتؤكد القول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح (Monophysisme)، فيقول أصحاب هذه الفرقة: إن المسيح أقنوم واحد إلا أنه من جوهرين، (جوهر الإله القديم وجوهر الإنسان المُحدث تركيباً) أي إن المسيح بالنسبة لهم إنسانٌ كله وإلهٌ كله، وبذلك يكونون هم المعنيين بقول الله: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧].[1]

نقطة التحول، وبدايات التثليث

عندما نعود إلى زمن الفلسفة اليونانية القديمة، سنجد أن إحدى المشكلات التي كانت تعترض الفيلسوف، هي حين كان يفكر في العلاقة بين الكائن الأسمى (الله) وهو مجرد عن المادة ليس كمثله شيء، وبين العالم الذي هو مادة، وقد كانت هذه إحدى المشكلات الفلسفية العويصة منذ أفلاطون، فكان الحل الذي اهتدى إليه هؤلاء الأفلاطونيون المحدثون

---

١ - المصدر السابق نفسه ص ٤٨.

هو القول بكائن إلهي وسيط، وكان أفلاطون قد ميز بين الإله المتعالي والإله الصانع الذي صنع العالم بما فيه الإنسان.[1]

وعندما جاءت المسيحية، كان الدعاة لدين المسيح يعرضون مبادئه ورسالته على الناس باللغة اليونانية في وقتٍ كانت فيه المذاهب الفلسفية اليونانية تغزو المنطقة، الأمر الذي أدى إلى حدوث صدامات بين الدعاة المسيحيين وبين حاملي الفكر اليوناني، وقد تبع ذلك محاولات التوفيق بين ما تعطيه الفلسفة اليونانية، وبين ما يعطيه الدين المسيحي، تحديداً في طبيعة المسيح، فالعقيدة المسيحية تقرر أن أم المسيح ولدته من دون أن يمسّها بشر، ولكن المسيح له طبيعة البشر! إذاً هو بشر له أم، ولكن من هو أبوه؟ الجواب: الله نفخ في مريم من روحه، ومن هنا قالوا إذاً: الله هو الأب، وعيسى هو الابن، وبين الأب والابن هناك (روح الله) أو الروح القدس، إذاً هنالك ثلاثة أقانيم أو عناصر، فكيف يمكن تحديد العلاقة بينها؟ تلك هي إشكالية عقيدة التثليث القادمة من معتقدات فلسفية يونانية، وحسب ما يؤكده مؤرخو العقيدة المسيحية، فإن الاعتقاد في الطبيعة اللاهوتية للسيد المسيح أي في كونه إلهاً، لم يترسم إلا بعد نحو قرنٍ من الزمان بعد رحيله، أي عندما حصل الاحتكاك بالفلسفة اليونانية وفي الإسكندرية خاصة، حيث برزت محاولات التوفيق بين العقيدة التي تقررها الأناجيل وبين ما تقرره الفلسفة اليونانية التي كانت قد انتقلت إلى الإسكندرية.[2]

١- انظر: تكوين العقل العربي الفصلين ٩-١٠.

٢- انظر: مدخل إلى القرآن الكريم في التعريف بالقرآن ص ٤٠.

نجد في تاريخ المسيحية أن أحد علماء اليهود المتفلسفين واسمه الأصلي (شاول)، كان من ألد خصوم السيد المسيح عليه السلام عندما كان يهودياً، بل ومن أقساهم على أتباعه، لكنه ما لبث أن اعتنق المسيحية بعد ادعائه لحصول قصة تنصّره الشهيرة والتي ذكر فيها أن المسيح قد ظهر له بعد فترة من صلبه وأنه نهاه ومنعه من إكمال رحلته لدمشق من أجل قتل واضطهاد أتباعه!، ومن هنا، تغير شاول فجأة، وصار من أكبر الدعاة إلى المسيحية، وبدأ أنشطته التبشيرية باسم (بولس الرسول).

الشاهد أن شاول هذا يجمع في شخصيته بين ثلاثة أمور:

١- **الروح اليونانية:** فهو قد عاش في بيئة طرسوس فأشرب فيها من الروح الإغريقية وكان لذلك أثر كبير على أفكاره.

٢- **الديانة اليهودية:** فلقد تدرج بالثقافة اليهودية، وخصوصاً أنه تربى على أعتاب الفيلسوف اليهودي (غمالائيل) في القدس كما تشرب من اليهودية أسلوب الكيد والعمل في الخفاء

٣- **الجنسية الرومانية:** وهذه أعطته الجرأة، فبينما كان غيره يُسجن ويُضطهد كانت هذه الجنسية ترفع عنه مثل هذا النوع من الاضطهاد.[1]

ولذلك يقول مؤرخو الفكر المسيحي إن (شاول/ بولس) أول من قام بالتوفيق بين العقيدة التي بشّر بها السيد المسيح التي تقول بأن الله واحد،

١- انظر: الصفحة السوداء للكتاب المقدس ص ١٠٢.

وبين ترسباته الفلسفية والأفلاطونية التي تقول بضرورة وجود وسيط بين الله والعالم، معتمداً في ذلك على فكرة (التثليث) وقد حدث ذلك حوالي عام أربعين للميلاد.

نشر بولس فكرة التثليث في رحلاته التبشيرية، من سورية إلى آسيا الصغرى، إلى اليونان إلى أسبانيا لتنتهي به الرحلة إلى روما عام ٦٠ م.[1]

وبذلك، كانت يد (شاول/ بولس) هي اليد العليا في نشر وتكريس فكرة التثليث وقد استمرت هذه الفكرة بالتداول لقرون وكانت هي الركيزة الأساسية التي بنى عليها الإمبراطور (قسطنطين) عام ٣٢٥ م في مجمع نيقية المسكوني ما يعرف ب(قانون الإيمان) الذي رسم عقيدة التثليث واعتمدها كديانة رسمية لأسباب سياسية بنظرةٍ من قسطنطين المُحنّك!

ولكن، هل كان الأمر بهذه السهولة؟ أعني إدخال عقيدة جديدة على الديانة الأصلية دون أن ينتفض حول هذه العقيدة بعض النصارى الأصليين؟ هذا ما سنبحثه الآن.

ثورة على الثالوث

لم يقف النصارى أصحاب الديانة الأصلية مكتوفي الأيدي أمام بولس وبطرس وغيرهما من الذين اعتمدوا عقيدة الثالوث كديانةٍ رسميةٍ للمسيحية بعد تأثرهم بالفلسفة اليونانية، بل ظهرت الكثير من الثورات

---

١ – انظر إلى: مدخل إلى القرآن الكريم ص ٤١.

نتيجةً لذلك، فالنصارى الأصليون لا يزيدون في الاعتقاد في شخصية المسيح على كونه النبي الذي بشّرت به التوراة، وأنه ولد من دون أب بنفخةٍ من روح الله، وأنه جاء لتطبيق تعاليم التوراة وتخفيف ما يلزم منها من دون تأليه أو إشراك ثلاثة أقانيم في واحد! لذلك أطلق عليهم بعض علماء المسلمين اسم (الموحدين) كونهم لم يخضعوا لدعوات التثليث التي قام بها بولس وبطرس ممن أطلقوا على أنفسهم اسم (العلماء) زاعمين أنهم وحدهم من أصبح يعرف سر اتحاد اللاهوت والناسوت في شخص المسيح.[1]

ومن هنا بدأت الثورة على هذه العقيدة، وذلك ما سنتناوله بشكلٍ موجز لأبرز تلك الثورات وفقاً للترتيب الزمني:

أولاً: الأبيونية /Ebionistes

عندما بدأ التبشير بالثالوث كعقيدةٍ أساسية في الديانة المسيحية، بدأت محاربة من رفضوا الإيمان بذلك من النصارى الأصليين، بل وتم تضييق الخناق عليهم وتصنيفهم تحت مسمى (الأبيونيين) والتي تعني بالعبرية (الفقراء) أي فقراء الفكر والدين.

ذكرت موسوعة تاريخ أقباط مصر ما رواه القديس يوستينوس (١١٠م -١٦٥م) عن الأبيونيين قائلاً: «إنهم جماعات مختلفة، يحفظون السبت اليهودي والناموس الموسوي حفظاً حرفيّاً، وينادون بأن الختان ضروري

١- المصدر السابق نفسه ص ٤٢.

للخلاص، وأن الناموس القديم فرض على جميع المسيحيين، وقد اعتبروا السيد المسيح إنساناً عاديّاً كسائر البشر، ولد من أب هو يوسف النجار وأم هي مريم».

ونلاحظ هنا حجم التشنيع والتسفيه لهذه الجماعة عندما ادعى القدّيس يوستينوس الذي يؤمن بالثالوث أن الأبيونيين كانوا يعتقدون أن المسيح جاء من أب وهذا لم يثبت تاريخيّاً عنهم على الإطلاق!

ومن ثم يكمل يوستينوس فيقول: «والأبيونية هرطقة ظهرت أيام المسيحية الأولى لكنها لم تصبح مذهباً له أتباع ومراسيم دينية إلا في أيام حكم الإمبراطور تراجان سنة ٥٢ م - ١١٧ م.

عندها أصبح الأبيونيون جماعة كبيرة العدد وانتشروا في منطقة بابل وفي فلسطين والأقطار المجاورة حتى وصلوا إلى روما»

كما يُذكر أن القدّيس غريغوريوس اتهمهم وقال عنهم: «إنهم اتهموا بولس الرسول -صاحب نظرية الثالوث- باتهامات قاسية ووصفوه بأنه متمرد ومارق عن الناموس، وأنكروا سلطانه ورفضوا رسائله، واكتفوا باستعمال النص العبراني لإنجيل متّى (محرفاً) ولا يعيرون الأناجيل الأخرى أية أهمية».[1]

إن من يلاحظ الهجوم الذي تعرض له هؤلاء النصارى الذي رفضوا أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة كأن يتم اتهامهم بالهرطقة والزندقة واعتبار عيسى مولوداً من أب واعتبارهم فقراء فكريّاً ودينيّاً، سيدرك حجم

---

١ - المصدر السابق نفسه ص ٤٣.

القلق الذي أحدثه هؤلاء في تمسكهم بدين المسيح الحق ومنافحتهم ضد إقحام عقيدة جديدة على الديانة الأصلية! وهذا ما لم ينجحوا فيه، فقد طغت عقيدة الثالوث على مستوى العالم أيضاً، مما أدى لعدد من الثورات الأخرى، مرةً بعد مرة.

ثانياً: الآريوسية /Arianism

تُنسب الطائفة الآريوسية إلى الأسقف (آريوس) وهو من مواليد عام ٢٧٠ ميلادية ومن أصول ليبية، ويُعد صاحب أشهر ثورة على الثالوث كونه ذا مكانة دينية رفيعة، فقد كان أسقف الكنيسة القبطية.

أعلن آريوس ثورته عام ٣٢٣م بعد ما أعلن الإمبراطور قسطنطين أن الثالوث ركن من أركان الديانة المسيحية، فاعترض آريوس على القول بألوهية المسيح، مؤكداً بشريته، ومقرراً أن الأب = الله وحده هو الإله، ومن هنا وصف هو وأتباعه ب(الموحدين) بل إننا نجد من كبار مفسري المسلمين من يصفه بالمجاهد وحامل عقيدة التوحيد والمناضل من أجلها، فنجد أن ابن كثير كان يذكره باسم (عبد الله بن آريوس) كنوعٍ من التضامن معه.

وبالعودة إلى الموحد آريوس نجد أنه دائماً ما كان يقول: «إذا كان الله الأب مطلق الكمال، ومطلق السمو، ومطلق الثبات، وإذا كان منشئ كل الأشياء دون أن يكون ذاته صادراً عن أي شيء آخر فإنه من الواضح أن كل شيء وكل شخص آخر في العالم منفصل عن الله، وإذا كان كل

شيء منفصلاً عن الله، فلا يمكن أن يكون هناك إلا إله واحد، ولهذا فلا بد أن يكون المسيح قد خُلق في زمن ما، ولا بد أن يكون معرضاً للتغير والخطيئة وأنه لا يملك معرفة فكر الله».[1]

لقد أحدث اعتراض آريوس على ألوهية المسيح ربكةً في المجتمع على الصعيد الديني والسياسي، مما أدى إلى ظهور مؤيدين ومعارضين له، وهذا ما كانت تخشاه الإمبراطورية البيزنطية كونه يسارع في شرذمة الكيان الواحد ويعرّضه للانهيار، وقد أجبر ذلك الإمبراطور قسطنطين على التدخل لحل المشكلة، فدعا إلى عقد مجمع نيقية المسكوني الشهير (concilie de Nicee) وكان ذلك عام ٣٢٥م، ولكن نتيجة هذا الاجتماع كانت ضد آريوس وأتباعه، فقد تقرر طردهم باعتبارهم فرقة ضالة مبتدعة، وقد تقرر وضع ما يُعرف بـ(قانون الإيمان) وهو القانون الذي اعتمد عقيدة التثليث بشكلٍ رسمي وتم طرد جميع معارضي هذا القانون.

وبعد طرد الآريوسيين واضطهادهم، لم يقفوا عن نشر أفكارهم المناهضة للثالوث، فقد وصلوا إلى سورية وفلسطين والأردن والعراق بل واستطاعوا حتى تحويل معظم أسبانيا إلى الآريوسية بقيادة الكاهن أولفيلا، ويرى معظم الباحثين أن انتشار المذهب الآريوسي التوحيدي في أسبانيا كان أبرز عامل مساعد لسهولة تحول أسبانيا إلى دولة إسلامية

---

١ - المصدر السابق نفسه ص ٤٥.

عندما فتحها طارق بن زياد عام ٧١١ م، ونجد أن الآريوسية التوحيدية وصلت حتى إلى أفريقيا في الحبشة، فالأدلة التاريخية تشير إلى أن النجاشي كان نصرانياً (آريوسياً) وهذا ما جعل المسلمين يفضلون اختيار الهجرة إلى الحبشة عند ذلك الملك الموحد والذي قال عنه رسول الإسلام: إنه ملك لا يُظلم عنده أحد، وذلك كون العقيدة الإسلامية تتفق كثيراً مع العقيدة الآريوسية مما سيولد مودةً وقبولاً بين الطرفين.

وقد تعرضت هذه الفرقة على مر الزمان للاضطهاد والتشريد لمجرد كفرهم بالثالوث المقدس، إذ إن ذلك جعلها فرقة ضالة في نظر المسيحيين الثالوثيين، فنجد مثلاً أن الملك ريكاد الأول وفور اعتناقه للكاثوليكية عام ٥٥٩م بدأ بالقضاء على الآريوسية التوحيدية.

الاضطهاد الذي تعرضت له هذه الجماعة جعلها تحظى باهتمام المسلمين ابتداء بالنبي محمد عليه السلام، فلدينا من الشواهد ما يدل أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد وقف إلى جانب هذه الفرقة حين كان الملوك والأباطرة يعرضونهم للعبودية والتعذيب، فنجد في رسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام إلى هرقل أنه كتب له ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام: أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الآريسيين: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ

إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]».

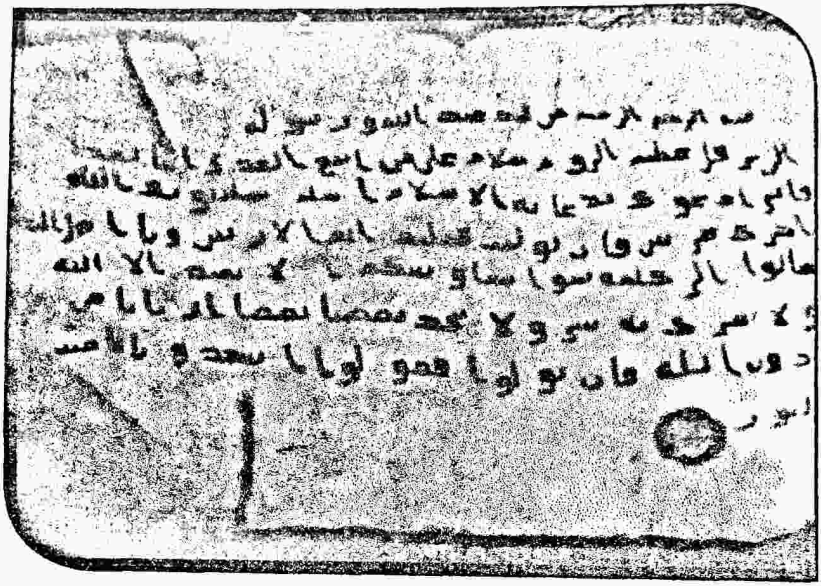

صورة لرسالة النبي محمد إلى هرقل.

إن من يلاحظ في الرسالة النبوية تحديداً في السطر الثالث سيجد أن النبي قد كتب: (عليك إثم الآريسيين) وقد أصابت هذه الجملة بعض المفسرين بالحيرة، فمنهم من فسرها ب(الأكارين) أي الفلاحين، وكأن النبي يقول: (فإن لم تدخل في الإسلام فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام) ومنهم من قال إن الآريسيين هم العشّارون أهل المكس، ومنهم من قال الضعفاء والفلاحون والعبيد، قليل من المفسرين من أدرك أن المقصود بالآريسيين هم الجماعة النصرانية التوحيدية، فنجد من الذين أدركوا ذلك ابن منظور في لسان العرب حيث قال: (قيل إن

الآريسيين هنا هم أتباع عبد الله بن آريوس) وكذلك نجد أن الحافظ ابن حجر العسقلاني في مجموعة كتبه (فتح الباري في شرح صحيح البخاري) أنه قد قال: (إن الآريسيين يُنسبون إلى عبد الله بن آريوس وهو رجل تعظمه النصارى ابتدع في دينهم أشياء مخالفة لدين عيسى) وأضاف (وذكر ابن حزم أن أتباع عبد الله بن آريوس كانوا من أهل مملكة هرقل).

وهذا مما يوحي بأن النبي عليه الصلاة والسلام أدرك أن كثيراً من الذين يعيشون تحت إمبراطورية هرقل هم من الآريوسيين الموحدين، ولذلك حمّله مسؤولية الإثم الذي يترتب عليه إذا هو لم يسلم، لأن عدم إسلامه سيحول دون إسلام رعيته من المؤلفة قلوبهم من الآريوسيين.[1]

ثالثاً: النساطرة / Nestorianism

ما زلت أتعجب عندما أقرأ في الكتب الخاصة بتاريخ وعقيدة الديانة المسيحية من كمية التحامل والإساءة والتسفيه تجاه شخصية مسيحية لها وزنها التاريخي،هذه الشخصية هي شخصية (نسطور) والذي كان بطريرك للقسطنطينية (رئيس أساقفة) عام ٤٢٨م وهو بلا شك منصب عالٍ جدًّا في التدين.

ولكنك عندما تبحث عن سيرته في كتبهم ستجدهم يتحدثون عنه (كمعتوه)! بل إن صفحته التعريفية في موقع الموسوعة المسيحية العربية على الإنترنت تضعه تحت عنوان (نسطور الهرطوقي)!

---

١ - المصدر السابق نفسه ص ٦٩.

بالطبع يحق لأي شخص أن يسأل ويقول:ماذا فعل نسطور حتى يتحول من بطريرك إلى هرطوقي؟ والجواب بكل بساطة هو أن نسطور خلال توليه المنصب أجرى تعديلات دينية، هذه التعديلات ترتكز على عقيدة الديانة المسيحية، حيث نفى نسطور معتقد (ألوهية المسيح) وقال إنه ليس إلا بشراً وُلد من رحم امرأة ويأكل وينام ويموت،وإن المقصود بألوهيته هو أنه يحمل كلمة الله ورسالته وروحه التي ألقاها إليه، ومن هنا بدأ نسطور يجمع أنصاراً، وقام بتغيير مسمى مريم العذراء بشكل رسمي في الكنيسة من (والدة الإله) إلى (والدة الإنسان) مما استفز الوسط المسيحي فدفعهم لعقد اجتماع عام ٤٣١م، وكان هذا الاجتماع هو(مجمع إفسس المسكوني والذي يضم كبار الكنائس من كافة الطوائف)،

فخرجوا بنتيجة (تكفير نسطور وأتباعه) وطرده من منصبه وذلك كونه غير مسيحي وكافراً!

ومن هنا ظهرت طائفة ما زالت موجودة إلى يومنا هذا وهم (النساطرة) الذين عانوا بعد هذا الطرد من الإقصاء والتكفير، بل تم اعتماد عدم دفن أي نسطوري في مقابر المسيحيين مما دفعهم إلى الهجرة للشرق الأوسط حيث انتشروا هناك وأقاموا لهم طقوسهم وكنائسهم، أشهر كنيسة لهم هي كنيسة المشرق الموجودة بالعراق والتي كان اسمها في الماضي (الكنيسة النسطورية)، كما أنهم سكنوا في الجزيرة العربية قبل الإسلام مما شجع عدداً كبيراً منهم على اعتناق الإسلام كون العقيدة الإسلامية تقوم باحتواء عقيدتهم بشكلٍ أقرب من المسيحية التي كانت تضطهدهم وتهرطقهم.

ذكر الدكتور العراقي سعدي المالح في روايته الأخيرة قبل رحيله والتي تحمل عنوان (عمكا) والتي يقصد بها مدينة عنكاوا العراقية، عن كيف كان يتم التحدث عن طائفة النساطرة في العراق على أنهم في ضلال مبين دون أي مراعاة أو احترام لهم، فنجده يذكر في روايته هذه القصة:

«كنتُ جالساً على حافة قبر إسمنتي، فجأة أسمع جدي يحدثني، قلت: أفصح يا جدي فأنا مشتاق لحديثك، ولهذا بعد هذه السنين كلها التي قضيتها في الغربة جئت لزيارتك، قال: أخبرني جدي، وكان اسمه توما مثلي، نقلاً عن والده بويا الذي كان نسطوريّاً، أن هذه التلة كانت في أواخر القرن الثامن عشر مقبرة للنساطرة، والنسطورية مذهب مسيحي

شرقي يؤمن بأن مريم العذراء هي أم المسيح الإنسان وليس الإله، وفي عام ١٨٧٩ م جاء من الموصل أسقفٌ اسمه(يوحنا هرمز) وحولنا من النسطورية إلى الكاثوليكية، وقد كان يقول إن النسطورية هي ضلال وهرطقة، وإن الذي يموت على النسطورية مكانه جهنم الحمراء، ورفع يده فوق المصلين في الكنيسة قائلاً: اليوم جئت لأحلّكم جميعاً وأجعل منكم مسيحيين صالحين، ومنذ ذلك اليوم غدت المقبرة كاثوليكية لا يُدفن فيها النسطوري.

قلت: يا جدي وأجدادكم؟ ألم يموتوا على النسطورية؟ قال: بلى وضحك. قلت: لماذا تضحك؟ ألم يدفنوا هنا في هذه المقبرة؟ قال: كان الناس يبكون على موتاهم لأنهم ماتوا على ضلال، ولا سيما النساء كنّ في ذلك الوقت يكثرن من زيارة القبور والصلاة على الموتى وبالأخص على الذين ماتوا على النسطورية ليغفر الله لهم، لأنهم كانوا جهلاء ولم يأتهم أحد من قبل على مدى اثني عشر قرناً ليخبرهم بالحقيقة! فقلت له: والرجال؟ قال: والرجال أيضاً تضايقوا، حكى لي جدي عن أبيه أنه في أحد الأيام كان القس (يوسف) مارّاً بمحاذاة المقبرة ذاهباً إلى الكنيسة وإذا به

يرى شمّاساً يبكي (الشمّاس لقب ديني) فناداه فلم يجب الشمّاس! ناداه مرة أخرى ولم يُجب أيضاً! فتقدم نحوه وسأله: لماذا تبكي؟ قال: أبكي على أبي، فسأله: ولماذا تبكي عليه الآن بحرقة وقد توفي منذ عشر سنوات؟ قال: أبكي عليه لأنه مات على النسطورية، فهو لن يرى ملكوت السماء!».[1]

---

١ - انظر: رواية عمكا لسعدي المالح ص ٩٣.

وما هذه الرواية وغيرها إلا تلخيصٌ للتشنيع والتكفير الذي تعرضت له هذه الجماعة نظير كفرها بتمام التثليث، في الحقيقة وعبر التاريخ المسيحي ظهر الكثير من الأشخاص وبعض الطوائف التي لم تكن تتقبل فكرة (الثالوث المقدس) الذي تقوم عليه الديانة المسيحية الحالية، ولكن محاربتهم وإخفاء آثارهم وتدريسهم للأجيال الجديدة على أنهم مجانين ومهرطقون هي ما أدت إلى وشك انقراض معتقداتهم عبر التاريخ.

بكل حياد، أرى أن الانتماء لدين فيه صراع عقائدي كبير يثير القلق حيث نجد - وإلى القرن الماضي - أن الطوائف التي تنفي الثالوث المقدس تظهر من جديد، وأنا أعني هنا طائفة (شهود يهوه) والتي تم إسقاط الاعتراف بها أيضًا وقطع التعامل معها ورفض كونها طائفة مسيحية، وهذا ما سنتطرق له في الفقرة التالية.

رابعاً: شهود يهوه / Jehovah's Witnesses

شهود يهوه من الطوائف المسيحية التي ظهرت في نهايات القرن التاسع عشر، ولم يتم إعلانها رسمياً تحت مسمى «شهود يهوه» إلا في عام ١٩٣١ م، وهذا التاريخ يوضح أن هذه الطائفة تعتبر جديدة عطفاً على غيرها من الطوائف، وهذا يعني أن الانشقاق عن المسيحية الكاثوليكية الثالوثية ما زال قائماً حتى في القرن الأخير، لا شك أن طائفة شهود يهوه تعرضت للهجوم وإسقاط الاعتراف بها رسمياً من الكنائس، وهذه نتيجة طبيعية كون شهود يهوه ينكرون الثالوث المقدس بل ويعترضون على أن الصليب رمزٌ للديانة كونهم لا يقرون بأن المسيح قد وُضع على صليبٍ أصلاً، هذا

غير رفضهم للاحتفال بعيد ميلاد المسيح (الكريسميس) وغيره كونها مبنية على تواريخ وثنية زائفة.

***

كنت زائراً لمدينة (ميونخ) في الصيف الماضي، وبينما أنا أتمشى في ساحة مريم (مارين بلاتر) دفعني الفضول إلى دخول كاتدرائية العذراء، وما أن مضيت قدماً لها حتى اعترضتني جماعة في منتصف الطريق وكانوا يهتفون ويحملون ألواحاً عليها كتابات توعوية تنهر الناس عن التحريف في الديانة ولبس الصلبان والصلاة حول المجسمات والتماثيل، وكأنهم لا يريدون لأحدٍ أن يدخل الكنيسة، هنا قررت أن أذهب لهم وأسألهم، ورغم كثرة أعدادهم إذ كانوا في قرابة العشرين شخصاً، إلا أنهم تهافتوا علي جميعاً وكأنهم فرحوا لإقدامي على البحث عن الحقيقة فأغرقوني بالكتب والمنشورات التي تدعو لمعتقداتهم، بل إن كرمهم جعلهم يعطونني كل هذه المنشورات والكتب باللغة العربية وكأنهم قد أعدّوا كل شيء لكل الناس واللغات، وبما أن ما دفعني نحوهم هو الدهشة والتساؤل عن ماهيتهم، قررت أن أسألهم من أنتم؟ فقالوا: نحن شهود يهوه، ورسالتنا أمام الرب هي أن نعيد الناس إلى الديانة المسيحية الحقيقية بعد أن طغت عليها التحريفات الوثنية والتثليث والتجسيم.

- سألتهم: وما هي المسيحية الحقيقية؟ أريد أن أعرف ما الذي يميزكم عن غيركم رغم أنكم تدينون بنفس الكتب؟

- قال كبيرهم: فلنقف على جنب يا ولدي وسأشرح لك كل شيء

باختصار ومن ثم سأعطيك ما يعينك على الفهم من الكتب والمواقع الإلكترونية

كان اسمه (مارتن) ولا أظنه قد عاش أقل من الخمسين عاماً

- بدأ مارتن حديثه وهو يقول: ما يميزنا عن غيرنا أننا نحن الحقيقة وهم المزيفون، فنحن لا نؤمن بالثالوث المزعوم ولا نؤمن بألوهية المسيح أو بالصليب؟

- قلت له: وكيف لا تؤمنون بالثالوث؟

- فقال: حسناً، سأشرح لك الآن، يزعم المؤمنون بعقيدة الثالوث أن الله يتجسد في ثلاثة أقانيم أو أشخاص (الأب والابن والروح القدس) وهذه الأقانيم الثلاثة متساوية، سرمدية، وقادرة على كل شيء، لذلك تُعلّم عقيدة الثالوث أن الأب هو الله، الابن هو الله، الروح القدس هو الله أيضاً، وجميعهم إله واحد هو الله!

يقرّ العديد ممن يؤمنون بعقيدة الثالوث أنهم عاجزون عن تفسير هذه العقيدة، ومع ذلك لديهم اعتقاد قوي بأن هذه العقيدة تستند على الكتاب المقدس والأناجيل، رغم أنهم يعلمون أن كلمة «ثالوث» لم ترد البتة في الكتاب المقدس، بل حتى لو تأملنا في الآيات التي يزعمون أنها تحمل مضمون الثالوث لوجدنا عكس ذلك، ودعني أرِك هنا بعض الأمثلة:

جاء في إنجيل يوحنا الأصحاح الأول: (فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ.) وقد قالوا بأن الكلمة هنا هو

الرب يسوع ولكن بما أن الكلمة هنا بحسب هذه الترجمة هو الله، فإنهم يستنتجون من هذه الآية أن الابن والأب هما أقنومان في إله واحد!

هم تناسوا أن هذا القسم من الإنجيل كُتب في الأصل باللغة اليونانية وفي وقتٍ لاحق نقل التراجمة النص اليوناني إلى لغات أخرى، لكن عدداً من تراجمة الكتاب المقدس لم يستخدموا عبارة (وكان الكلمة الله) والسبب أن هؤلاء التراجمة أدركوا وبناء على معرفتهم باللغة اليونانية

أن عبارة (وكان الكلمة الله) يجب أن تترجم إلى طريقة مختلفة ولذلك ظهرت في ترجمات أخرى للأناجيل بأشكال مختلفة، نجد أنها وردت في الإنجيل الإلهي الشريف للآرثوذكس (إلهاً كان الكلمة) وفي الترجمة الإنكليزية الجديدة للكتاب المقدس وردت (الكلمة كان مع الله وكان له الطبيعة نفسها)، وتشير هذه الترجمات إلى أن الكلمة ليس الله نفسه، وهذا اختلاف كبير في الترجمات يفرّق بين الله والكلمة وأنهما لم يكونا الشيء نفسه.

ولنتأمل مثلاً ما جاء في إنجيل يوحنا في الإصحاح الأول أيضاً (اللهُ القادر لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ) ولكن الناس رأو يسوع الابن، فكيف يُعقل إذاً أن يكون الابن هو نفسه الله القادر على كل شيء؟ فضلاً عن ذلك، قال يوحنا في إنجيله: (والكلمة كان عند الله) فكيف يمكن أن يكون الشخص عند شخص آخر ويكون هو نفسه ذلك الشخص الآخر في آن واحد؟ علاوة على ذلك، جاء في إنجيل يوحنا أيضاً أن يسوع يميز بوضوح بينه وبين أبيه السماوي، فهو يدعو أباه (الإله الحق الوحيد) ويقول يوحنا في نهاية

إنجيله: (كتبت هذه لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله)! فهل لاحظت أن يسوع في الكتاب المقدس لا يُدعى الله، بل ابن الله!؟ وهذا في معناه أن له مركزاً رفيعاً لكنه ليس هو القادر على كل شيء، تماماً مثل سائر الأنبياء الذين ذكرهم الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد على أنهم أبناء الله أيضاً كنوع من التقدير والإجلال.

ودعنا نذهب إلى إنجيل متّى لنتأمل المزيد من البراهين، ففي معرض الحديث عن نهاية نظام الأشياء، ذكر إنجيل متّى ما قاله يسوع: (أَمَّا ذَلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلَا يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ وَلَا مَلَائِكَةُ السَّمَاوَاتِ إِلَّا أَبِي وَحْدَهُ) ألا تثبت هذه الكلمات أن يسوع ليس الله القادر على كل شيء؟

في هذه الآية يقول يسوع إن الأب يعرف أموراً لا يعرفها هو الابن، فلو كان يسوع هو نفسه الله القادر على كل شيء، أفلا يفترض أن يعرف كل هذه الأمور التي يعرفها أبوه؟ إذاً، لا يُعقل أن يكون الابن والأب متساويين، على الرغم من ذلك، قد يدعي البعض أن يسوع كانت له طبيعتان، وفي هذه الحادثة كان يتكلم كإنسان، ولكن حتى لو صح ذلك، فماذا عن الروح القدس؟ لو كان الروح القدس جزءاً من الإله نفسه تماماً مثل الأب، فلمَ لم يقل يسوع إن الروح يعرف ما يعرفه الأب؟

- لم أجب على سؤاله هنا بقدر ما أردت أن أسأله سؤالاً آخر عن الصليب، ولماذا لا يؤمنون به؟

- يقول (مارتن): يُقدّس ملايين الناس حول العالم الصليب في العبادة، ويرون أنه أهم رمز من رموز الديانة المسيحية، ولكن

المسيحيين الحقيقيين لا يستخدمون الصليب في عباداتهم، والسبب خلف ذلك هو أن يسوع لم يمت على الصليب! فالكلمة اليونانية التي وردت في الإنجيل الأصلي (ستافروس) والتي تُترجم عادة إلى (صليب) تعني من حيث الأساس (عموداً أو وتداً)!

وتقول إحدى الطبعات المفسّرة للكتاب المقدس باللغة الإنكليزية (the companion Bible) إن كلمة (ستافروس) لا تعني مطلقاً قطعتين من الخشب متقاطعتين بشكل ما، ولا يوجد شيء في اللغة اليونانية للعهد الجديد يدل حتى على قطعتين من الخشب!

وفي عدد من الآيات، يستخدم كتبة الإنجيل كلمة أخرى للإشارة إلى الأداة التي مات عليها يسوع، الكلمة اليونانية هي (كسيلون) وتعني هذه الكلمة (قطعة خشب كبيرة) أو (جذع شجرة).

أما الدليل القاطع والأهم على أن المسيح لم يمت على صليب فنجده في كلمة الله، فقد قال الرسول بولس: «المسيح بشرائنا، حررنا من لعنة الشريعة إذ صار لعنة عوضاً عنا، لأنه مكتوب في الكتاب المقدس: (ملعون كل معلق على خشبة)».

لقد اقتبس بولس هذه الآية من سفر التثنية الإصحاح رقم(٢١) وهي تشير بوضوح إلى خشبة لا إلى صليب، ولما كانت طريقة الإعدام هذه تجعل من الشخص (لعنة) فليس لائقاً أن يضع المسيحيون في منازلهم صوراً وتماثيل تُظهر المسيح مصلوباً!

ومن جهة أخرى، ما من دليل على أن الذين ادّعوا المسيحية استخدموا

الصليب في العبادة في السنوات الثلاثمئة التي تلت موت المسيح، ولكن في القرن الرابع، اعتنق الإمبراطور الوثني (قسطنطين) المسيحية الزائفة التي تفشت بها الطقوس الوثنية، وكان قد روّج للصليب رمزًا لها آنذاك، وبغض النظر عن الدوافع التي حدت بقسطنطين إلى القيام بذلك.[1] إلا أنه لا علاقة للصليب بالمسيح، وإنما يرجع أصله إلى الوثنية، حيث تقر دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة بذلك فتقول: (كان الصليب موجوداً في الحضارات التي سبقت المسيحية وفي الحضارات غير المسيحية)، كما يقرن علماء آخرون الصليب بعبادة الطبيعة والطقوس الجنسية الوثنية.

أما لماذا جرى الترويج لهذا الرمز الوثني؟ كان السبب على ما يتضح لنا هو تسهيل اعتناق المسيحية الاسمية على الوثنيين، بينما الكتاب المقدس يدين بشدة وبوضوح التعبد لأي رمز وثني بل ويحرّم حتى جميع الأشكال الصنمية كما ورد في سفر الخروج في الإصحاح الخامس!

يمكننا القول بأن المسيحيين الحقيقيين مثل (شهود يهوه) لديهم سبب وجيه للامتناع عن استخدام الصليب في العبادة.

- قلت لمارتن هنا: لفت انتباهي هنا أنك ضد التماثيل والأصنام التي تُجسد المسيح وأمه العذراء!

- فقاطعني مسرعاً وهو يقول: نعم نعم بلا شك! يحتفظ بعض المسيحيين اليوم في منازلهم بصور وتماثيل منذ سنوات ويظنون

---

١ - لقراءة بعض هذه الدوافع السياسية لقسطنطين انظر إلى: كتاب أقومُ قِيلاً لسلطان الموسى فصل: رحلتي إلى الفاتيكان.

أن الصلاة إلى الله لا تكون صحيحة بدون هذه المساعدات المادية! فيشعرون بأنهم متعلقون بها ولايمكنهم التخلص منها، وكأنهم تناسوا أن الله قد حدد طريقة العبادة التي يرضاها في الكتاب المقدس، فقد أخبرنا الله أنه لا يريد منّا أن نستخدم صوراً وتماثيل في عباداتنا للتقرب له، فقد جاء في سفر الخروج الإصحاح رقم (٢٠): (لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتًا، وَلَا صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ) وكذلك ما جاء في سفر المزامير في المزمور رقم (١١٥): (إِنَّ إِلهَنَا فِي السَّمَاءِ، كُلَّمَا شَاءَ صَنَعَ أَصْنَامُهُمْ فِضَّةٌ وَذَهَبٌ، عَمَلُ أَيْدِي النَّاسِ،لَهَا أَفْوَاهٌ وَلَا تَتَكَلَّمُ، لَهَا أَعْيُنٌ وَلَا تُبْصِرُ لَهَا آذَانٌ وَلَا تَسْمَعُ. لَهَا مَنَاخِرُ وَلَا تَشُمُّ، لَهَا أَيْدٍ وَلَا تَلْمِسُ. لَهَا أَرْجُلٌ وَلَا تَمْشِي، وَلَا تَنْطِقُ بِحَنَاجِرِهَا، مِثْلَهَا يَكُونُ صَانِعُوهَا، بَلْ كُلُّ مَنْ يَتَّكِلُ عَلَيْهَا(وأيضاً ما ورد في سفر أشعياء الإصحاح رقم(٤٢): (أَنَا الرَّبُّ هذَا اسْمِي، وَمَجْدِي لَا أُعْطِيهِ لآخَرَ، وَلَا تَسْبِيحِي لِلْمَنْحُوتَاتِ)!

كل ذلك وأكثر بلا شك يدعو لنبذ التماثيل والمنحوتات والصلبان كونها رموزاً وثنية، وفي ذلك تأكيد أن العبادة الحقة يجب أن تخلو مما لا يرضاه الله، وعلى كل مسيحي حقيقي أن يتلف كل ما يملكه من رموز وأصنام مما له علاقة بالعبادة الباطلة![1]

وفور انتهاء (مارتن) من حديثه حول أساس الخلاف بين طائفة

---

١ – للمزيد انظر إلى: كتاب (ماذا يعلّم الكتاب المقدس حقّاً؟

(شهود يهوه) وبين الطوائف المسيحية الأخرى، دار حوارٌ جانبي بيني وبينه حول رفض طائفة (شهود يهوه) لفكرة التبرع بالدم، فهم يرون أن الدماء مقدسة ويجب احترام هذه القدسية، فهم يقولون: كما حُرّم علينا تناول الدماء لقدسيتها، فإنه حُرّم علينا سفكها وكذلك تناقلها، بل إنهم يرون حتى أن الحالات الصحية الحرجة التي يحتاج فيها المريض إلى نقل دماء تتعارض مع احترام قدسية الدم، وأنه لو استطاع المريض أن يصبر على القدر فيخسر حياته الدنيوية أفضل من أن ينقذها بمخالفة أمر الله ويخسر حياته الأبدية يوم القيامة!

***

لاحظنا في الفترة الأخيرة، انشغال بعض القنوات المسيحية التبشرية بتخصيص برامج تهاجم فيها الإسلام والقرآن وتنافح فيها عن فكرة الثالوث وصلب المسيح ونحوه، فأردنا في هذا الفصل أن نبين أن القرآن الكريم لم يكن أول من نزّه المسيحية الحقة عن هذه العقائد الدخيلة، وإنما تاريخ المسيحية نفسه هو من خلّد هذه الثورات ضد الثالوث والصلب وتأليه المسيح، وأن البيت المسيحي نفسه يعاني من هذا النزاع العقائدي منذ أن رفع الله المسيح، وما كان الخطاب القرآني الذي نزل على النبي العربي، إلا مصححاً للعقائد الوثنية والدخيلة على النصرانية، ومتمماً لها، ومبيناً أن عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله.

الفصل الخامس

أرض الميعاد

أن يكون للإله شعبٌ خاصٌّ به، وقبيلة مختارةٌ له، يكرمها ويمنحها وعداً وميثاقاً بامتلاك أرضٍ خاصة بهم وكأن ذلك الإله رجلٌ عقاري! هي فكرة ليست بالجديدة، فمعظم الشعوب القديمة بشكلٍ عام وبكل دياناتها تلقت وعوداً من آلهتها للحصول على أراض ليست لها، ففي مصر وعلى مسلة الكرمك التي أقامها تحتمس الثالث (١٤٦٩-١٤٣٦ ق.م) جاء على لسان الإله: (إني أمنحك بقرار هذه الأرض بالطول والعرض، إني جئت وأعطيت الحق في سحق أراضي الغرب)! وقد جاء أيضاً في قصيدة الخلق البابلية أن الإله مردوخ قد قسّم الأرض بين الشعوب، وأعطى لكل شعب نصيبه من الأرض، وكذلك ما ورد عند الحثيين في نشيد مرفوع للإلهة أرينا -إلهة الشمس- (أنتِ تسهرين على حفظ السماوات والأرض وتقيمين حدوداً للبلاد)، ولكن المفارقة أن جميع هذه الوعود الإلهية لم تصل إلى درجة التعصب الأعمى (للشعب المختار) وجواز القتل والمجازر للوصول إلى تحقيق الوعد كما هو الأمر عليه عند الشعب اليهودي الذي اعتبر الوعد الإلهي وثيقة تاريخية يجب الإقرار بها من قبل كل الشعوب والأمم في كل مكان وزمان.[1]

١- انظر: نقد النص التوراتي د. إسماعيل الصمادي ص ١٣٧.

فالعقيدة اليهودية التي تنص على أن الرب خلق له شعباً خاصّاً به وسيورثهم الأرض الموعودة وسينافح عنهم حتى يرثوها وسيقاتل معهم، نتجت عنها عقيدة عجيبة عند اليهود، فهم يرون -طبقاً للتلمود- أن الرب قام بتقسيم البشر إلى قسمين:

القسم الأول وهم اليهود شعبه المختار، وبالطبع نحن نتحدث عن اليهود هنا بصفتهم قبيلة لا ينتمي لها غيرهم في دلالة واضحة على أن هذا الدين ليس له علاقة بدعوة الآخرين إلى عبادة الله!

أما القسم الآخر فهم (الغوييم) أي الأميون الجاهلون وهم سائر البشر من غير اليهود، فالتصور اليهودي عن الغوييم أنهم عبارة عن حيوانات خلقهم الرب بصورة آدمية ليكونوا خدماً لليهود! وهم فاسدون ومدنسون وبالتالي فكل عقائدهم مزورة، لذا يجب عدم الاختلاط بهم حتى لو جلب ذلك كره الغوييم، كي لا يتدنسوا بهم، لأن الغوييم في محل الكلاب والخنازير، وبيوتهم كالحظائر، بل وإنهم دواب خلقهم الله كي يمتطي اليهود عليهم، وأن كل أذية يفعلها بهم اليهود تشكّل تقرباً إلى الله، بل جاء في التلمود أن قتل المصلحة من الغوييم هو ضمانة لاستمرار وجود اليهود، وقد شرّع التلمود لليهود أن يتعاملوا مع الغوييم(الآخرين) بمعيار يكون جوهره الأخلاقي المصلحة الخاصة لليهودي، وبذلك فقد حرّم التلمود على اليهود إنقاذ أي إنسان من غير اليهود، كما حرّم على الطبيب اليهودي أن يعالج غير اليهودي!

أما لو كان ووُجد إنسان طيب ورفيع الأخلاق من الغوييم فإن

التلمود اليهودي يرى أن هذا الرجل حالة استثنائية، فهو يحمل جسد الغوييم ولكن حلت عليه روح يهودية عن طريق الخطأ!

وقد أدى هذا التصور الاستعلائي، العنصري، الشوفيني، إلى عزلة اليهود، وعدم اندماجهم في المجتمعات، كما ساهم في تشكيل الروح العدوانية العنصرية ضد الآخرين، والذي بدوره أثار العداء لليهود وساهم في تشكيل ما يدعى ب(معاداة السامية)، فاندلعت بذلك نار العنصرية والتطرف بين الجبهتين.[1]

***

ابتدأت قضية أرض الميعاد فلسطين (والتي ما زالت محاولات اليهود مستمرة لتبرير ملكيتهم لها وفقاً لكتابهم المقدس (التوراة) عن طريق تحريف النصوص وتأويلها بشكلٍ عجيب) من النص التوراتي الذي وعد الله فيه إبراهيم أن يمتلك هذه الأرض له ولذريته، فقد جاء في سفر التكوين الإصحاح (١٢:٦) (وَاجْتَازَ أَبْرَامُ فِي الأَرْضِ إِلَى مَكَانِ شَكِيمَ إِلَى بَلُّوطَةِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأَرْضِ. وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ». فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ).

وهنا يتضح أن الأرض التي أعطى الرب تمليكها لإبراهيم/ أبرام ليست أرضاً بكراً، بل هي أرض يقيم عليها أقوام آخرون! وفي مرحلة لاحقة يتلقى إبراهيم/ أبرام وعداً آخر يتحدد فيه شيء من جغرافيا

١- المصدر السابق نفسه ص ٤٠-٤١.

الأرض الموعودة، والتي ستكون له ولذريته إلى الأبد، وهي في مساحتها تساوي ما تستطيع عين المرء أن تراه، فقد جاء في سفر التكوين (١٣): (وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ، بَعْدَ اعْتِزَالِ لُوطٍ عَنْهُ: ارْفَعْ عَيْنَيْكَ وَانْظُرْ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ شِمَالاً وَجَنُوبًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا، لأَنَّ جَمِيعَ الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ تَرَى لَكَ أُعْطِيهَا وَلِنَسْلِكَ إِلَى الأَبَدِ)!

ومن ثم يعود الرب لتذكير إبراهيم/ أبرام بالوعد الذي تتسع جغرافيته كثيراً (ثُمَّ غَابَتِ الشَّمْسُ فَصَارَتِ الْعَتَمَةُ، وَإِذَا تَنُّورُ دُخَانٍ وَمِصْبَاحُ نَارٍ يَجُوزُ بَيْنَ تِلْكَ الْقِطَعِ. فِي ذلِكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقًا قَائِلاً: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ) - سفر التكوين (١٥).

ولما بلغ أبرام/ إبراهيم من العمر ٩٩ سنة، جاءه ملاك الرب وقال له إن اسمه أصبح (إبراهيم) وتابع قوله: (فَلاَ يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدُ أَبْرَامَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ، لأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ. وَأُقِيمُ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ، عَهْدًا أَبَدِيًّا، لأَكُونَ إِلهًا لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. وَأُعْطِي لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ، كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَدِيًّا. وَأَكُونُ إِلهَهُمْ». وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ: «وَأَمَّا أَنْتَ فَتَحْفَظُ عَهْدِي، أَنْتَ وَنَسْلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ، هذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي تَحْفَظُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ: يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ، فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ، فَيَكُونُ عَلاَمَةَ عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) - سفر التكوين(١٧).

وهنا ينفتح الوعد إلى عهد بين الطرفين (الرب وإبراهيم) والعهد هذا يكون بالختان الذي يجب أن يقوم به النبي إبراهيم وذريته من بعده، وقد قلّص الرب جغرافيا الأرض الموعودة على أرض كنعان فقط، ولكنه عوّض عن ذلك بتأكيد أنه (عهد أبدي لإبراهيم ونسله من بعده).[1]

ونحن كمسلمين لا ننكر أن الله قد عاهد إبراهيم أن يجعله إماماً ولكن لم يكن لعهده هذا أي علاقة بامتلاك أرض! فغايات الأنبياء ورسالاتهم هي لأهداف دينية وليست دنيوية، فنجد ما ورد في سورة البقرة بعد آياتٍ كان الله سبحانه يذكّر فيها بني إسرائيل بفضله عليهم والذي جحدوه فقال: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] وحتى لو سلمنا جدلاً أن عهد الله لإبراهيم يقتضي امتلاك أرض فإن في الآية نصّاً صريحاً بأن عهد الله لا ينال الظالمين، وليس كما ورد في النص التوراتي بأنه عهد الله لذرية إبراهيم للأبد، فالأرض يرثها عباد الله الصالحون، وأنا هنا لا أرمي اليهود بعدم الصلاح العقائدي، فهم أنفسهم يعرفون جيداً -وطبقاً لعقيدتهم- لماذا ينتظرون المسيح المخلص إلى اليوم ولماذا عليهم أن لا يمتلكوا وطناً قبل أن يبعثه الله لهم! إيمان الكثير من اليهود بالعقيدة الصحيحة لهم وبأن عليهم أن يتيهوا في الأرض نظير عدم صلاحهم، هو ما جعل الكثير من اليهود حول العالم يخرجون في مظاهراتٍ تدين الصهيونية وتنافح عن حق الفلسطينيين في الأرض!

---

١ - المصدر السابق نفسه ص ١٣٨.

لذلك أراد الله سبحانه تنزيه إبراهيم من هذه المقاصد اليهودية الدنيوية عندما قال: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٥] وكذلك: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧] وقوله: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ ﴾ [الحج: ٧٨] كل هذه النصوص لتبيان أن إبراهيم كان مسلماً حنيفاً مستسلماً لله ومنقاداً له بالطاعة ولم يكن تابعاً للديانات التي جاءت بعده غير الحنيفية السمحة.

وبالعودة إلى النص القرآني الذي ذكرناه في سورة البقرة، نجد أن الله قد قال: ﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وهنا تبيانٌ واضح لعهد الله لنبيه إبراهيم بتطهير بيت الله ليكون للناس (كافة) والطهارة تنافي الحقد والعنصرية والقتل، والمفارقة العجيبة هنا أن عهد الله شمل إبراهيم وابنه البكر إسماعيل كما يتضح من الآية، ولا يشك أي يهودي أن إسماعيل هو ابن إبراهيم البكر والذي سبق إسحاق بحوالي أربعة عشر عاماً! ولكننا سنتوقف الآن ونلقي نظرة على التوراة لنلاحظ أمراً عجيباً!

وهذا الأمر العجيب هو أن الله الرب يعطي عهده لإبراهيم و(إسحاق) رغم أن إسحاق لم يكن قد ولد بعد! ليخرج بذلك إسماعيل البكر من

هذا العهد كما ورد في النص التوراتي: (وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ للهِ: «لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعِيشُ أَمَامَكَ!». فَقَالَ اللهُ: «بَلْ سَارَةُ امْرَأَتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِه مِنْ بَعْدِه. وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيه. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. اثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً وَلَكِنْ عَهْدِي أُقِيمُهُ مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي تَلِدُهُ لَكَ سَارَةُ فِي هذَا الْوَقْتِ فِي السَّنَةِ الآتِيَةِ.) -سفر التكوين ١٧-

ويأتي بعد ذلك النص التوراتي الذي يخاطب الرب فيه اسحاق ويذكره بالعهد الذي قطعه مع والده إبراهيم بأن يعطيه الأرض فيقول: (تَغَرَّبْ فِي هذِهِ الأَرْضِ فَأَكُونَ مَعَكَ وَأُبَارِكَكَ، لأَنِّي لَكَ وَلِنَسْلِكَ أُعْطِي جَمِيعَ هذِهِ الْبِلاَدِ، وَأَفِي بِالْقَسَمِ الَّذِي أَقْسَمْتُ لإِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ) -سفر التكوين ٢٦-

ومن ثم ينتقل عهد الله بتسليم الأرض إلى يعقوب من بعد إسحاق فيقول النص التوراتي إن الله خاطب يعقوب فقال له: (أَنَا الرَّبُّ إِلهُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ. الأَرْضُ الَّتِي أَنْتَ مُضْطَجِعٌ عَلَيْهَا أُعْطِيهَا لَكَ وَلِنَسْلِكَ) -سفر التكوين ٢٨-

ومن التسلسل السابق نلاحظ في البداية أن العهد الذي قطعه الرب مع إبراهيم كان معه ومع نسله دون تحديد! وبعد مدة يتم تحديد العهد بين الرب وبين إسحاق فقط من سلالة إبراهيم مع تجاهل تام وغير مبرر لإسماعيل البكر (جد العرب) لأنه لا يحمل صفاء الدم العبري كونه ابن هاجر الجارية! وبعد ذلك يقتصر وعد الرب وعهده على يعقوب،

ويستبعد أخاه الأكبر عيسو والذي كان صياداً، فيبدو أن عقلية الصياد لا تتلاءم مع مفهوم الملكية العبرية اليهودية، لأن الصياد لا يميل إلى نمط الملكيات الخاصة، أما الراعي الذي بتدجينه الحيوانات عرف مفهوم الملكية، وبذلك فإن يعقوب وسلالته هم المناسبون للاستفراد بتوارث العهد لا سيما وأن يعقوب يتقن فن الخدعة طبقاً للصورة التوراتية عن هذا النبي الكريم حاشاه.

فالتوراة تظهر يعقوب بأنه حصل على النبوة وبركة البكورية بعدما خدع والده الأعمى إسحاق عندما تنكر على شكل أخيه الأكبر عيسو ووضع فروا على رأسه واستغل خروج أخيه للصيد، فاندس تحت والده وقال له: (أنا عيسو فباركني لأكون نبيّاً) وبذلك خدع يعقوب والده وسلب النبوة وبركة البكورية من أخيه الذي يستحقها! التوراة لا تصور يعقوب بالمخادع فقط، بل تصوره بالرجل الشجاع الذي صارع الرب، تحديداً في القصة التي وردت في سفر التكوين عن سبب تسمية يعقوب بإسرائيل، والتي تقول بأن يعقوب تصارع مع الرب أثناء عودته من طريق السفر ليلاً، فظلا يتصارعان حتى طلوع الشمس، وانتصر يعقوب في هذا الصراع وطلب منه الرب -والذي كان متجسداً في صورة إنسان- أن يطلق سراحه قبل طلوع الشمس وكأن الرب هنا شبحٌ يخشى النور، ولكن يعقوب لم يفعل ذلك إلا بشرط أن يباركه الرب، فباركه الرب وغير اسم يعقوب إلى إسرائيل، والذي يعني عند اليهود التلموديين (صارع الإله) ليوحي ذلك بأن يعقوب حصل على بركة النبوة بالخداع وحصل على بركة الرب بالقوة لا بالمنح.

وهذا لا علاقة له بمعنى إسرائيل الذي يؤمن به المسلمون، فهو بالنسبة لهم مجرد لقب بمعنى (عبد الله)، فكلمة (إسر) جاءت من الأصل الآرامي بمعنى (عبد)، ومنها ما جاء في اللغة العربية (أسرى،أسير)، أما (إيل) فهو اسم من أسماء الله بالعبرانية، نجده أيضاً في أسماء الملائكة مثل (جبرائيل، ميكائيل) وبالتالي فإن معنى إسرائيل عبد الله وليس صارع الله، تعالى الله عن ذلك! ولكن هذه القصة غير المحبوكة والتي تريد أن تبرر لليهود استحقاقهم للأرض لا تفسر كيف يتكافأ الرب بالقوة مع رجلٍ من مخلوقاته؟ وكيف يخسر الرب الصراع؟ ولماذا يخاف من الظلام؟ وكيفَ يجهل اسم يعقوب فيسأله من أنت؟ وكيف عرف يعقوب أن هذا هو الرب متجسداً في صورة إنسان فطلب منه البركة ولم يضع أي احتمال بأن هذا الشخص الذي هجم عليه ربما يكون قاطع طريق؟!

الغاية من كل هذه الغربلة التي قام بها كتبة التوراة هي لينتهي الأمر إلى شعب الله المختار! فاستبعدوا إسماعيل الابن الأكبر لإبراهيم وتركوا العهد ينتقل إلى إسحاق، ومن ثم طمسوا عيسو الصياد والابن الأكبر لإسحاق وجعلوا العهد ينتقل إلى يعقوب الراعي، وحتى يعقوب وضعوا رواية غريبة لتلقيبه بإسرائيل ليكون إسرائيل بداية جديدة، ولليهودية تعود الحنيفية، وأتباعهم فقط هم شعب الله المختار، ولهم فقط يعود حق امتلاك الأرض![1]

***

إن فشل المحرر التوراتي في التوفيق بين هذه الروايات ظهر في غير

---

١ - المصدر السابق نفسه ص ١٣٩-١٤٠.

موضع، وعلى الرغم من أن الأمثلة شائكة وطويلة، إلا أنني سأحاول سرد أبرزها وأهمها، والذي يبين وجود تناقضات وتلاعبات إما في محاولات ادعاء استحقاق ملكية الأرض أو إخفاء أن الأرض لجميع الصالحين وليست لليهود فقط أو شعب الله المختار

لعلنا نبدأ هنا بالموضع الأول، وهو في قصة دخول سيدنا إبراهيم لأرض فلسطين قبل الفلسطينيين! فنحن نريد أن نتثبت حقّاً، من دخل قبل الآخر!

من دخل أرض الميعاد قبل الآخر؟ إبراهيم أم الفلسطينيون:

تذكر التوراة وشُرّاحها أن إبراهيم الخليل وابن أخيه النبي لوطاً وقومهما هاجروا من (حاران)ودخلوا أرض كنعان(فلسطين) عام ١٨٠٠ قبل الميلاد تقريبًا حيث جاء في النص التوراتي في سفر التكوين أن إبراهيم الخليل عندما دخل كنعان (فلسطين) كان عمره آنذاك ٧٥ عاماً (فَذَهَبَ أَبْرَامُ كَمَا قَالَ لَهُ الرَّبُّ وَذَهَبَ مَعَهُ لُوطٌ. وَكَانَ أَبْرَامُ ابْنَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً لَمَّا خَرَجَ مِنْ حَارَانَ) - سفر التكوين ١٢-

كما تذكر مقدمة التوراة تحت عنوان (مدخل إلى العهد القديم) ما يلي:

«ازداد اتحاد القبائل متانة يوماً بعد يوم في القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد، وكان من أبرزهم الفلسطينيون الذين نزلوا إلى الشاطئ الفلسطيني في مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد، والذين كانوا أخطر منافس لبني إسرائيل للاستيلاء على فلسطين»[1]

---

١ - انظر: كتاب أب شو إبليس - محمود الكبرا ص ٢٣.

نستنتج مما سبق أن:

١- دخول إبراهيم فلسطين عام ١٨٠٠ق.م.

٢- دخول الفلسطينيين لفلسطين عام ١٢٠٠ق.م، إذًا إبراهيم سبق الفلسطينيين ب ٦٠٠ سنة، اتفقنا؟

الآن ننتقل إلى نص توراتي آخر يناقض ذلك كله، فقد جاء في سفر التكوين أن إبراهيم نزل ضيفًا عند (أبي مالك) ملك (فلسطين)!

(وَحَدَثَ فِي ذلكَ الزَّمَانِ أَنَّ أَبِي مَالِكَ وَفِيكُولَ رَئِيسَ جَيْشِهِ كَلَّمَا إِبْرَاهِيمَ قَائِلَيْنِ: «اللهُ مَعَكَ فِي كُلِّ مَا أَنْتَ صَانِعٌ) -سفر التكوين ٢١ -

فإذا افترضنا أن ابراهيم سبق الفلسطينيين بـ ٦٠٠ عام فكيف أدرك الملك أبي مالك؟ هل عاش إبراهيم ٦٠٠ عام إلى أن دخلها الفلسطينيون؟! وحتى هذا لا يصح لأن إبراهيم سيكون قد مات إذاً،

فقد جاء في التوراة أن إبراهيم مات وعمره (١٧٥ سنة) وذكرنا سابقًا أنه دخل فلسطين وعمره ٧٥ سنة يعني لم يعش غير ١٠٠ سنة هناك!؟

(وَهذِهِ أَيَّامُ سِنِي حَيَاةِ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي عَاشَهَا: مِئَةٌ وَخَمْسٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً.) -سفر التكوين ٢٥-

و هنا نسأل من أين جاءت الـ ٥٠٠ سنة؟ وكيف أدرك إبراهيم الملك (أبي مالك) الذي كذب عليه بشأن زوجته سارة عندما قال عنها إنها أخته وإلى آخر القصة!؟

الجواب هو بالتأكيد أن ذلك حدث نتيجة لتحريفات كُتّاب التوراة ومدونيها، والذين أرادوا من خلال ذلك إقرار أمرين وتعليقهما في أذهان الناس حتى ولو بالتدليس،وهذان الأمران كالتالي:

أولاً: أن اليهود وُجدوا في فلسطين قبل الفلسطينيين ب ٦٠٠ عام وأن الفلسطينيين هم المحتلون (رغم وجود تناقضات توراتية تؤكد عكس ذلك).

ثانيًا: الرغبة في تضييع حقبة مهمة في حياة إبراهيم ورحلته إلى مكة وقصة تضحيته بابنه إسماعيل التي حدثت هناك،حيث نلاحظ في النص التوراتي هنا يقول: (وَتَغَرَّبَ إِبْرَاهِيمُ فِي أَرْضِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ أَيَّامًا كَثِيرَةً) حتى يتم إيهام القارئ بأن إبراهيم استوطن وعاش هناك ولم يخرج.

كما أن التناقضات لا تقف هنا،فنجد أن اليهود يصرون أن الذبيح هو (جدهم) إسحاق ولا أدري هل فاتهم هذا النص الذي يذكر أن الذبيح كان ابن إبراهيم (الوحيد).

(قَالَ: لَا تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الْغُلَامِ وَلَا تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا، لأَنِّي الآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفٌ اللهَ، فَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي) -سفر التكوين ٢٢-

فكيف يكون إسحاق الوحيد وقد وُلد -حسب التوراة أيضًا- بعد إسماعيل بـ ١٣ سنة!؟ أليس الأصوب أن يكون الابن الوحيد هو إسماعيل وفقًا للنص التوراتي؟

وهذا ما ينسجم مع النص القرآني الذي بشر الله فيه إبراهيم بإسحاق بعد حادثة ابتلائه بابنه (الوحيد) آنذاك إسماعيل: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: ١٠٣-١١٢].

يذكرني ذلك بقصة اليهودي الذي أسلم ودخل ذات يوم على الخليفة عمر بن عبد العزيز فسأله من هو الذبيح فقال: (والله يا أمير المؤمنين، الذبيح هو إسماعيل وإن اليهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم إسماعيل هو الذبيح الذي كان طاهراً طيباً مطيعاً لله عز وجل).[1]

أعلم عن وجود من تأثر بمزاعم اليهود بأحقية فلسطين وبأن الذبيح هو إسحاق وغيرها، ولكن لا يكون ذلك إلا بعدم دراية وإلمام بما في كتب اليهود.

١- موسوعة الرد على الشبهات والافتراءات-أحمد شوقي -الجزء الأول -ص ٢٧٨.

وتعقيباً على القصة السابقة نستنتج أن محرري التوراة وقعوا في تناقض حين أرادوا أن يمنحوا إبراهيم أسبقية الدخول إلى فلسطين فكشفتهم نصوص توراتية أخرى بعد أن قاموا بجمع كتابهم المقدس، وقد بينت هذه النصوص ما يلي:

١- أن إبراهيم التقى بالملك الفلسطيني أبي مالك، ويستحيل أن يكون هناك ملك بدون شعب ومملكة وحاشية، وهذا ما يدل على أن أبي مالك والفلسطينيين سبقوا إبراهيم إلى الأرض.

٢- أن قصة النبي إبراهيم مع الملك أبي مالك والذي كان إبراهيم قد قدّم زوجته سارة له على أنها أخته وقد أخذها الملك كجارية إلى بيته وكان عمرها قرابة التسعين سنة، فهل يعقل أنها تصلح جارية وهي بعمر التسعين؟ ومن ثم تتكرر القصة نفسها تماماً مع ابنها إسحاق وزوجته (رفقة) ولكن بعد قرابة القرن من الزمان! المشكلة هنا أن أحداث القصة حدثت لإسحاق مع الملك أبي مالك نفسه، فهل ما زال أبي مالك شاباً بعد قرابة القرن بحيث يأخذ زوجة إسحاق كجارية له أيضاً؟ وإذا افترضنا أن أبي مالك قد عمّر طويلاً أو أنه لقب وليس اسماً، أو أن هنالك أبي مالك الأول وأبي مالك الثاني، فكيف لقائد جيشه (فيكول) والذي ورد اسمه في التوراة في قصة إبراهيم أن يرد اسمه في قصة إسحاق أيضاً وهو ما زال قائداً للجيش كل هذا الردح من الزمان؟ خصوصاً أن أحداث قصة إبراهيم دارت عندما كان عمره دون المئة سنة، ومات وعمره ١٧٥ سنة، أما القصة التي

تمت مع إسحاق فكانت بعد موت إبراهيم بزمان يكفي ليكون ابناه قد بلغا الرجولة، وبمعنى آخر ربما امتد الزمان بين القصتين قرابة ١٠٠ عام فهل يعقل ذلك؟ أم أن ذلك التمديد بالأعمار هو محاولة من كتبة التوراة لتغطية جميع الحقبات التي تعطيهم أحقية الوجود في فلسطين![1]

مغالطة يوشع بن نون التاريخية

تحدد التوراة أن زمن خروج بني إسرائيل من مصر كان في العام ١٣٥٠ ق.م وإذا أخذنا في الحسبان مسألة تيه بني إسرائيل في صحراء سيناء أربعين عاماً، فذلك يعني أن يوشع بن نون -فتى موسى- قد دخل أرض كنعان(أريحا) تقريباً في عام ١٣٠٠ ق.م، وإذا كان الفلسطينيون قد دخلوها كما أسلفنا عام ١٢٠٠ ق.م أي بعد مئة عام من دخول يوشع بن نون إليها برفقة بني إسرائيل، فكيف يرد هذا النص التوراتي العجيب!

(وَشَاخَ يَوشَعُ. وتَقَدَّمَ فِي الأَيَّام. فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «أَنْتَ قَدْ شِخْتَ. تَقَدَّمْتَ فِي الأَيَّام. وَقَدْ بَقِيَتْ أَرْضٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا لِلامْتِلاَكِ. هذِهِ هِيَ الأَرْضُ الْبَاقِيَةُ: كُلُّ دَائِرَةِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، وَكُلُّ الْجَشُورِيِّينَ مِنَ الشِّيحُورِ الَّذِي هُوَ أَمَامَ مِصْرَ إِلَى تُخُم عَقْرُونَ شِمَالاً تُحْسَبُ لِلْكَنْعَانِيِّينَ أَقْطَابِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ الْخَمْسَةِ: الْغَزِّيِّ وَالأَشْدُودِيِّ وَالأَشْقَلُونِيِّ وَالْجَتِّيِّ وَالْعَقْرُونِيِّ، وَالْعَوِّيِّينَ.) - سفر يشوع ١٣-

---

١- نقد النص التوراتي - ص ١١٣.

فهذا النص يُظهر بوضوح أن الرب يعدد ليوشع بن نون أقطاب الفلسطينيين وممالكهم وأراضيهم مثل غزة وعسقلان ويافا والقدس؟ كيف يحدث ذلك لو كان الفلسطينيون لم يأتوا إلا بعد يوشع!؟ هل يعقل ذلك؟

المشكلة أن بعض شرّاح ومفسري التوراة انتبهوا لهذه المغالطة والتناقض الصريح فبرروا ذلك تبريراً غريباً إذ قالوا بأن ذلك كان (استباقاً)!!

ولا نعلم كيف يحدث (استباق) عن أماكن وأحداث جرت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد مع يوشع بن نون، ووصفت وصفاً دقيقاً أقطاب الفلسطينيين بأسماء بلداتهم وممالكهم وقراهم! فكيف نقرأ هذا التناقض في الرواية التاريخية؟ وهو تناقض ترتب عليه فيما بعد طمس لتاريخ وحضارة ومصير وحقوق شعب بأكمله!؟[1]

هل كان مع بني إسرائيل شعوباً أخرى عندما خرجوا من مصر أم هم شعب الله؟

يذكر لنا القرآن الكريم على لسان موسى قول الله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠]، وهنا نتساءل والسؤال

١- انظر: كتاب أب هو إبليس - ص ٢٧-٢٨.

هو: كيف يخاطب موسى قومه بعد عبورهم البحر ومكوثهم في سيناء -أرض التيه- قائلاً لهم: (وجعلكم ملوكًا)؟ ونحن نعلم أن مملكة إسرائيل لم تؤسس بعد؟ فمملكة إسرائيل تأسست بعد مئات السنين من وفاة موسى وكان أول ملوكها طالوت وداود وسليمان!

أما في مصر فقد كان بنو إسرائيل عبيدًا لفرعون فمتى صاروا ملوكًا!؟ طبعًا فسر القدامى هذه الآية بقولهم إن المقصود هو أن العبرانيين صاروا أحراراً ويملكون أنفسهم وأزواجهم وبيوتهم،وهذا تأويل مقبول ولكن نص الآية يتحدث عن المُلك كمقام إلى جانب النبوة! مما يفتح باب التأويل والبحث ودراسة النص بشكل أكبر لمحاولة الوصول إلى إجابة.

هنا سأستعرض دراسة تاريخية حول ذلك عسى أن تتسع صدوركم لها.

في البدء سنعود لعهد يوسف الصدّيق، فجميعنا نعلم من واقع قصته أنه صار عزيزًا لمصر وقد قال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١] وتتفق جميع الكتب السماوية على أن يوسف هو العبراني (الوحيد) الذي بلغ منصبًا عاليًا في مصر بينما نص الآية: (وجعلكم ملوكًا) يتحدث عن وجود آخرين! هذا مع ضرورة التذكير أن مُلك يوسف هو بعلو سلطته ولكنه لم يكن هو الملك الفعلي لمصر، وهنا نسأل من جديد.. هل صار أحد من سلالة العبرانيين ملكًا على مصر!؟

قبل سعينا للجواب لا بد أن نشير إلى أن القرآن ذكر لنا أن بني

إسرائيل بلغوا أعز المقامات بعهد يوسف ثم ذكر لنا القرآن أنهم صاورا عبيداً في عهد موسى، ولا بدّ أن نبحث هنا عن الحلقة المفقودة التي أدت إلى هذه النكسة الكبيرة في مقام بني إسرائيل، واسمحوا لي هنا أن أستعين بالتوراة للبحث عن المزيد حيال ذلك.

تذكر التوراة أن يوسف تزوج في مصر من (أسينات بنت فوطيفارغ) وهي مصرية، وقد أنجبت له ولدين سمى الأول (منسى) والثاني (أفرام).

(وَوُلِدَ لِيُوسُفَ ابْنَانِ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ سَنَةُ الْجُوعِ، وَلَدَتْهُمَا لَهُ أَسْنَاتُ بِنْتُ فُوطِيفَارَعَ كَاهِنِ أُونَ. وَدَعَا يُوسُفُ اسْمَ الْبِكْرِ «مَنَسَّى» قَائِلاً: «لأَنَّ اللهَ أَنْسَانِي كُلَّ تَعَبِي وَكُلَّ بَيْتِ أَبِي». وَدَعَا اسْمَ الثَّانِي «أَفْرَايِمَ» قَائِلاً: «لأَنَّ اللهَ جَعَلَنِي مُثْمِرًا فِي أَرْضِ مَذَلَّتِي) -سفر التكوين ٤٢-

ثم تذكر التوراة أن يعقوب وذريته عندما وصلوا لمصر كان عددهم ٦٦ ليصبح العدد كاملاً مع يوسف وابنيه سبعين!!

(جَمِيعُ النُّفُوسِ لِيَعْقُوبَ الَّتِي أَتَتْ إِلَى مِصْرَ، الْخَارِجَةِ مِنْ صُلْبِهِ، مَا عَدَا نِسَاءَ بَنِي يَعْقُوبَ، جَمِيعُ النُّفُوسِ سِتٌّ وَسِتُّونَ نَفْسًا. وَابْنَا يُوسُفَ اللَّذَانِ وُلِدَا لَهُ فِي مِصْرَ نَفْسَانِ. جَمِيعُ نُفُوسِ بَيْتِ يَعْقُوبَ الَّتِي جَاءَتْ إِلَى مِصْرَ سَبْعُونَ) -سفر التكوين ٤٦-

و الآن سنجري حسبة: ٦٦ (يعقوب وحاشيته) + ٣ (يوسف وأبناؤه) = ٦٩ شخصاً!!.. بينما النص التوراتي يقول ٧٠!؟ فمن هو الشخص رقم سبعين والذي لم يتم ذكره عمدًا؟!

أكثر من باحث توصل إلى أنها (ابنة يوسف) والتي يتعمد الأحبار من كتبة التوراة عدم الاعتراف بها لأسباب سياسية تخص عبارات (شعب الله وأرض الميعاد) ويُرجح أن تكون ابنة يوسف هي الملكة (تيي/ Tiye) والتي تذكر الدراسات أنها غير مصرية وأن والدها جاء من الخارج وعمل مع الملك حتى جلّ شأنه.

صارت (تيي) ملكة بعد ما تزوجها الملك (أمنحوتب الثالث) وهذا يتفق مع النص الذي ورد في التوراة (سفر التكوين الإصحاح الثامن) بأن الله سيجعل يوسف أبًا لفرعون (بمعنى أن ابنته ستتزوج من فرعون

وسيكون في مقام ابنه)، كما يذكر التاريخ أن الملكة (تيي) أنجبت (أخناتون) والشهير عن أخناتون أنه مؤسس الديانة التوحيدية بتأثير من والدته وقد كان يدعو لها حتى بدأ بتشكيل خطر، والخطر الذي شكله كان ينصب على مصالح الكهان والقادة والعسكر وعلى الدين القومي المصري، وقد حدث بسببه صراع في البلاط الملكي وذلك نتيجة ازدياد أتباعه الموحدين.

وعندما أدرك والده أمنحوتب استحالة جلوس ابنه على عرش المُلك كونه من أم غير مصرية أمر بترحيله لشمال البلاد (دلتا النيل) حيث يتمركز العبرانيون هناك، ومع ازدياد القوة والأتباع لديانة آتون التوحيدية، مات الملك أمنحوتب فهجم الذين جاؤوا بعده على هؤلاء(الموحدين والكافرين بالآلهة) وتم اضطهادهم واستعبادهم وتحويلهم من أجل العمل في المقالع وبيعهم سنين تلو السنين حتى وصلوا لعهد الفرعون الذي قتل أطفالهم واستحيا نساءهم واستعبدهم شر استعباد.

الآن سأطرح أمراً عجيباً من التوراة:

يُجمع علماء اليهود أن العبرانيين ظلوا في مصر أكثر من ٤٠٠ عام، وأنهم دخلوا فيها وعددهم ٧٠ نسمة -كما أسلفنا - وخرجوا منها عبر البحر وعددهم ٦٠٠ ألف!؟

(فَارْتَحَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ رَعَمْسِيسَ إِلَى سُكُّوتَ، نَحْوَ سِتِّ مِئَةِ أَلْفِ مَاشٍ مِنَ الرِّجَالِ عَدَا الأَوْلاَدِ. وَصَعِدَ مَعَهُمْ لَفِيفٌ كَثِيرٌ أَيْضًا مَعَ

غَنَم وَبَقَر، مَوَاشٍ وَافِرَةٍ.،وَأَمَّا إِقَامَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّتِي أَقَامُوهَا فِي مِصْرَ فَكَانَتْ أَرْبَعَ مِئَةٍ وَثَلاَثِينَ سَنَةً) -سفر الخروج ١٢-

فمما لا شك فيه أنه وعطفاً على المدة التي قضاها بنو إسرائيل في مصر وعلى كونهم مضطهدين بحيث يُقتل أطفالهم فإن هذا عدد خيالي ومبالغ فيه! ولو اعتمدناه بطريقة الحسبة نفسها فهذا يعني أن عدد سكان مصر اليوم يجب أن يكون نصف مليار وأكثر!

وسبب هذا الإشكال كله هو أن التوراة لا توضح أن الديانة التوحيدية كانت متفشية في مصر وأنه خالط العبرانيين الكثير من المصريين وتزاوجوا وخرجوا معهم بأعداد كبيرة، وبالطبع إن سبب التكتم هو حتى يكون العبرانيون وحدهم (شعب الله المختار) بحيث تكون رسالة موسى هي إهداءهم أرض الميعاد فلسطين وليست دعوة الناس كافة إلى الله![1]

القرآن كان واضحاً في ذكر تغلغل الدين التوحيدي لدى الفراعنة وكتمانهم له: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾ [غافر: ٢٨] ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ﴾ [غافر: ٣٤].. وكذلك ما جاء في القرآن عن امرأة فرعون التي كانت تكتم دينها خوفًا من زوجها الطاغية: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١].

***

١- انظر كتاب : أب هو إبليس ص ٥٧ -٦٦.

أعترف بأن الموضوع طويل وشائك، ولكنني سأختمه بأن الأحبار وكتبة التوراة لم يتطرقوا للصراع المصري الذي جرى بين الموحدين والكهنة الفراعنة الجدد لأسباب أشهرها أن ذلك سيجعل من قضيتهم دينية عالمية إنسانية على اعتبار أن رسالة إبراهيم ويوسف وأخناتون وموسى هي رسالة توحيدية كونية وليست خاصة بعرق أو شعب أو إقليم، وبذلك تسقط خرافة شعب الله وأرض الميعاد.

الفصل السادس

عالم الجن والسحر

ربما لأن عالم الجن غيبي، ولأنهم يعيشون في بعدٍ آخر ويروننا من حيث لا نراهم، ساهم ذلك في إثارة الكثير من الجدل حول هذا العالم الغيبي عبر العصور، هل يمكننا رؤيتهم؟ هل يمكننا التعامل معهم؟ هل يتمثلون بأشكالٍ بشرية؟ أو ربما قطةٍ سوداء؟ هل يسكنون ويتلبسون البشر فيتخبطون بهم من المس؟! كل هذا وأكثر من جملة الأسئلة التي تطرحها النفس على النفس، وتصرخ هل من مجيب؟!

إن أكثر ما دفعني إلى البحث والكتابة حول الجن والسحر، هو بعض من التقيت بهم ممن قد درسوا علم النفس وكيمياء وكهرباء الدماغ، فوجدوا صعوبة في التوفيق بين الرأي الشرعي السائد عن إمكانية رؤية الجن أو إمكانية أن يتلبس الجني الإنسي وينطق بلسانه، وبين ما يرونه أمامهم من حالات يتم تشخصيها وعلاجها (نفسيّاً) دون اللجوء إلى طرق علاجية أخرى!، فأردت أن أبين هنا أن في الأمر فسحة، وأن قضية الجن والسحر قد حدثت من أجلها عدة خلافاتٍ فقهية، ومن حق كل مؤمن أن يعرفها وأن يطّلع على ذلك، ويختار ما يتوافق مع قناعاته ومرئياته، فلا يظن أن إيمانه بعلم النفس يناقض الدين مثلاً فيقع في نفسه شك بأن موقف الدين مؤيد جملة وتفصيلاً لقضية التلبس والسحر،

فيضعف إيمانه الديني شيئاً فشيئاً نظير ذلك، وعليه، فإني فضّلت أن أقوم بالتوضيح هنا بأن أذكر آراءً أخرى غير تلك الآراء السائدة، ومع كامل الاحترام لجميع الآراء.. فليس سردنا في نهاية الأمر إلا طمعاً في رحمة الاختلاف.

حسم القرآن الكريم -وهو أصل إيماننا- وجود الجن في سورةٍ كاملة جاء فيها ذكر الجن وبداية إيمانهم بعد سماعهم للقرآن واهتدائهم به،هذا فضلاً عن المواضع القرآنية الأخرى التي جاء ذكر الجن فيها، ورغم إيمان الجن وإسلامهم هنا إلا أننا لا نعرف مناسكهم الدينية كاملة! فلا يمكننا أن نتصور إمكانية أن تحج الجن وتطوف وترمي الجمرات وتنحر! ولا أن تزكي بصاع من تمرٍ أو شعير! وهذا ما قد يوحي بأن للجن مناسك خاصة بهم يتعبدون الله من خلالها.

ربما تختلف هذه المناسك والأركان مع ما تتطلبه النفس البشرية المادية،وقد وضح الله ذلك في قوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٧] وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٤] وإن كان هنالك من المفسرين من قال بأن هذه الآيات تخص تذكية البهائم واختلاف الكيفية بين أمة محمد والأمم السابقة، إلا أن ذلك ينطبق على الجن بداهةً، كونهم هم وسائر الكائنات (أمماً أمثالنا)، ولكننا كما لا نفقه كيفية سجود النجم والشجر: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦] ولا تسبيح سائر المخلوقات: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ

تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤] فإننا لا نفقه كيفية تعبّد الجن، غير أن وجود منسك تعبّدي أو طريقة خاصة لكل أمة من المخلوقات هو حقيقة ثابتة في القرآن، فلا يتطلب إسلام الجن مثلاً أن يؤدوا الأركان الخمسة كاملة أو غيرها مما قد يخص الإنسان وحده، فالإنسان مثلاً حمل الأمانة بينما لم تحملها الجن: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] وهذا مما يدل على أن الأمانة ميزة بشرية تفرد بها الإنسان وسيسأله الله عنها.. والله وحده أعلم!

***

ولأننا في سيرة الخلاف، فلا خلاف إطلاقاً على وجود الجن، بل إن عدم الإيمان بهم هو كفرٌ صريح بالنص القرآني، بيد أن الخلاف يكمن في التساؤلات التي طرحناها أعلاه، كقولنا: هل يظهر الجان للعين البشرية؟ أو هل يدخل في جوف الإنسان؟ أو يتمثل في هيئة بشر!

فهناك من العلماء من يرى عدم إمكانية رؤية الجن، نجد أن الإمام الشافعي مثلاً قد قال: «من ادعى أنه رأى شيطاناً فلا نقبل شهادته، لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧]».

كما نجد أن من العلماء من قالوا بأن العلة تكمن في عدم إمكانية رؤيتهم في صورتهم الحقيقية فقط! ولا مانع من رؤيتهم في حال تمثلوا على هيئة بشر! لذلك يروي ابن تيمية قصة عجيبة حصلت له مع جني عندما كان

مسجوناً فيقول: «وتارة يأتون - أي الجن- إلى من هو خال في البرية وقد يكون ملكاً أو أميراً كبيراً ويكون كافراً وقد انقطع عن أصحابه وعطش وخاف الموت فيأتيه في صورة إنسي ويسقيه ويدعوه إلى الإسلام ويتوبه ويطعمه ويدله على الطريق ويقول: من أنت؟ فيقول أنا فلان ويكون من مؤمني الجن،كما جرى مثل هذا لي كنت في مصر في قلعتها وجرى مثل هذا إلى كثير من الترك من ناحية المشرق وقال له ذلك الشخص: أنا ابن تيمية فلم يشك ذلك الأمير أني أنا هو وأخبر بذلك ملك ماردين وأرسل بذلك ملك ماردين إلى ملك مصر رسولاً وكنت في الحبس فاستعظموا ذلك وأنا لم أخرج من الحبس ولكن كان هناك جنيٌّ (يحبنا) فيصنع بالترك التتر مثل ما كنت أصنع بهم لما جاؤوا إلى دمشق.

كنت أدعوهم إلى الإسلام فإذا نطق أحدهم بالشهادتين أطعمتهم ما تيسر فعمل معهم ما كنت أعمل وأراد بذلك إكرامي ليظن ذلك أني أنا الذي فعلت ذلك.

قال لي طائفة من الناس: فلم لا يجوز أن يكون ملكاً؟؟ قلت: لا. إن الملك لا يكذب وهذا قد قال: أنا بن تيمية وهو يعلم أنه كاذب في ذلك».[1]

فابن تيمية وتلميذه ابن القيم -رحمهما الله- ممن يرون ويجزمون بإمكانية رؤية الجان وإمكانية دخوله إلى جسم الإنسان، وأن السحر حقيقة لا خلاف فيها، ولكني هنا لن أسهب في الآراء السائدة والمعروفة

---

١ - انظر: مجموع الفتاوى: جزء ١٣: ص ٨٩.

التي تقر حقيقة التلبس والسحر، بل سأذكر الجانب الآخر والآراء الأخرى التي لا ترى إمكانية رؤية الجن أو تلبسهم بالبشر.. وحتى لا ترى بأن للسحر حقيقة!! مع قيامي بإضافة سردٍ تاريخي لتبيان وتوضيح آرائهم.

الجن والتلبّس والتعاويذ:

لطالما كانت نوبات الجنون والتشنجات الصرعية التي تُصيب الإنسان منذ القِدم ترتبط عند مختلف الحضارات بالأشباح والشياطين والقوى فوق الطبيعية!، وهذا التفسير طبيعي آنذاك في ظل الجهل بكيمياء وكهرباء الدماغ والأعصاب وعلم النفس. فنجد أن للهندوس شيطانة خاصة اسمها (غراي) هي المسؤولة عن التلبس، وكان الكهنة يمارسون بعض الطقوس الدينية فيتشنج المريض وتخرج (غراي) من جسده! وحتى في بابل وآشور، كانوا يفسرون الصرع بأنه تلبس من الشيطان (ميغتو).

وبما أننا في سيرة الحضارات والديانات القديمة فلا بد أن نذكر حضارة الإغريق العريقة، فرغم أنهم اشتهروا بالفلسفة وتعظيم العقل إلا أنهم كغيرهم، فقد كانوا يُطلقون على التشنجات والصرع (المرض المقدس) كونه من بلاء الآلهة، فإذا تشنج الشق الأيمن للمريض فإن هذا بلاء أصابه من أم الآلهة (هيرا)، وإذا تشنج الشق الأيسر فإن البلاء من إله الحرب (إيريس)، وبكل الأحوال يذهبون بالمريض لقراءة التعاويذ والتضرع وتقديم القربان لإله الطب (إسكلبيوس).

وأخشى أن أطيل لأبين أن قضية التلبس بالأشباح وخروجها بقراءة التعاويذ حدث موجود لدى الفراعنة والروم وشعوب المايا والأزتك وشرق آسيا وغيرهم كثير.

وبالتعريج على الديانات السماوية نجد أن اليهودية قد عززت فكرة دخول الجني في الإنسان ولكـــن على مرحلتين:

المرحلة الأولى: كانت قاسية حسب التوراة حيث جاء أمر بوجوب قتل من تتلبسه الجن رجمًا: (وَإِذَا كَانَ فِي رَجُل أَوِ امْرَأَةٍ جَانٌّ أَوْ تَابِعَةٌ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ. بِالْحِجَارَةِ يَرْجُمُونَهُ. دَمُهُ عَلَيْهِ) -سفر اللاويين - ٢٠

المرحلة الثانية: في (التناخ) نجد أمراً بعلاج المريض عن طريق قراءة التوراة على مسامعه!

والراجح لدينا أن هذا الاختلاف عند اليهود جاء بعد السبي البابلي كما ورد في (التناخ) تحديدًا في عهد النبي دانيال حين أصيب الملك نبوخذ نصر بالجنون، فنبوخذ نصر هو أحد ملوك بابل العظماء والذي استعبد بني إسرائيل، حيث يؤمن اليهود بأن الله ابتلاه بالجنون والتلبس، وظل نبوخذ نصر لمدة سبع سنوات يمشي عارياً على أربع ويظن أنه (ثور) وليس إنساناً! إلى أن مات على ذلك الحال، ونتيجة لذلك.. شرّع اليهود التعاويذ ومحاولات التطبيب، فمن سيتجرأ ويرجم هذا الملك الجبار أصلاً؟

المسيحية لا تختلف عن اليهودية كون كتابهم المقدس يُصادق على التوراة وكذلك قصة المسيح في الإنجيل وعلاجه لامرأة تنتابها نوبات تشنج!

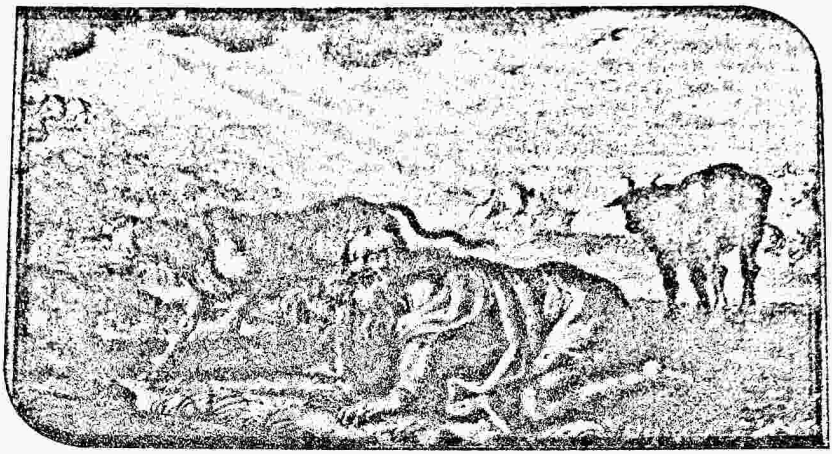

رسمة تخيلية لهيئة نبوخذ نصر بعد ما أصابه الجنون.

ولليوم نجد قساوسة المسيحيين يعالجون حالات الصرع بقراءة الإنجيل والتعاويذ أو ما يسمى (exorcist)، وبالفعل، تُشفى بعض الحالات بما أن المسألة (نفسية)!

وقبل أن أعرض موقف الإسلام من التلبس لا بد أن أشير إلى أن الأطباء عبر التاريخ كانوا يرفضون قضية التلبس وقد بدأ ذلك أبو الطب اليوناني (أبقراط) حيث قال إنها أمراض عضوية عصبية (لا مرض مقدس ولا هم يحزنون)، وحتى قضية الفتاة (ماري) التي تاجرت بها هوليوود بأكثر من فيلم على أنها قصة واقعية والتي روج لها القساوسة آنذاك، فقد كتب عن هذه الفتاة الطبيب (إدوارد جوردون) منذ عام ١٦٠٣م وقال عنها بأنها «تعاني من مرض عضوي وهو «خناق الرحم» إذ رأى جوردون أن التغيرات التي تطرأ على الرحم تُحدث أبخرة تنساق

عبر البدن مسببة اضطرابات جسدية في الأطراف والبطن وحتى الدماغ، ومن هنا تأتي الحركات والنوبات التشنجية وهكذا، فإن ما جرى العرف على نسبته خطأً إلى التلبس، فُسر بدقة بـ(خناق الرحم)».[1]

وبالعودة للموقف الإسلامي يجب أن نتفق على أن القضية خلافية كما ذكرنا من قبل، فابن تيمية ينقل عن الإمام أحمد إيمانه بالتلبس وبالتأكيد طلابه كابن القيم وابن كثير يفعلون الأمر نفسه كونهم من مدرسة فقهية واحدة، أما المعارضون للتلبس وهم محور حديثنا من أمثال الزمخشري والجبائي وأبي بكر الرازي وابن حزم الذي سخر وَوصف بأن نُطق الجن على لسان المصروع لا يصدقه إلا ضعفاء العجائز، وسبب هذا الخلاف هو وصف الله لآكل الربا بالذي يتخبطه الشيطان من المس: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فهل المس هنا حقيقي أم تشبيه مجازي؟ أم هو وعيدٌ ليوم القيامة كما قال ابن مسعود؟ أم المس هنا وصف مجازي بمعنى المرض كما ورد عن النبي أيوب قوله تعالى: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١] وكلنا نعرف باستحالة أن يتلبس أنبياء الله المؤمنين الصالحين هؤلاء الجن والشياطين، وذلك استناداً لقول الله عندما خاطب إبليس وذريته من الجن: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤١-٤٢]؟

وحتى لا نسهب في طرح الاحتمالات، سأقتبس هنا شيئًا مما ذكره

١- انظر: موجز تاريخ الجنون-روي بورتر- ص ٣٧.

الكاتب السعودي (فهد عامر الأحمدي) في مقالة كتبها في جريدة الرياض بعنوان (من يدعي ذلك بعد سليمان) -في إشارة إلى أن سليمان هو من اختص بالتعامل مع الجن كما سنوضح ذلك لاحقاً - فيقول الكاتب:

(وحين أتحدث مع أحدهم عن الشق الشرعي يستشهد غالباً بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾.. غير أن هذه الآية خاصة بالربا ويأتي تشبيه آكله كمن يتخبطه الشيطان (على سبيل التمثيل لا الواقع).. فالقرآن الكريم استعمل تشبيهات مجازية واستعارات بلاغية كثيرة كهذه دون أن يعني وجودها فعلاً.. فالتذلل للوالدين مثلاً شبهه بجناح طائر: «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة» وشجرة الجحيم شبّه طلعها «كأنه رؤوس الشياطين» وإساءة الظن بالآخرين كمن «يأكل لَحم أَخيه ميْتاً».. والتشبيه هنا مجازي كون الرحمة لا تطير على أجنحة، ورؤوس الشياطين لم يرها أحد، وجميعنا يسيء الظن دون أن نأكل في الحقيقة لحوم البشر.. ولكن ذكاء النص القرآني يكمن في حث كل قارئ على أن يتخيل بنفسه لطافة الرحمة، وبشاعة الشجرة، وخطورة الظن، ونتائج أكل الربا بحيث نتصور آكله (وكأن) شيطاناً يتخبطه من المس في حين لا تظهر هذه الأعراض على من يأكل الربا فعلاً.!

أما بخصوص الأحاديث النبوية فيجب التنبه إلى أن معظم أحاديث المس إما ضعيفة أو موضوعة خصوصاً أن ادعاءات المس كانت شائعة ومتداولة لدى العرب لدرجة اعتقادهم بأن الجني يمس الشاعر فينطق

بلسانه أعذب الأبيات.. ولأن مساحة الزاوية لا تسمح بسرد الأحاديث كلها أرجو مراجعتها في (ضعيف الألباني) في حين سأكتفي أنا بقصة المرأة التي جاءت بولدها إلى الرسول وقالت: إن به لماً يأخذه عند طعامنا فيفسد علينا طعامنا، فمسح الرسول صلى الله عليه وسلم صدره ودعا له فثع ثعة فخرج منه مثل الجرو الأسود يسعى.. وهذا الحديث (الذي اخترته بسبب وضوحه وصراحته في خروج كائن غريب من جسم الإنسان) حديث ضعيف أجمع علماء الجرح والتعديل على أن فيه فرقداً السبخي المتهم بالضعف والتدليس..

وفي المقابل هناك أحاديث صحيحة ولكن الناس فهموها بشكل مخطئ أو حشروها حشراً لإثبات ادعاءاتهم بدخول الجان.. ومن هذه الأحاديث حديث عطاء بن رباح: قال ابن عباس ألا أريك امرأة من أهل الجنة، قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إنني أصرع وإنني أتكشف فادع الله لي. فقال: إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله لك أن يعافيك، فقالت: أصبر (ثم) قالت: إنني أتكشف فادع الله لي ألا أتكشف فدعا لها..

وحين تقرأ هذا الحديث بتمعن تلاحظ أنه لم يتحدث أبداً عن المس أو دخول الجن بل فقط عن إصابة المرأة بالصرع (المعترف به حالياً كمرض عصبي يصيب قرابة ٥٪ من سكان العالم). ولأنه مرض صعب ومحرج (يتكشف فيه المبتلى ويتشنج) وعدها الرسول بدخولها الجنة نظير صبرها ونحن نعرف أن الأمراض الصعبة من المصائب التي قد تدخل صاحبها

الجنة بدليل قول الرسول صلى الله عليه وسلم: الشهداء خمسة المطعون، والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله).[1]

ثم أردف الكاتب بمقال آخر كان عنوانه شديد اللهجة ويحمل تحديًا كبيراً (من يعرف جنيًّا يتلبسني).. هكذا كان عنوان المقال الذي تحدى الكاتب في نهايته أي شخص يعرف جنيّاً بأن يرسله ليتلبسه مقابل ١٠٠,٠٠٠ ريال! وما يميز هذه المقالة هو عرض أسماء الأمراض النفسية والعصبية ومناقشة الكاتب للأدلة المادية والعقلية التي يتناقلها الناس فيقول: (مناقشة الأدلة المادية والعقلية التي يستشهد بها معظم الناس في مسألة التلبس، وأعترف مقدماً بصعوبة إقناع قارئ شاهد مصروعاً يتخبط، أو سمع موروثاً يتكرر منذ الطفولة. ولكن الحقيقة هي أن كل ما نراه ونسمعه بهذا الشأن ليس أكثر من خلط شائع بين ادعاءات المس، وأمراض عصبية ونفسية أثبت العلم وجودها فعلاً.

فبالإضافة لبعض الأمراض العضوية (التي تصيب الدماغ البشري بالعطب)، يخلط الناس مثلاً بين الصرع وإمكانية دخول الجان في جسد الإنسان.. فالصرع خلل كهربائي مؤقت يصيب الجهاز العصبي أو إحدى مناطق الدماغ فتبدو على المصاب علامات التشنج والتصرف بطريقة لا إرادية غريبة.. وبسبب جهل الناس بأسبابه في الماضي، وانتشاره الواسع في الحاضر (كونه يصيب قرابة ٥٪ من سكان العالم)، سادت اعتقادات مشتركة بأنه نتيجة تلبس شيطاني أو عمل سحري.. ورغم أن أطباء اليوم

---

١ - انظر المقال: http://www. alriyadh. com/582345.

يعتبرونه مجرد مرض عصبي، يمكن علاجه والكشف عن أسبابه، إلا أن معظم الثقافات ما تزال تتجاهل هذه الحقيقة وتمارس طقوساً وقراءات خاصة به..

أيضاً، بالإضافة للأمراض العصبية والعقلية، هناك أمراض نفسية يبدو صاحبها وكأن جانّاً يتلبسه.. وسبق أن كتبت، فعلاً عن حالة مخادعة وشائعة تدعى تعدد الشخصيات، تنطبق على معظم الشهادات التي أسمعها بهذا الخصوص (واسمها الطبي Multiple Personality Disorder) وفي هذه الحالة بالذات، تتصارع أكثر من شخصية داخل الجسد الواحد تتحدث كل منها باسم ولسان مختلف.. وهي تتبلور نتيجة اضطهاد شديد يتعرض له المرء في طفولته، بحيث لا يجد مخرجاً غير خلق شخصية رديفة تخفف وطأة ظروفه القاسية.. وإذا استمر الاضطهاد أو زادت قسوته فقد يختلق شخصية ثانية وثالثة، وربما رابعة تناسب سنه وتغير الظروف من حوله، والرقم القياسي لمريضة من تكساس أحصى الأطباء داخلها ٢٥ شخصية مختلفة!!

... وليس أدل على الطبيعة المرضية لهذه الادعاءات من إمكانية علاجها بالعقاقير والجلسات النفسية المتخصصة.. أما حين تشفى على أيدي «غير المتخصصين»، فيكون ذلك بسبب التأثير الوهمي وقناعة المريض بقدرة المدعي على الشفاء (رغم انتكاساته التالية وعودته الدائمة)..

وحين يقتنع المصاب بقدرة أحد المدعين على الشفاء يمكن للأعراض

النفسية أن تختفي سواء على يد شيخ مسلم أو قس مسيحي أو حتى راهب بوذي.. فأنا مثلاً لدي صديق من أصل مصري طاف بوالدته على عدة مشايخ دون فائدة حتى شعرت أخيراً بالشفاء على يد قس قبطي من محافظة سوهاج.. وحول العالم ما زالت الكنائس الكاثوليكية تعقد صلوات خاصة لاستخراج الشياطين تدعى «رقية إميلي روز»، (في حين أراح البابا نفسه وبثها بصوته عبر إذاعة وجهها للمصروعين في العالم).. وحين ناظر الداعية الهندي أحمد ديدات القس الأمريكي جيمي سواجرت، استشهد سواجرت لصحة الإنجيل بقوله: «إن تلاوته تشفي المرضى وتخرج الشياطين من أجساد المصروعين»، فابتسم أحمد ديدات وقال: «هذا ليس شرطاً، فحتى السيخ والهندوس في الهند يفعلون ذلك).[1]

***

قبل حوالي أربع سنوات، ظهر الشيخ والراقي السعودي (علي العمري) على لقاء مرئي ينكر فيه نطق الجان على لسان الإنسان، فالشيخ علي والذي أفنى قرابة العشرين عاماً من عمره وهو يرقي المرضى، نفى أن ينطق الجني على لسان الإنسان جملة وتفصيلاً، وأدلى بأنها ليست سوى أوهام، بل إنه ذكر قيامه باختبار إحدى المدعيات بالمس وقام بقراءة شعر ورتله على مسامعها فبدأت بالهيجان والتشنج، فقال لها: انهضي انهضي! فهذا مجرد شعر!

---

١ – انظر المقالة: http://www. alriyadh. com/584498.

أراد الشيخ هنا أن يثبت أن الإيحاء الذاتي في مثل هذه الحالات هو سيد الموقف!

وبالعودة للنصوص الدينية، أردت أن أعرج على حديث (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم) لأني وللأسف وجدت الكثير ممن يستشهدون به كدليل للتلبس إنما يبترونه من سياقه! بينما الحديث ورد في صحيح البخاري في (باب: زيارة المرأة لزوجها في اعتكافه) بمعنى آخر.

فعن صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً فحدّثته، ثم قمتُ فانقلبت، فقام معي ليقلبني -وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد رضي الله عنهما-، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي -صلى الله عليه وسلم- أسرعا، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (على رسلكما، إنها صفية بنت حيي)، فقالا: سبحان الله يا رسول الله!، فقال: (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يَقذف في قلوبكما سوءاً -أو قال: شيئاً).

وحسب ما هو واضح من سياق الحديث، أن جريان الشيطان مجرى الدم في الإنسان هو تشبيه مجازي للنفس الأمارة بالسوء.

إنّ سبب ذكري لهذا السرد والخلاف ليس فقط لأني شخصيًّا لا أومن بالتلبس ولكن لأني أيضًا وقفت على حالات لأطباء وطلاب في علم النفس والجهاز العصبي وغيره لا يؤمنون بالتلبس كونهم يدرسون تفسيرات علمية له وخشيت أن يظنوا أن موقف الدين مؤيد للتلبس دون

خلاف فينشأ لديهم شعور بأن العلم يعارض الدين، فليعلموا أن المسألة خلافية وحقك أن تؤمن برأيك.

أنهي هذه الجزئية بهذه الآية التي تبين أن (سلطان) الشيطان يقتصر على (الوسوسة) فقط: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

سليمان والجن

العالم الغيبي فاتن بالنسبة لكثير من الناس، ربما لأن جهلنا به يحفّز غريزة الفضول لدينا لاكتشافه.. فننسج بخيالنا قصصًا لا تنتهي عن عوالم الغيب وأخص بالذكر عالم (الجن) والذي شغل الناس عن ماهيّة الجن وعن قدراتهم العظيمة في علم الغيب باستراق السمع والتلبّس بالبشر وتسخيرهم لبعض الأهداف.

لذا، نرى جاذبية فكرة التعامل مع الجن تسيطر على عقول البعض، فيكثر الذهاب للدجّالين والمشعوذين أملاً في الاستعانة بمن قد يغير الحال إلى الأفضل، رغم إدراك من يذهب للدجّالين بأن حالهم (أسوأ) منه، وأنهم لم ينفعوا أنفسهم قبل أن ينفعوا الناس، ولكن ضعف الإنسان عقليًّا ودينيًّا هو ما يعمي بصيرته، فالوعي العقلي والوازع الديني كفيلان بجعل أي شخص يدير ظهره لهذه الترهات.

نحن لدينا مثال صريح في القرآن الكريم عن شخصية تاريخية تعاملت مع الجن وهي شخصية النبي سليمان،أنا على قناعة شخصية تامة بأن النبي سليمان آخر من تعامل مع الجن من البشر وذلك وفقًا لدعائه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص: ٣٥]، حيث استجاب الله له وسخّر له الجن والريح وعلمه منطق الطير وآتاه من كل شيء، وقد كانت الجن تعمل له ما يشاء من تماثيل ومحاريب وهذا كما قلنا آنفاً أمرٌ خاصٌّ بنبي الله سليمان فقط،لذلك أجد صعوبة في تصديق أي دجال اليوم.

قد يقول قائل إن مُلك سليمان المقصود به إجمالاً ولا مانع من وجود شخص قد انفرد بخاصية التعامل مع الجن، فنقول: هذا غير صحيح، فمُلك سليمان كله خاص به ولا يمكن تجزئة مزاياه، إلا في حال إثبات وجود شخص يتحكم بالريح فقط أو يعرف منطق الطير فقط وهذا مستحيل فكيف نقبل بوجود شخص يزعم أنه يتحكم بالجن فقط وأن ذلك لا يتعارض مع دعاء سليمان!!

ومن يتأمل في القرآن سيدرك أن حال الجن قد اختلف بين الماضي والحاضر من ناحية استراق السمع وخدمة البشر بعد دعاء سليمان، فقد ورد في سورة الجن قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ [الجن: ٨-٩].

ولاحظ كلمة (الآن) في الآية الكريمة! وهذا ما تفسره آيات أخرى

توضح عدم إمكانية استماع الجن في ظل وجود حرس وشهب للسماء تفتك بكل محاولة كما قال الله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠] ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨] وذلك مما يقطع دابر وجود تعاون سمعي بين إنسي وجني من بعد رسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وبالطبع أن ذلك على افتراض وجود تعاون أصلاً، فالآية لم توضح شيئاً يفيد أن الجن كانت تستمع لمصلحة الإنس، فلربما كانت تستمع في الماضي لمصلحتها هي وبدافع الفضول، إلى أن توصل بها فضول الاستماع إلى سماع القرآن فآمنت به: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

وبالعودة لشخصية سليمان لنقف معها بعض الوقفات التأملية لعلنا نكتشف ما يفيدنا.

نلاحظ أن القرآن صوّر لنا سليمان بالخارق للعادة وصاحب القدرات العظيمة وذلك نظير مُلكه الاستثنائي ونظير تحكمه بالجن، ولكن ربما قليل من يلتقط الثغرات المذكورة في القرآن عن مُلك سليمان، ولعل مثل هذه الثغرات أرادها الله لكي تثبت أن الملك الأعظم هو لله وحده، وحكمة الله في ذلك هي أن لا يُفتتن الناس بقدرات الجن فيخسروا دينهم واستعانتهم بالله وهم يلهثون وراء ذلك.

والآن سنستعرض بعض هذه الثغرات:

الثغرة الأولى: هي حين تفقد سليمان الطير ولم يجد الهدهد وتوعد بتعذيبه وقتله، فنلاحظ عندما عاد الهدهد جرأة رده على النبي سليمان

عندما قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]، وكأن الهدهد يقول (أنت يا سليمان بعظيم ملكك وبعفاريتك لم تحط بكل شيء ولا تدري ما يحدث جوارك).

بل إن سليمان لم يصدق ذلك فقال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧]، وفي ذلك إشارة واضحة تدحض كل من يوهم الناس أنه يتعاون مع الجن وأنهم يحيطونه بكل شيء وبمشورات مستقبلية وبقية الأكاذيب.

الثغرة الثانية: وهي عندما تحقق سليمان من وجود بلقيس فأراد أن يحضر عرشها لتؤمن به: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨].

وحينها جاءه عرضان: أحدهما عفريت من الجن: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩] أما العرض الآخر فكان لعالم من الإنس: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

ونلاحظ هنا بشكل صريح أن الإنسي الذي عنده (عِلم) انتصر على الجن والشعوذة.

وقد اختلف العلماء حول هوية هذا الرجل الذي نقل العرش، فمنهم من قال إن اسمه (آصف بن برخيا) وهو يعرف اسم الله الأعظم، ومنهم من قال إن هذا ضعيف ووجود شخص أعلم من سليمان نقصٌ في علم

سليمان، وإن من قام بنقل العرش هو سليمان نفسه وإنما سأل الناس في مقام التحدي،وأشهر من قال ذلك الإمام فخر الدين الرازي في كتابه (عجائب القرآن) فيقول:

«واعلم أن كثيراً من الناس قالوا إن ذلك الشخص الذي قال لسليمان: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ هو غير النبي سليمان، وظنوا أن الكاف في قوله: (آتِيكَ) خطاب مع سليمان، وعلى هذا التقدير لا بد وأن يكون القائل غير سليمان، إلا أن هذا ضعيف، بل الصحيح عندنا أن الآتي بذلك العرش هو سليمان نفسه -وهو الذي عليه أكثر أهل العلم- وذلك أنه عليه السلام قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ على سبيل التحدي، فلما قال عفريت من الجن: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ رد عليه سليمان عليه السلام قائلاً: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فهذا إنما كان كلاماً قاله سليمان لذلك العفريت تقريراً لتحدّيه الذي ذكره أولاً، وكسراً للعفريت وإظهاراً للمعجزة».[1]

وسواءً اختلف العلماء على هوية ناقل العرش أم اتفقوا، إلا أن جمهورهم قد اتفقوا على أنه من الإنس وأنه فعل ذلك انتصارًا (للعِلم) على (الشعوذة) وكسراً لذلك العفريت، وهذا فيه دعوة ربانية للتعلم وإجلالٌ للعلم.

فنجد أن نقل العرش بطريقة علمية جعلنا كمسلمين متقبلين لما يقوم به الفيزيائيون من محاولات قديمة لنقل الجسم كمادة أو كمعلومة من

١- عجائب القرآن-الإمام فخر الدين الرازي-ص ١٩.

مكانٍ لآخر، فهناك فرضيات علمية مثل: (Quantum teleportaion) و(telepathy) وغير ذلك.

بل إن الباحثين الفيزيائيين يخبروننا بأن الإلكترون يقفز داخل الذرة من مدار إلى آخر، ولا يلتزم مداراً ثابتاً، وهو حين يقفز من مدار إلى آخر لا يمر بالمسافة التي تفصل بين المدارين! أي إنه يختفي من مدار ليظهر في المدار الآخر!

تحدث الفيزيائي الكبير الدكتور (ميتشيو كاكو) في لقاء متلفز عن النظرة الفيزيائية لإمكانية نقل جسم إنسان بشكل آني فيقول: (إن ذلك من أكثر الأسئلة إحراجاً والذي تتطلب الإجابة عليه أن تتقاطع الفيزياء مع الفلسفة، في الوقت الحالي يمكننا نقل جسيمات الضوء (الفوتونات) آنيّاً، وكذلك بعض ذرات السيروم والروبديوم، ولكننا في السنوات القادمة سنكون قادرين على نقل بعض الجزيئات آنيّاً كجزيئات الماء وثاني أوكسيد الكربون، وبعدها من يعرف؟ ربما نتمكن من نقل الحامض النووي أو بعض الجزيئات العضوية؟ لكن فكرة نقل الإنسان آنيّاً تثير العديد من الأسئلة الفلسفية، وذلك لأن الخطوة الأولى لهذه العملية هي تدمير الذرات لتتم عملية الانتقال الآني الكمي،

فإذا كان لدينا شخص ونقلناه آنيّاً عبر غرفة، فإننا سوف نشاهد هذا الشخص يموت لأن الذرات المكونة لجسده سوف تتدمر وتنهار، لكن ذلك الشخص الخارج على الجانب الآخر من الغرفة سيمتلك نفس تصرفات ونفس شخصية وذكريات الشخص الأصلي، ولكن هذا

الشخص الجديد سيقول: لا أنا حقيقي وأمتلك شخصية وتصرفات وذكريات الشخص الأصلي، ولكننا قد شاهدنا الشخص الأصلي بعد ما مات وفاضت روحه، فمن هو هذا الشخص الجديد الذي أمامنا وهل يمتلك روحاً؟ وهذا يقودنا إلى العديد من الأسئلة أبرزها: هل نحن عبارة عن معلومات فقط؟ وهل الروح عبارة عن مجموعة من المعلومات أيضاً؟ حسناً أنا عالم فيزياء ولا أمتلك إجابة على هذا السؤال، وكل ما يمكنني قوله هو: هل نستطيع فيزيائياً نقل إنسان آنياً عبر غرفة أو حتى إلى كوكب المريخ؟ وهذا سيقودنا إلى سؤال آخر أيضاً، ماذا يحدث للروح عندما تموت نسختك الأصلية؟ وشخص ما هناك يمتلك كل ذكرياتك؟ الإجابة بالتأكيد.. لا نعلم!).[1]

فالعلماء إجمالاً يؤمنون أنهم نقلوا الصوت والصورة بسرعة البرق،وأن نقل الجسم حالياً من الخيال العلمي ولا مانع من أن يرى النور في يوم من الأيام، لذلك -وكما قلت سابقاً- بأني مؤمن جداً بأن ما يذكره الله في قرآننا من معجزات وخوارق هي بهدف تهذيب نفوسنا أمام ثورة العِلم وحتى لا يُفتتن الناس بهذه الثورة.

وبالعودة لقصة سليمان فتبقى أشهر ثغرة عن الجن هي حين مات عليه السلام واقفاً وظلت الجن تعمل دون أن تدرك ذلك حتى أكلت الدابة منسأته وخر سليمان: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا

---

١ - شاهد اللقاء: http://www. youtube. com/watch?v=azoPo6-7zfE&feature=youtu. be.

دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ: ١٤].

ربما أطلنا في تبيان هذه الثغرات مع شخصية نبي الله سليمان عليه السلام، والذي نؤمن من قرآننا الكريم بأنه تحكم بالجن ومع ذلك أورد لنا القرآن ما يدل على محدودية قدرة الجن، فكيف نصدق من يدعي أعظم من ذلك؟

وماذا عن السحر إذاً؟

وقد ظن معظم المسلمين أن قضية السحر من المسلمات الشرعية التي أكدها القرآن في أكثر من موضع، وفي الحقيقة هناك الكثير من علماء المسلمين من يرون أن السحر لا حقيقة له وإنما هو مجرد خيال وخدع بصرية، نذكر منهم على سبيل المثال أبو حنيفة النعمان، ابن حزم من الظاهرية، الإستراباذي من الشافعية وأبا بكر الرازي من الحنفية، فهؤلاء وغيرهم يجزمون بأن السحر هو من باب الخيال كالألعاب السيميائية التي يقوم بها الهواة الماهرون، مع بقاء أصل الخلاف بوجود فئة ترى أن السحر قوة غيبية حقيقية تؤثر في الناس وتفرق بين المرء وزوجه وغيرها، إلا أننا كما قلنا آنفاً نريد أن نبحر في الرأي الآخر لنرى وجهة نظرهم من السحر المذكور في القرآن، وما هو رأيهم بالسحر المذكور في قصة موسى وقصة هاروت وماروت في القرآن؟ وقصة سحر النبي محمد عليه الصلاة والسلام في الحديث؟ لعلنا نكتشف آفاقاً أخرى قادها علماء أجلّاء أيضاً.

أولاً: سحرة موسى:

قبل أن نبدأ في تبيان قصة سحرة موسى، لا بد أن نقف على المعنى اللغوي للسحر، حيث إن أشهر معانيه اللغوية (هو كل ما ظهر أثره وخفي سببه)، وبهذا التعريف فإن كل ما ظهر أثره وخفي سببه دخل في دائرة السحر، منه ما ورد في الحديث الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: (إن من البيان لسحرًا) فالبيان الجميل هنا يكون كالسحر الذي يخفى سبب جماله، وكذلك ما ورد عن عائشة في الحديث الصحيح أنها قالت: (قبض الله النبي بين سحري ونحري، ودُفن في بيتي) فالمقصود بسحري هنا أي صدري الذي يظهر أثره ويخفى شكله على الناس لأنه مستور، ولعلنا نذكر في هذا السياق أيضاً ما ورد عن أبي جهل أنه قال عن عتبة: (انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه) وسحره هنا أي رئتاه وأحشاؤه كون أثرها قد ظهر من الانتفاخ ولكن شكلها مخفى على العين، وكل ما ذكرناه هو بغية تأكيد أن معنى السحر هو كل ما ظهر أثره وخفي سببه، وبذلك يدخل الساحر والسحر في هذا القول كون أثر فعلته قد ظهر بينما خفي سببها أو شكلها، وهذا المنطلق هو ما سيساعدنا على فهم وجهة نظر العلماء الذين قالوا إن السحر بمعناه السائد والمتداول قديماً لدى الحضارات غير صحيح، فهو مجرد خيال لا حقيقة له، وهذا ما سنوضحه في قصة موسى والسحرة، ولكن قبيل ذلك وحتى يسهل علينا فهم قصة النبي موسى نود التعريج قليلاً على شخصية لها علاقة بموسى، وهي شخصية (قارون)، ربما لا نعرف الكثير عن هذه الشخصية سوى

ثرائها الفاحش، بيد أني أردت إلقاء الضوء عليها لاكتشاف حقائق أخرى ستعيننا في فهم قصة موسى.

يبدأ القرآن بالحديث عن قارون في سورة القصص بقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦] ورغم عدم ورود تاريخ معين لحادثة موسى وقارون إلا أن إعطاء السيادة في هذه الآية لموسى يثبت أنها بعد حادثة انشقاق البحر والخروج من مصر، حيث لم يكن لموسى قومٌ حين كان بنو إسرائيل عبيداً لدى فرعون، وبما أن موسى مات قبل دخول بني إسرائيل لفلسطين حين تاهوا في الأرض ٤٠ عاماً، فذلك يعني أن حادثة قارون حصلت في أرض سيناء تحديداً،وبما أن الله يقول عن مفاتيح كنوز قارون: ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] بسبب ثقلها، فهذا يعني أيضاً أن قارون كوّن ثروته بعد هروبهم مع موسى من مصر وإلا لما تمكن من الهروب بهذه الأثقال والكنوز وخلفهم فرعون وجنوده! مما يدعنا نتساءل هنا ونقول: من أين لك هذا يا قارون!؟

خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار أن بني إسرائيل عندما لاذوا بالفرار من فرعون لم يكن معهم حتى الأكل وكانوا يرجون موسى أن يدعو الله أن ينزل عليهم المنّ والسلوى! وأن يخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها.. فما هو سر قارون الذي لم يلحقه الفقر والجوع!؟

قبل أن نكشف سر قارون يجب أن نتطرق لشخصيته ونعرف من هو

قارون ولماذا خسف الله به تحديداً فليس هو أول من يكفر بالله أو يجحد فضله ونعمته..!؟

قارون هو ابن يصهار، ويصهار عم موسى، بمعنى آخر أن قارون ابن عم موسى كما قال ذلك ترجمان القرآن ابن عباس في أثر صحيح الإسناد أورده الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه (فتح الباري).

التوراة تذكر أن عم موسى يصهار لديه ابن اسمه (قورح) إذاً لا شك أن قورح هو نفسه قارون، وقد قال ذلك جملة من العلماء، نورد مثالاً على ذلك ما ذكره (ابن عاشور) في تفسيره (التحرير والتنوير) فيقول: «وقارون اسم معرب أصله في العبرانية (قورح) بضم القاف مشبعة وفتح الراء، وقع في تعريبه تغيير بعض حروفه للتخفيف، وأجري وزنه على متعارف الأوزان العربية مثل طالوت وجالوت، (وقورح) هذا ابن عم موسى عليه السلام، فهو قورح بن يصهار ابن قهات بن لاوي بن يعقوب».

الآن وبعد أن عرفنا من يكون قارون أو قورح وعلاقته بموسى، سنرى ماذا قالت التوراة عن قورح هذا، وسنعرف كيف كشف القرآن سر هذه الثروة بكلمة واحدة فقط!.

إن سر الثروة التي حظي بها قارون هي في الكلمة التي قالها قارون في القرآن: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨] والسؤال هنا، كيف يكسب رجل ثروة من العلم وليس من العمل! وما هو هذا العلم؟

العلم باختصار هو علم (الكيمياء).

وحتى تكتمل الصورة يجب أن نعلم أولاً ما ثبت تاريخيّاً عن الثورة الكيميائية في عصر الفراعنة،فكما قال الباحث (بيتر لويسن) أن ثورة الكيمياء لدى الفراعنة كانت عظيمة ويتجلى ذلك في ثلاثة أمور:

- صناعة طوب التعمير
- تحنيط الموتى
- صناعة الذهب

فالقرآن ككتاب مُعجز أخبرنا عن ثورة الكيمياء الفرعونية، فقد قال الله على لسان فرعون بخصوص صناعة الطوب: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨]، وكذلك أشار القرآن الكريم إلى اشتهار الفراعنة بتحنيط الأموات، والذي ثبت الآن أنه كان بطريقة كيميائية (مادة جواياكول) وقد قال الله عن ذلك قاصداً فرعون: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢] وسواء كان الله قد أنجاه بجسده مباشرة أو أنه ألهم قومه بتحنيطه، كقولنا إن الله الشافي،فهو قد يشفينا مباشرة وقد يشفينا بعد أن سخر لنا الأطباء والأدوية. الأمر الأخير وهو علم تحويل التراب إلى ذهب عن طريق خلط الزئبق الأحمر بحجر الكركار الذي أثبتت النقوش اختصاص الفراعنة بذلك وقد ذكره الله على قارون! والراجح أن خلط الزئبق الأحمر والزئبق الأبيض وتحويل الرمل لذهب هي كانت مهنة قارون أو قورح كما يقول بعض أحبار اليهود حين كان من عبيد فرعون قبل الهروب.

ونقوش الفراعنة عن أن الزئبق الأحمر يجلب المال هي ما فُهمت من الناس بالخطأ فظهرت كذبة (الزئبق الأحمر) وقدرته على جلب المال بالسحر لا بالكيمياء!

وبالعودة إلى قارون نجد أن الإمام القرطبي ذكر ذلك في تفسيره للآية: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ نقلاً عن ابن عباس (أي إن قارون كان كيميائيّاً ويعرف صنعة الذهب) والصنعة الكيميائية كما قلنا هي بتحويل التربة إلى ذهب.

وبإمكانك رؤية ماذا يفعل (ثيوسينات الزئبق) الذي اشتهر به الفراعنة إذا تم إحراقه، فهو يمتد بشكل طويل فيصبح كالثعبان، ولو كنا نجهل علم الكيمياء لقلنا إن الذي نراه أمامنا سحر! هو صحيح سحر بالمعنى اللغوي كوننا نرى أثراً نجهل سببه، بيد أن الجن والعوالم الغيبية لاعلاقة لها بجهلنا هنا.

لذلك نجد من علماء المسلمين أيضاً من قالوا بتحريم هذا النوع من الكيمياء، فمثلاً يقول ابن تيمية في (الفتاوى/ فقه البيوع) بأن الكيمياء إذا استخدمت في صناعة الذهب والفضة المغشوشة فهي محرمة. ولعله يقصد بذلك ما اشتهر به الفراعنة وتأثر به الناس من بعدهم! وإلى جانب ابن تيمية، نجد أن لتلميذه ابن قيم الجوزية كتاباً يحمل عنوان (بطلان الكيمياء من أربعين وجهًا) غير أن سوء الحظ لم يجعل هذا الكتاب يصل إلينا بعد أن أهلكه الدهر، والأكيد أن هناك من المشايخ أيضاً من يرون

أن الكيمياء باب من أبواب السحر. لأنك تسكب مادة على مادة فتخرج لنا بمادة جديدة!

وبالعودة إلى قارون أو قورح والذي صنع ثروته بهذا (العلم الذي عنده) والذي تعلمه حين كان عبداً لدى الفراعنة وتأثر بثورتهم، فكلنا نعلم أن قارون خُسف به إلى الأرض، وسبب الخسف الرئيس هو أن قارون قرر بعد ما جمع ثروته أن ينقلب على قيادة موسى ليصبح هو سيّد قومه وبدأ بجمع الأعوان وإشعال الفتن ظنّاً منه أن المال الذي لديه هو كل شيء، فما ذكرته التوراة عن ثورة قورح ضد موسى يتجلى في القرآن في ما قاله قوم موسى لقارون: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]، وقد أورد الحافظ ابن حجر العسقلاني في (فتح الباري) روايةً صحيحة عن ابن عباس، تبين صورة من صور تمرد قارون على موسى فيقول: (عن ابنِ عبَّاسٍ قال: كان موسَى يقولُ لبَني إسرائيلَ إنَّ اللهَ يأمرُكُم بكذا حتَّى دخلَ عليهِمْ في أموالِهم فشقَّ ذلك على قارونَ فقال لبني إسرائيلَ: إنَّ موسَى يقولُ: من زنَى رُجِمَ، فتعالَوْا نجعلْ لبغِيٍّ شيئًا حتَّى تقولَ إنَّ موسَى فعلَ بها فيُرجمُ فنستريحُ منه، ففعَلوا ذلك، فلمَّا خطبَهُم موسَى قالوا له: وإن كنتَ أنت؟ قال: وإن كنتُ أنا. فقالوا: فقد زنَيتَ، فجَزِعَ. فأرسلوا إلى المرأةِ فلمَّا جاءتْ عظُمَ عليها موسَى، وسألَها بالَّذي فلَقَ البحرَ لبني إسرائيلَ إلَّا صدَقَتْ، فأقرَّتْ بالحقِّ، فخرَّ موسَى ساجدًا يبكي، فأوحَى اللهُ إليه: إنِّي أمرتُ الأرضَ أنْ تُطيعَكَ فأمُرْها بما شئتَ، فأمرَها فخُسِفَتْ بقارونَ ومَن معهُ)، وهذه

الرواية تشير أن الحادثة كانت بعد انفلاق البحر وخروج بني إسرائيل وهي دليل آخر على ما ذكرناه في بداية حديثنا عن قارون من أن ثورته ضد موسى كانت بعد الخروج من مصر!

من جهة أخرى تتفق الكتب السماوية على أن الله خسف الأرض بقارون أو قورح، فقد جاء في التوراة أن الأرض انشقت وبلعت قورح وأعوانه: (فَفَتَحَتِ الأَرْضُ فَاهَا وَابْتَلَعَتْهُمَا مَعَ قُورَحَ حِينَ مَاتَ الْقَوْمُ بِإِحْرَاقِ النَّارِ، مِئَتَيْنِ وَخَمْسِينَ رَجُلاً. فَصَارُوا عِبْرَةً.) [سفر العدد ٢٦-

ويؤكد القرآن ذلك بقول الله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

***

إن كل ما ذكرناه هو بنية توضيح أن السحر الذي جاء في قصة موسى عليه السلام والذي اشتهر به الفراعنة إنما هو تلاعبات كيميائية، إن إبداع الفراعنة بالكيمياء هو ما ذكره الله سبحانه على أنه (سحر) في قصة التحدي بين السحرة وبين موسى عليه السلام،حيث يظن الكثير من الناس أن السحرة هنا كانوا مشعوذين، بينما لم يذكر الله أبداً عن وجود جن وشياطين في قصة السحرة التي وردت في أكثر من موضع قرآني، بل إن كل الأدلة التي وردت كانت تؤكد أن المسألة لا تعدو كونها خدعاً بصرية وتلاعبات بمواد كيميائية كقول الله: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦] ولم يقل سحروا الناس! وكذلك قوله: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] ولاحظ قوله

تعالى: (يُخيل) بمعنى خيال غير حقيقي، فكما قلنا أن السحر ينطبق على ما يظهر أثره ويخفى سببه أو شكله، وعليه فإن استخدام لفظ سحر على هذه الخدع البصرية والألعاب السيميائية والتفاعلات الكيميائية هو صحيح لغويّاً، ولكن لا يترتب على ذلك وجود جن كما قلنا، أضف إلى ذلك أن الله أخبرنا بأن فرعون قد جمع من قومه كل سحّار عليم، وكلمة سحّار لغويّاً على وزن فعّال وهو أشد السحرة علماً وخبرة، وقد جاء بهم فرعون مجتمعين فماذا كان من أمرهم؟ إنهم لم يأتوا إلا بخيالٍ لا حقيقة له كما قال الله في كتابه: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ فهذا صريح في أن سحرة فرعون وهم أمهر السحرة لم يأتوا إلا بخيال لا حقيقة له، ولو كان للسحر أثر حقيقي لجاؤوا به في هذا الوقت العصيب، وليس من المعقول أبداً أن يأتي فرعون بكل سحّار عنيد في مقام الانتصار لأعز شيء عندهم (أرضهم)، ثم يكون قصارى أمرهم أن يأتوا بخيال لا حقيقة له وهم عالمون بغيره! بل لو أنهم سحرة يتعاملون مع الجن لما فزعوا من عصا موسى التي تحولت إلى حية تسعى وتلقف ما يأفكون، ولأخرج السحرة على موسى تمساحاً ليأكل ثعبانه المبين!

غير أن الواقع يقول إن هؤلاء السحرة أدركوا أن ألاعيبهم وخيالاتهم لن ترتقي إلى المعجزة الحقيقية التي أتى بها موسى، فخرّوا ساجدين.

ثانياً، وما هو موقفهم من هاروت وماروت؟:

لقد ذكرنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب، قصة سليمان وفتنة الحكم

التي حدثت بينه وبين أخيه، وأن شياطين الإنس الذين تمردوا عليه قد اتهموه بالكفر وبأن هاروت وماروت شخصيات مقدسة في الديانة البابلية وقيل بدل من الشياطين، وختمنا ذلك بقول بعض المفسرين مثل ابن عباس عن أن الله لم ينزل السحر أصلاً وأن (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢] تفيد الجحد، بمعنى (ما أنزل الله السحر أصلاً)، إلا أن هنالك الكثير ممن قد يعترضون على هذه المقدمة قائلين (ولماذا ذكر الله بنص صريح أن هؤلاء السحره يعلمون الناس السحر؟! وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة؟) فنقول: إن هذا الكلام يدعم أصحاب الرأي الذي ينكر حقيقة السحر، وذلك بأن القرآن هنا عرض السحر كـ(علم)، والعلم يمكن تعليمه وليس كمسألة غيبية يمتاز بها شخص عن شخص آخر مثل الشعوذة!

وفي ذلك تأكيد أنهم كانوا يتعلمون أساليب وفنوناً تخييلية تؤدي لهم غاياتهم، وذلك ابتلاء من الله ليؤكد لعامة الناس الذين افتتنوا بهؤلاء السحرة أن معجزة سليمان حقيقية مقارنةً بألاعيبهم، وأنه يتعامل فعلاً مع الجن على عكسهم، وقد كان ذلك مما أكد نبوة سليمان في عيون الكافرين به، بعد ما أدركوا خزعبلات المتمردين عليه.

وأما قول الله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢] فهذه الآية الكريمة لا تصلح حجة لأنها لم تتعرض لحقيقة السحر، فقد يكون

نوعاً من أنواع الفتنة أو الحيلة التي يسعى بها بعض النمامين للتفريق بين الزوجين، ولهذا تحدثت الآية عن الآثار المترتبة على أعمال هؤلاء، فكل ما كان يترتب على فعلهم من الآثار هو الفرقة بين المرء وزوجه، وهذه مسألة قد تقع بغير السحر الخارق للعادة، ولنا من الواقع ما يؤيد هذا، فإن كثيراً من النمامين قد أحدثوا فتنة تفرق بين الزوجين، فليس في الآية الكريمة حجة على أن السحر له أثر حقيقي![1]

ثالثاً: النفاثات في العقد:

لا نشك هنا بوجود من قالوا بأن النفاثات في العقد اللاتي جاء ذكرهن في سورة الفلق: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ [الفلق: ٤] هن النساء الساحرات، ولكن كما قلنا وكررنا بأننا نتحدث هنا عن الرأي الآخر لعلماء المسلمين الذي يرفضون فكرة السحر ويقولون إنه مجرد خيال لا حقيقة له، وذلك ليكون في الدين فسحة لمن لا يريد أن يؤمن بمثل هذه الغيبيات والخوارق التي تجري على أيدي هؤلاء الدجالين كما يزعمون.

فالنفاثات في العقد هن النساء بلا شك ودليل ذلك أن الله قال: (النفاثات) ولم يقل (النفاثين) وهذا يدفعنا للتساؤل، لماذا لا نتعوذ من شر النفاثين الرجال؟ ألا يأتي منهم الضرر أيضًا؟.

في الحقيقة أن اختصاص هذه الآية بالنساء هو ردٌّ على اشتهار النساء بالغيبة والنميمة التي قد تخرب البيوت وتفرق بين المرء وزوجه.

١- انظر: كتاب الفقه على المذاهب الأربعة- عبدالرحمن الجزيري- ص ١٣٨٩.

«فالنفث، هو قذف القليل من الريق وهو شبيه بالنفخ، وهو أقلّ من التفل،والنفث لغويّاً إذا كان في سياق الضرر فالمقصود به نفث السموم أو الأحقاد، كقولنا: نفثت الأفعى سمّها، والمراد به هنا في هذه الآية هو النميمة التي ينفثها النمامون في العقد أي في الروابط الودّية ليبددوا شمل الألفة بين المتحابين: المرء وزوجه، الوالد وولده، الأخوين، المتشاركين في صنعة أو تجارة أو زراعة وغير ذلك مما يربط أواصر الوُدّ بين شخصين أو أكثر. والعرب قديماً تسمي الارتباط الوثيق بين شيئين أو شخصين عقدة، كما جاء التعبير عن الارتباط بين الزوجين (عُقدة النكاح)، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وكذلك قال: ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

ومعنى الآية: ومن شرّ النمامين الذين يحاولون بوساوسهم الخبيثة قطع الأواصر بين المتحابين. وهذا من التشبيه في الجمل التركيبية، نظير التشبيه في سورة المسد بشأن أمّ جميل (امرأة أبي لهب) والتي قال عنها الله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤]، أي النمّامة. حيث النمّام يحمل على عاتقه حطب لهيب النفاق والتفرقة بين المتحابين. وجاء متناسباً مع تكني زوجها بأبي لهب. فهي تحمل حطب هذا اللهب. فكما أنّها لم تكن تحمل حطباً حقيقةً كما زعم بعضهم لأنّها بنت حرب أخت أبي سفيان وكذا زوجها أبو لهب، كانا من أشراف قريش الأثرياء، غير أنّهما كانا يحملان خبثاً ولؤماً بالغين. فالنميمة تحول ما بين الصديقين من محبة إلى بغضاء بالدسائس، وهي

وسائل خفية تشبه السحر الذي هو ما لطف ودقّ مأخذه. فالنمام يأتي بكلام يشبه الصدق، ويؤثر في خلدك كما يفعل الساحر المشعوذ إذا أراد أن يحلّ عقد المحبة والوداد بين كُلّ متحابين. إذ يتزمزم بألفاظ ويعقد عقدةً وينفث فيها، ثُمّ يحلها إيهاماً للعامة أنّ هذا حلّ للعقدة بين الزوجين أو غيرهما. فهو من التشبيه المحضِ وليس المقصود ما تفعله السَّحَرة بالذات. الأمر الذي يتناسب مع سائر آيات سورة الفلق: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣] أي ومن شرّ الليل إذا دخل وغمر كُلّ شيء بظلامه. والليل إذا كان على تلك الحال كان مخوفاً باعثاً على الرهبة والوحشة، لأنّه ستار يختفي في ظلامه ذوو الإجرام إذا قصدوك بالأذى، وعون لأعدائك إذا قصدوا بك الفتك.. وهكذا قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] أي من شرّ حاسد إذا حاول إنفاذ حسده بالسعي والجدّ في إزالة نعمة مَن يحسده. فهو يعمل الحيل وينصب شباكه لإيقاع المحسود في فخ الضرر والأذى، يعمل ذلك بأدقّ الوسائل لتنفيذ مكايده. فكما أنّ الآيتين (السابقة واللاحقة) استعاذة بالله من مكايد أهل الزيغ والإفساد، كذلك هذه الآية: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ ففيها استعاذة من المكايد التي يرتكبها أهل النمائم لإيقاع الأذى».

فالاستعاذة منهم جميعاً بالله المستعان لإحباط مساعيهم وردّ مكايدهم في نحورهم، وهو الملجأ والمعين.

رابعاً: وهل سُحر النبي عليه الصلاة والسلام؟:

جاء في صحيح البخاري الحديث التالي:

«سحَر رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجلٌ من بني زُرَيق، يُقالُ له لَبيدُ بنُ الأعصَم، حتى كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُخَيَّلُ إليه أنه يَفعَلُ الشيءَ وما فعَله، حتى إذا كان ذاتَ يوم أو ذاتَ ليلةٍ وهو عِندي، لكنه دَعا ودَعا، ثم قال: (يا عائشةُ، أشَعَرتِ أن اللهَ أفتاني فيما استفتَيتُه فيه، أتاني رجلانِ، فقعَد أحدُهما عِندَ رأسي، والآخَرُ عِندَ رِجلي، فقال أحدُهما لصاحِبِه: ما وجَعُ الرجلِ؟ فقال: مَطبوبٌ، قال: مَن طبَّه؟ قال: لَبيدُ بنُ الأعصَم، قال: في أيِّ شيءٍ؟ قال: في مُشطٍ ومُشاطَةٍ، وجُفِّ طَلعِ نخلةٍ ذكَرٍ. قال: وأينَ هو؟ قال: في بئرِ ذَروانَ). فأتاها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ناسٍ من أصحابِه، فجاء فقال: (يا عائشةُ، كأن ماءَها نُقاعَةُ الحِنَّاءِ، أو كأن رُؤوسَ نخلِها رُؤوسُ الشياطين). قلتُ: يا رسولَ اللهِ: أفلا استخرَجْتَه؟ قال: (قد عافاني اللهُ، فكرِهْتُ أن أُثوِّرَ على الناسِ فيه شرًّا). فأمَر بها فدُفِنَتْ.

ورغم أن الحديث قد ورد أيضاً في صحيح مسلم، إلا أنه أثار جدلاً وخلافاً كبيراً بين علماء المسلمين، المتقدمين منهم والمتأخرين، وذلك يعود لعدة أسباب-هذا بصرف النظر عن كون الحديث يحتوي في سنده على تفرّد مريب عن هشام لا غير عن عروة لا غير عن عائشة لا غير - إلا أن ذلك لم يكن وحده سبباً للعلماء الذين ردوا هذا الحديث، بل لأنه

خالف في نظر بعض العلماء شروط الحديث الصحيح، وهي الشروط التالية:

١- عدالة رواة الحديث

٢- تمام ضبط رواته لما يروون

٣- اتصال السند من أوله إلى آخره

٤- سلامة الحديث من الشذوذ في سنده ومتنه، ومعنى الشذوذ أن يخالف الراوي من هو أرجح منه

٥- سلامة الحديث من العلة في سنده ومتنه، والعلة سبب خفي يقدح في صحة الحديث.

وهذا ما فتح الباب أمام بعض العلماء للقول بأن في هذا الحديث علة التعارض مع القرآن، نذكر منهم الإمام أبا بكر الرازي في تفسيره (أحكام القرآن) حين قال بأن هذا الحديث من دسيس الملاحدة ليشككونا في ديننا! وليس الإمام الرازي وحده من قال ذلك، بل حتى الإمام فخر الدين الرازي الذي قال: هذا والعياذ بالله أشد أنواع السحر إذا وقع! هذا غير من يرفض الأخذ بالأحاديث الآحادية الفردية! وحتى من العلماء المعاصرين نجد من الشيوخ مثل محمد عبده وسيد قطب من حكموا على هذا الحديث بالبطلان، وبالتأكيد نحن لا ننكر وجود من أقروا صحة هذا الحديث، ولكن لنعرف لماذا رفض بعض العلماء هذا الحديث، يجب أن نذكر الأسباب وهي:

أولاً: وجدوا أن نص الحديث يشير إلى تعارض مع القرآن، فالله سبحانه ذكر لإبليس وسائر الجن والشياطين أنه لن يكون لهم سلطان على عباده الصالحين فقال تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر: ٤١ - ٤٢] ولا يشك أحدنا بأن النبي عليه الصلاة والسلام من عباد الله الصالحين الذين تعهد الله سبحانه وجعل حفظهم من الشياطين صراطاً عليه مستقيماً، فكيف تتمكن الجن والشياطين من سحر النبي والتأثير على عقله وخياله!

ثانياً: أن الأخذ بهذا الحديث فيه قدحٌ في عصمة النبي التي قال الله عنها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧] وهذه عصمة واضحة للنبي عليه الصلاة والسلام من سائر الناس لإتمام رسالته فكيف يتمكن منه ذلك اليهودي الدجال لبيد بن الأعصم؟! كما أن تبرير من أخذ بالسحر بأن هذه آية نزلت بمعركة خاصة ولا يعني تعميمها على كل الحالات، هو تبرير ضعيف، فالقرآن كتاب ينزل لأسباب إلا أنها يجوز تعميمها، فالقرآن دستور وشريعة، فلا أتصور أن يظاهر أحدٌ زوجته فإذا عدل عن ذلك وقلنا له بأن عليك كفّارة الظِهار قال: الكفارة الواردة في القرآن تخص خولة بنت ثعلبة! بالتأكيد أن تشريعات القرآن تعمم في غالبها، وإلا لأصبح القرآن كتاب تاريخ لا يمكننا العمل به والعياذ بالله، لذلك، نص الآية واضح جلي بأن الله سيعصم نبيه الكريم

من الناس حتى يبلغ رسالته، والقول بأن هنالك يهودياً تمكن من سحره عليه الصلاة والسلام قبل إتمامه لهذه الرسالة، فذلك منافٍ لهذه العصمة!

ثالثاً: أن الأخذ بهذا الحديث فيه قدح بالوحي، فالقول بأن الرسول عليه الصلاة والسلام سُحر لستة أشهر، وفي روايات أخرى أكثر من ذلك، فهذا قد يفتح الباب لأي متربص لأن يقول: لديكم حديثٌ صحيح عن أن النبي سُحر لفترة طويلة وكان يُخيل إليه بعض الأمور، فكيف تضمنون أن بعض التشريعات والوحي ليست من خياله هذا؟! لذلك عصم الله نبيه عن الناس حفظاً له من أمثال هذا القدح والعياذ بالله، ولعل ذلك ما قصده الإمام أبو بكر الرازي (الجصاص) عندما قال: إن هؤلاء الملاحدة يريدون تشكيكنا في ديننا!

رابعاً: أن نص الحديث يوحي بإمكانية استخدام النشرة (فك السحر بالسحر) وهذا ما دفع بعض العلماء والمشايخ إلى القول بجواز فك السحر بالسحر نسبةً إلى هذا الحديث، نذكر ما حصل مؤخراً في المملكة العربية السعودية حين أفتى الشيخ عبد المحسن العبيكان بجواز فك السحر بالسحر فيقول الشيخ العبيكان: «إن هناك أدلة على ذلك، منها ما روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم إلى آخره. فقول عائشة رضي الله عنها في هذا الحديث: (أفلا استخرجته) معناه: أظهرته بين الناس؛ كما أوضح ذلك الإمام النووي، وليس المقصود إخراجه من البئر لأنه صلى الله عليه وسلم فعل ذلك.».

ويضيف الشيخ العبيكان: قال الإمام ابن كثير في تفسيره (تفسير القرآن العظيم ج/ ١ ص/ ١٥٨): مسألة: وهل يسأل الساحر حلًّا لسحره؟ فأجاز سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخاري وقال عامر الشعبي: لا بأس بالنشرة وكره ذلك الحسن البصري، وفي الصحيح عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله هلا تنشرت، فقال: (أما الله شفاني وخشيت أن أفتح على الناس شرًا).

ومن المعلوم قطعاً والحديث للشيخ العبيكان أن عائشة رضي الله عنها لا تقصد النشرة بالرقية الشرعية لأن الرسول فعلها عندما قرأ المعوذتين فانحلت العقد. إذاً فهي تقصد النشرة الأخرى التي هي بفعل الساحر.

ويقول العبيكان: «من المعلوم أنه لا يعرف مكان السحر لاستخراجه في الغالب إلا الجن عن طريق ساحر، وإلا فكيف يستخرج، والذين يأمرون الناس بالاقتصار على الرقية يخالفون ما فعله الرسول من استخراج السحر وحله».[1]

خامساً: أن الحديث يصادق في ظاهره على كلام المشركين والكفار الذين كانوا يرمون أطهر الخلق عليه الصلاة والسلام بتهمة السحر كقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧] وقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصافات: ١٥] وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] وقوله:

١- انظر: حديث الشيخ العبيكان كاملاً -جريدة الشرق الأوسط - العدد ١٠٠٨٣ - ٧ يوليو ٢٠٠٦.

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢] وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٧] وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢] وقوله: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدثر: ٢٤ - ٢٥]، والملحوظ من سياق هذه الآيات أن الله سبحانه ينفي ويذب عن نبيه الكريم مثل هذه الأقاويل الباطلة بل ويسمي من يقولها بالظالمين وذلك حتى لا يخلط الناس بين حقيقة النبوة وشعوذة الدجالين، فكيف يستقيم أن نجد حديثاً يؤكد هذه التهمة وأن النبي عليه الصلاة والسلام قد تعرض للسحر الذي أثر عليه وتمكن منه!؟

أتذكر أنني تواصلت مع أحد طلبة العلم وسألته قائلاً (إن كنت تؤمن بأن النبي سُحر بالفعل، فما الحكمة من ذلك؟) فكان رده علي (هذا ليؤكد الله لنا ويثبت أن النبي بشر ويتعرض لما يتعرض له الناس) ورغم أن جوابه كان جذاباً في بداية الأمر إلا أنه سرعان ما تهافت لدي بعد تمحيص وتأمل، فالآيات التي اتهم فيها هؤلاء المشركون نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام بالسحر كانوا يؤكدون أنه بشر ولم ينفوا عنه هذه الصفة.

فهم أقروا بأنه بشر وبأنه رجل مثلهم ولكنه مسحور، بمعنى أنهم لم ينفوا عنه بشريته لكي يؤكدها لهم! بل إنهم اتهموه بأنه بشر ومسحور، والقول بأن النبي قد سُحر ليؤكد لهم أنه بشر فهو لم ينفِ تهمتهم عنه بل أكدها لهم والعياذ بالله! بينما يكون الأصل في نفي هذه التهمة هو في تبيان عصمته عن كيد الحاقدين وليس بتمكنهم منه حاشا لله!

***

لا ننكر وجود بعض الأئمة والعلماء ممن أرادوا أن يوفقوا بين الاثنين عن طريق تأويل الحديث أملاً في درء تعارض النقل والعقل، وأنقل لكم أبرز الأقوال التي وردت في (كتاب الفقه على المذاهب الأربعة) فيقول بعض العلماء:

«وهذا الحديث الذي رواه البخاري فيه شيء يجب أن ننزه عنه رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو قول عائشة: إنه كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعل، لأنه إذا أخذ على ظاهرة كان قدحاً في النبي وهو المصون المنزه في تفكيره وإدراكه عن كل شائبة من شوائب النقص، ولهذا يجب أن نفهم هذه الجملة على وجه معقول واضح، إن هذه الجملة التي نطقت بها السيدة عائشة تريد بها أنه كان يخيل إليه أن يأتيها فلم يستطع، وبالتالي إنه كان يجد في نفسه رغبة في جماعها فإذا هم بها عجز عن الفعل، ونظراً لكون هذا متعلقاً بها عبّرت عنه بهذه العبارة حياءً، ويدل على ذلك ما رواه عبد الرزاق عن ابن المسيب، وعروة بن الزبير من أن النبي سُحر في هذا المعنى فقط، وأن السحر لم يحدث في قواه الباطنة أي أثر، بل حبسه عن إتيان زوجه عائشة، وهذا هو النوع المعروف بين الناس، لعصمة النبي عليه الصلاة والسلام من التأثير في أي ناحية من نواحي الإدراك بأي أثر ولو مؤقتاً».[1]

ولقد قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في (فتح الباري) ما يلي: (إن بعض العلماء قال بأن تأثير السحر منحصر في التفريق بين المرء وزوجه،

---

١ - انظر: كتاب الفقه على المذاهب الأربعة) عبدالرحمن الجزيري-ص ١٣٩٢.

فإذا فهمنا هذا الحديث على هذا الوجه لم يكن فيه ذلك الضرر الذي حول به بعضهم وأنكر الحديث من أجله، فلا مانع حينئذٍ من أن يكون للسحر بعض التأثير الحقيقي في بعض الأحيان، على أن هذا الحديث لا يدل دلالة قاطعة طبعاً لأنه لا يفيد إلا الظن، ولهذا قال المنكرون للسحر: إن مثل هذا الحديث الصحيح يصح الاحتجاج به في الأحكام الفقهية الفرعية وأما في إثبات عقيدة فلا، لأن اعتقاد أن السحر له تأثير حقيقي لا يمكن إثباته إلا بالدليل العقلي الذي يؤيده الواقع، ولم يوجد في الخارج إلا حوادث أحاديث ينقلها أناس غير تقاة، ولو كان له حقيقة لقصها علينا كتاب الله تعالى في مسألة سحرة فرعون»

ولا نغفل عن وجود عدد من الرواة ممن قالوا «إن هذا السحر لم يكن له أي أثر على عقل النبي عليه الصلاة والسلام وبأن تأثيره كان في جسمه وبصره كغيره من الأمراض، وبأن النبي لم ينطق في مرضه بغير الصدق والصواب والحق وبأن السحر لم ينل إلا من جسمه الشريف أما عقله فكان على أتم ما يكون طوال مدة المرض!».

وفي الحقيقة أن هذه الأقوال هي تبريرات قد لا تكون حجة، وذلك لضعفها، فهي تثبت السحر للنبي وبأن الشياطين والجن وهذا اليهودي قد تمكنوا منه -حاشا لله- ثم تنفي عنه تأثير ذلك على عقله الشريف، رغم أن ظاهر الحديث يؤكد أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يُخيل إليه، والخيال هو من مراكز الدماغ وليس منبثقاً بشكل ذاتي من البصر حتى نفصل بين العقل والبصر! بل إن جميع الحواس الخمس لها مراكزها

في الدماغ ويدركها العقل فلا يستقيم طبيّاً أن نفصل بين الاثنين، إما أن نقر السحر ونتحمل تبعات ما يترتب على ذلك من الأمور التي ذكرناها سابقاً، وإلا ننفي ذلك جملةً وتفصيلاً ونحفظ لرسولنا الكريم عصمته ومقامه وعقله وسائر ما حفظه له الله في كتابه الكريم.

***

إننا لا ننكر من أن في القرآن الكريم شفاءٌ كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] غير أن الكثير منا قد أساء الفهم في معنى الشفاء فظن بأن المقصود بذلك هو التداوي في القرآن! وفي الحقيقة إن معنى كلمة شفاء هنا هو الشفاء الروحي، وذلك بتزكية الأنفس والقلوب وتطهيرها، وقد قال معظم المفسرين أن المقصود هو (شفاء القلوب بزوال الجهل عنها) وليس بالعلاج الطبي من الأمراض العضوية! وقد كانت العرب تقول (أريد أن أشفي غليلي) أي أن أطهر نفسي وأريحها! وكذلك نجد في قول الله ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] أي يطهرها ويزكيها ويريحها، لا أن يشفيها من الربو والسلّ والسعال الديكي وغيره من الأمراض العضوية..! إن اعتقادنا بالتداوي بالقرآن قد نتج عنه الكثير من الشركيات حتى ظهر بيننا من يضع أوراق المصحف في الماء ويشربها! وكل ذلك أساسه اعتقاد خاطيء بالحاجة لوجود معين على الشفاء أو وسيط يحول بينك وبين الله! وهذا مما قد يقود إلى الشركيات اذا زاد عن حده مع الأيام.

ختاماً، كان من اللائق على الأقل في هذه الحقبة العلمية من الزمن أن

تظهر كل الأقوال الفقهية التي تنفي السحر -مع كامل الاحترام للأقوال الاخرى التي تثبت حقيقة السحر- وذلك ليتأملها الناس فلا ينفتن أحدهم بثورة العلم الذي ينفي السحر والتلبس بشكلٍ قطعي، فيظن أن القرآن أقر السحر دون خلاف عليه، فيخسر إيمانه بكتاب الله، كان الأجدر أن يعرف الجميع بأن القرآن كتابٌ صالح لكل زمان ومكان، وسبّاق بعلومه، وأنه نفى كل هذه الشعودة والخرافات، نعم لا ننكر وجود دجالين وسحرة ومشعوذين إلى اليوم، ولكن دورهم يكمن في الضحك على الناس وافتتانهم في دينهم بل وجرّهم إلى الشركيات المبنية على أوهام وذلك لأهدافٍ مادية، وقد كان الشرع صارماً تجاه هؤلاء الدجاجلة، فوضع حداً صارماً للسحرة، وحرّم التواصل معهم، بل إن الذهاب إليهم يعد من مسببات الكفر كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود أن النبي قال: (من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد)، نعم لأن الإيمان بقول الساحر وبقدرته على علم الغيب والتأثير في الناس هو كفر صريح بما أنزله الله على محمد من القرآن الكريم الذي نفى أن يتعامل أحدهم مع الجن بعد سليمان، أو أن يراهم من حيث يرونه، أو أن يكون للشيطان سلطان غير سلطان الوسوسة كما قال الله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فالسحر لا يعدو كونه خدعاً وخيالاً، وكما قال الله قطعاً: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، وعلى كل من يرى بحقيقة السحر أن يثبت لنا، كيف يفلح الساحر يا ترى!؟

الخاتمة

لو طلبتم مني أن أعود لكتابة كل ما كتبته آنفاً بصيغة أخرى لما استطعت، لأني أزعم أنني استخدمت كل أحرفي وعباراتي بطريقتي المُثلى، ويستحيل أن يكون للإنسان طريقتان مثليان، فلكل إنسان قمة أدبية وبلاغية ولغوية، ولا يستطيع أن يعيد سرد رواية أو كتاب بطريقة بلاغية أخرى، لذلك كنت أتعجب وأقول، لماذا يعيد القرآن تكرار القصص في أكثر من سورة وموضع بأسلوب آخر، في بداية الأمر أقنعني ما ذكره الدكتور علي الوردي في كتابه (خوارق اللاشعور) عندما قال: (إن كل كلمة يتكرر قولها على نفسك مرة بعد مرة لقادرة أن تطبع في عقلك الباطن شيئاً من الإيمان بها قليلاً أو كثيراً، والإيمان يزلزل الجبال كما يقولون، نجد بعض النقاد من غير المسلمين من ينتقد القرآن لأنه يكرر القصص وآيات الوعظ مرة بعد مرة، ويذكر الله وآثاره في الكون في كل صفحة من صفحاته، ما درى هؤلاء المغفلون بأن هذا التكرار الذي ينتقدونه هو الذي طبع في نفوس العرب ذلك الإيمان العميق بالله، وجعلهم يحطمون إيوان كسرى وعرش القيصر في سنواتٍ معدودة).[1]

ورغم جمال هذا الرأي للدكتور علي الوردي وصحته بكل تأكيد، إلا أنني لم أتوقف عنده كما توقفت عند ما قاله الإمام الفخر الرازي (إن القرآن يذكر القصة الواحدة مراراً مختلفة وبألفاظٍ مختلفة، وكل

---

١ - خوارق اللاشعور - علي الوردي - ص ١٢٨.

ذلك متشابهة في الفصاحة، مع أن الفصيح إذا ذكر القصة الواحدة مرة واحدة بالألفاظ الفصيحة، عجز عن ذكرها بعينها مرة أخرى بالألفاظ الفصيحة، فيستدل بفصاحة الكل على كونها من عند الله لا من عند البشر).[1]

نعم هو من عند الله، وهذا ما نؤمن به، وما ندعو له وما نعمل عليه، قبل أن نفارق الحياة.

وعلى ذكر مفارقة الحياة، كنت دائماً ما أقف متأملاً في صغري أثناء مشاهدتي للأفلام القديمة (الأبيض والأسود) وكلما وقعت عيني على مشهد بدأت أحدّث نفسي فأقول (هل مات هذا الممثل؟) (هل ماتت هذه الممثلة؟) (كم يبلغ عمر هذا الطفل في هذا المشهد؟ أم ربما مات أيضاً؟)، ولا مراء في كون الموت يشغل لغزاً محيراً مع النفس منذ ميلادها، كم نحن سعداء أن الحياة وجدت لتلهينا، وأن الإنسان خُلق في كبد فانصرف عن الموت ولغزه.

أن تفنى من الحياة فلا تكون في هذا الوجود؟ أن تعود للعدم؟ أن تنتهي فتكون نسياً منسيّاً من بعد ما كان ينطوي فيك العالم الأكبر!

هو لغزٌ بكل تأكيد، ولا ندري لماذا وجد لنا مدة استيفاء في هذه الحياة، وقدر محتوم، كل شيء يدل أن لك بداية ونهاية، وأن ظهورك للوجود برهة من الزمن وعودتك للعدم ليست بدوافع عبثية لهذا الكون، وإلا فلماذا لا أعود للحياة مرة أخرى طالما العبث والمصادفة لا يخضعان لقوانين!

---

١ - عجائب القرآن- فخر الدين الرازي - ص ١٣.

لستُ أدري،فأنا لا أومن أصلاً بالمصادفة والعبث، كل شيء مُدبر من عند الله الحكيم.

و ما أعرفه أني سأموت، وأن أموت يعني أن لا أستيقظ مرة أخرى، وأن لا أشرب قهوتي، أو أرى أصحابي، أو أقرأ كتابي.

أن أموت يعني أن تنتهي معركتي الفكرية، وصراعاتي الوجودية، وقرءاتي الفلسفية.

أن أموت يعني أن لا أستمع لسورة مريم التي أحبها كثيراً وأستمع إليها في كل صباح، فالقرآن هو نذير دنيوي، وسينتهي عملي به وتدبري له فور رحيلي من هذه الحياة، فيوم القيامة لن نعود للقرآن من جديد، ربما نشتاق كثيراً إليه، ولكن الوقت قد حان لنرى صدق وعوده وما جاء فيه.

الحمد لله رب العالمين

ربنا رب العالمين

ولا إله إلا.. رب العالمين

مكتبة بلدية